بحر الرماد
رواية
محمد البدري
عصير الكتب
للنشر و التوزيع

بحر الرماد

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
رقم الإيداع: 2021/13841م
الترقيم الدولي: 978-977-85916-8-2

المؤلف: محمد البدري
تدقيق لغوي: عماد غزير
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

رواية

بحر الرماد

محمد البدري

عصير الكتب

الإهداء

في تلك الليالي العصيبة أتذكرك فأطمئن، كُنتَ دائمًا الملجأ والصديق والرفيق، إليك أبي؛ دائمًا وأبدًا في كل وقت وفي كل زمان.

إلى أمي العزيزة إليكِ أنتِ وكفى.

إهداء

في العادة يُكتب الإهداء بالمحبرة والأقلام وبعض الأوراق، وفي الغالب يكون قصيرًا مُقتضبًا، ولكن كان هذا الإهداء مختلفًا تمامًا؛ فهذا الإهداء -عن دونه من الإهداءات- أكتبه الآن بروحي ودمائي وأحشائي، بكل ذرة في كياني الفاني، بكل نبضة قلبٍ ضخت الدماء في عروقي، تلك النبضات التي تتغنى باسمكِ في كل مرة أكتب فيها عنكِ، ودائمًا ما كانت تسألني الأوراق والمحبرة عن سر تلك المرأة التي تتسرب الكلمات من بين ضلوعي كالدماء من أجلها... وكيف لي أن أعرف هذا السر الرهيب؟

فأنتِ البسيطة التي لا شبيهة لها، بسيطةٌ بساطة معقدة للغاية، بساطة لن يفهمها سوى شاعر أو فنان، ودعيني أخبركِ أن للأشياء المتفردة خصوصية فنية، وكنتِ أنتِ دائمًا تلك المتفردة والاستثنائية عن هؤلاء البقية المكررين، أحبكِ كُلكِ؛ مِن أَوّلكِ إلى آخركِ، أحب صوتكِ، زفراتكِ، نظراتكِ، أحب عينيكِ وروحكِ... واليوم أدركت جيدًا أنني أنا الزاهد في كل شيء والراغب فيكِ أنتِ!

أهديكِ اليوم قلبي قبل كلمـاتي، أهديكِ قصائد الشعر التي رضخت أمام عينيكِ بانهزامٍ وانبهار، أهديكِ ضلوعي لتكون لكِ مسكنًا.

إليكِ يا من تسكنين كياني وروحي وفؤادي، إلى الاستثنائية والمتفردة "همّت أبو اليزيد" عليكِ مني العشق والود والسلام.

«أنا الذي لا فرق عندي
بين الموسيقى والدموع!».

- فردريك نيتشه.

"مرفأ الخليج الغربي"
"الخليج الغربي"
"مقبرة الأسياد"
"غابة الغربان"
القلعة الرمادية
"إقليم الأسياد"
"وادي الضباب"
"جبال جالكوم الثلجية"
"غابة الفضة الملكية"
"مدينة النسيان"
"جبال آشاي"
نهر المثلث
"مرفأ كاتلوس"
"بحر الرماد العظيم"
البوابة الشمالية
"العاصمة"
الخاصة الملكية
"حي القصور"
الساحة العامة
"مبنى القدماء"
"ثينيا"
"البوابة الشرقية"
المرفأ الشمالي المهجور
وادي الوفرة
غابات عظام التنين
قلعة عدن

النعيق الأول

«مقبرة الأسياد»

1

السنة الـ «2890» بعد السيادة الأولى.

إقليم «الأسياد» قبيل غروب الشمس...

لم يتوقف نعيق الغربان هذه الليلة وحلّقت فوق الأغصان في جماعاتٍ وأسراب، وتحركت الفروع مع الرياح الخشنة تخدش بعضها بعضًا بانْسِيابٍ وسلاسة، في منتصف الغابة وقف الفتى على بُعدِ فرسخٍ من المقبرة، شعر وكأن هناك رعشةً تجري في جوانحه، وظل مشدوهًا لدقائق عدة مرت لم يشعر بعبورها حتى، ولم يشعر بأي شيءٍ في الحقيقة حتى زمهرير البرد الذي أخذ ينقر الأنوف، ويخترق الضلوع بلا استئذان، لم يشعر سوى بالذهول الهائل واللذة غير العابرة التي اعترته في تلك اللحظة، وشعور بالانتشاءِ لم يفهم من كنهِهِ شيئًا عندما شاهد البوابات الشاهقة للمقبرة، كانت لذته لذةً غير منتهية وغريبة اعتلت روحه وكيانه في آنٍ واحد؛ وكأن شيئًا نال منهُ ونال من روحه، لقد شاهد تلك البوابات آلاف المرات من قبل، وفي كل مرةً يشعر أنها المرة الأولى، وانتابه شُعور بالهيبة، مصحوب بفضولٍ رهيبٍ يملؤه الخوف العنيد وجحيم مصبوب من التردد!

كان شيئًا يثير في داخله التساؤل والفضول؛ هل كانوا موجودين يومًا؟ كيف كان الأسياد يأكلون؟ وماذا كانوا يأكلون؟ فيضان من الأسئلة الذي قد اجتاح عقله الصغير، وهو عاجز عن التوقف في التفكير حقًّا، كانت «مقبرة الأسياد»؛ كما أسماها سكان مملكة «إيڤيريا»، تقع آخر غابة الغربان، وتبعد عنها مسافة ساعتين سيرًا على الأقدام، لكنه لم يذهب هناك قط، ولا يستطيع الذهاب إليها أبدًا؛ لأن السيد والده قد ألقى عليه تحذيرًا خشن اللهجة بألا يقترب من مقبرة الأسياد وحيدًا، وخاصةً في جُنح الليل، ويكتفي بأن يرمق أبوابها من بعيد، ولكن هذا لم يشف فضوله عن الاقتراب قط، وما يلبثُ أن يقترب منها خطوةً واحدةً حتى يرجعها مرةً أخرى، كان يريد أن يرى بعينيه ليتأكد من شيء دائمًــا ما دار في ذهنه، وتساءل: هل هم موتى حقًّا؟ وهل هناك دليل على هذا؟ وكأنه يسمع كل ليلةٍ نداءهم وصراخهم وأنينهم، ولكن هل للموتى أنين؟ يقول السيد والده: لا أنين للموتى!

وبعد لحظةٍ سمع حركةً كالحفيف تصدر من بين الأشجار، وصوتًا دنا من أذنيه يُردد اسمه:

- إيدجار! إيدجار، أين أنت؟

كان الصوت عاليًا، وتردد صداه في الغابة التي اصطبغ أفقها باللون الأحمر مع مغيب الشمس، كانت أوراق الشجر المكسوة بالصقيع تتساقط ويتساقط معها ضوء الشمس الخافت من السماء رويدًا رويدًا، ليعلن عن الظلمة المنبعثة من اللاشيء، وعندما لمس الصوت أذنيه تعرف عليه في الحال، كان غارقًا جدًّا في أفكاره لدرجة أنه لم يسمع شقيقيه يقتربان، إلا عندما وجد شقيقه الأكبر؛ «أركام» بجواره، وسأله بلهجةٍ لم يغب عنها اللطف وشيءٍ طفيفٍ من القلق:

- إيدجار، هل أنت بخير يا أخي؟

كان «أركام» طويل القامة ذا منكبين عريضين تتجلى فيه قسمات السيد والده، بشرته بيضاء وشعره أسود مطفأ، وعيناه زرقاوان متوهجتان، وله لحية خفيفة ارتسمت على وجهٍ جسور، كان بهي الطلعة ومفتول العضلات، وكان منذ شهرين فقط قد أكمل عقده الثاني.

قال إيدجار بنبرةٍ تحمل الانزعاج والتذمر:

- أنا بخير! فأنا لست طفلًا لتقلق عليّ؛ سوف أبلغُ العاشرة بعد شهرٍ من الآن.

كان إيدجار فتى مرحًا وهزيلًا، يقترب من عقده الأول، وينمو يومًا بعد يوم، كانت عيناه تشع باللون الرمادي القاتم، وفوق عينه اليمنى جفن به ندبة غائرة لم يذكر يومًا كيف أُصيب بها، كان السيد والده يقول له إنه قد أصيب بها وهو صغير عَقب انتهاء الحرب، وأن هذا يجعله أصغر محارب قد أصيب في «حرب الإبادة»، وأن دماء المحاربين والفرسان تسير في عروقه كما تسير في عروقه دماء الأسياد، وكان إيدجار يفرح كثيرًا بمقولة أبيه عنه، ويعزز طموحه بأن يكون فارسًا جامحًا كأبيه وإخوته في يوم من الأيام، وكان يحمل في روحه التمرد والمغامرة والكثير من الفضول الجارف، وكان «أركام» يحب شقيقه الصغير إيدجار بشدة، ودائمًا ما كان يتعامل معه بلطفٍ شديد.

أطلق «أركام» ضحكة، وأردف:

- حسنًا أيها الفتى الشجاع، هيا بنا، لقد غربت الشمس والليل قادم.

وهنا سمع الاثنان صوتًا لحوافر خيلٍ تقترب منهم، وقطع شكهم باليقين صهيل الحصان وصوت حوافره الذي تسرب إلى آذانهم من مكانٍ يكاد يكون قريبًا جدًّا منهم، لحظات وتقدم الحصان فتى في عمر أركام تقريبًا، وكان يشبهه كثيرًا في الهيئة والملامح، فأردف بابتسامة:

- هل وجدته؟

واقترب منهم، بادله أركام الابتسامة وقال ببعضِ الاستياء:

- نعم يا «إيڤار»، لقد وجدته يا أخي، ها هو كما العادة يراقب «مقبرة الأسياد» من على بعد فرسخ!

كان «إيڤار» شقيقهم الأوسط، يكبُر إيدجار بثماني سنوات، ويصغر أركام باثنين، وسيم ولديه أنف مدبب، وحاجبان معقودان، كان «إيڤار» ماهرًا جدًّا في استخدام القوس والسهم، وغالبًا ما كان يتولى أمر الصيد والطريدة، كانوا يخرجون ثلاثتهم للصيد معًا في الغابة بأمر من السيد والدهم حتى يكتسبوا الشجاعة والمهارة اللازمة ليكونوا فرسانًا أشداء، كان السيد والدهم رجلًا صارمًا إلى حدٍّ ما، جدِّيّ إلى أبعد الحدود، صامتًا لا يتحدث إلا عند الحاجة، وقورًا وله هيبةً عظيمة، يهابه كل من في القلعة، دائمًا ما كانوا يسمعون الحكايات الأسطورية عن بطولات السيد والدهم في «حرب الإبادة»؛ وأنه قاد جيوش الملك «أطلس» ضد مملكة «أوديث» القديمة، ودائمًا ما كانوا يذكرون أمر الصداقة القوية التي كانت بين أبيهم والملك أطلس، حتى في وقتٍ ما ظن شعب «إيڤيريا» أن أباهم كان شقيقًا للملك، وبين عروقهم تسير دماء واحدة، يقولون إنه ربح الحرب وكرمه أطلس لذلك؛ جاعلًا إياه كلمته القاطعة، وساعده ويده اليمنى، كان له صلاحيات الملك، يجلس على العرش، ويصوغ القوانين، ويحكم على الأرواح بالهلاك والحياة.

ولكن بعد عامٍ واحدٍ فقط عزله أطلس من منصبه، وجرده من كل ألقابه لسببٍ غير معروف، ولم يعرفه أحد قط، ولم يكتف الملك بهذا، بل نفاه من العاصمة للأبد، ليعود أدراجه لعائلته في إقليم «الأسياد»، وكان شعب «إيڤيريا» آنذاك مستاءً من قرار أطلس الأهوج الذي لم يفهم أحد كنهه، كان السيد والدهم رجل شرف وعدل، وكان الجميع وكل من في مملكة «إيڤيريا» من الأقاليم الأربعة، وكل الأسياد واللوردات والأمراء الذين يحكمون الأقاليم يحترمونه بشدةٍ ويتبعون أوامره بلا شكٍّ أو لحظة تردد، كرجل شرفٍ أولًا، وثانيًا كقائد عظيم قاد «إيڤيريا» نحو النصر في الحرب العظيمة.

عم الصمت المكان للحظاتٍ، قال فيها إيڤار كاسرًا سكون الغابة العاتي:

- حسنًا جيد، هيا بنا نعود أدراجنا إلى القلعة، لقد اصطدتُ الوعل!

وأشار إلى ظهر جواده الأصهب، كان وعلًا هائلًا له قرون ضخمة جدًّا ومدببة كالسكاكين، ومع نظراتهم الأولى للوعل كان يصعب عدم ملاحظة السهم الذي أصابه من مسافة بعيدة واخترق رقبته ومزقها فأرداه أرضًا جثةً هامدة، لطالما كان أخوهم إيڤار بارعًا في هذا الأمر، وانسالت الدماء من عروق الوعلِ منهمرةً على الأرض بغير توقف، فأردف أركام بابتسامة:

- أحسنت يا إيڤار، صيد جيد!

فقال إيدجار ووسع عينيه ذهولًا:

- بحق الأسياد! يا له من وعلٍ ضخمٍ حقًّا، لم أر في حياتي وعلًا بهذا الحجم قط!

أطلق أركام ضحكةً وقال:

- لعل هذا لأنك لم تر وعلًا من قبل يا إيدجار.

كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها إيدجار الصغير وعلًا بأم عينيه حقًّا، ولم يذق طعمه قط بالطبع، كان إقليم الأسياد يعتمد على الزراعة بالرغم من أجوائه القاسية أحيانًا، ولم يحظ الإقليم برفاهية لحم الأوعال من قبل، وغمرته فرحة شديدة، وانتشاء لم يُدرك من أين انبعث، ابتسم شقيقه إيڤار وقال:

- نادرًا ما تجد وعولًا في غابة الغربان يا إيدجار، وغالبًا ما تضيع من قطعانها، وقطعان الأوعال غالبًا ما تكون قريبةً من العاصمة؛ في غابات الملوك على الأغلب!

قال إيدجار: «ألم تذهبا إلى العاصمة من قبل؟».

أردف إيڤار بنبراتٍ منزعجة:

- لا، ولا تتحدث عن هذا الأمر أمام أبينا يا إيدجار!

- لماذا؟

أردف أركام:

- لم نذهب إلى عاصمة إيڤيريا قط يا إيدجار!

ثم أكمل بنبراتٍ تحذيرية حادة: «ومُحرم علينا الذهاب إلى العاصمة إلى بقية العمر، وهذا قسم مُقدس بأسماء الأسياد أقسمناه لأبي؛ أن نبتعد عن العاصمة ولا تطأ أقدامنا أرضها أبدًا ما حيينا، ومهما حدث لا يجب علينا أن نتحدث عنها أو نذكرها في مألوف الكلام، هذه أوامر أبي الصارمة، والتي لا يجب علينا عصيانها مهما حدث... ومهما كلف الأمر!».

صمت إيدجار لبرهةٍ ليفهم كل ما قد قيل من شقيقيه، وداعبه فضوله بشدةٍ وطفق يسأل:

- ما الذي حدث لأبي في العاصمة؟

نظر الشقيقان الأكبران لبعضهما بعضًا في حيرة ألجمت الكلمات، وبعد لحظة قال إيڤار بعد أن أخرج تنهيدةً طويلة:

- لا أحد يعلم القصة كاملة عن الأمر!؛ جُل ما نعلمه أن أبانا كان ساعد الملك ويده اليمنى وكلمته، وكان هذا في وقتٍ بعيدٍ مضى، وكان يجمعهما صداقة وحب شديدان، إلا أن الملك «أطلس» قد جرد أبانا من لقب الكونت والقائد والأدميرال، وعزله عن منصبه ونفاه من العاصمة للأبد!

أردف أركام باستياءٍ شديد:

- حقًّا لا أفهم ما السبب وراء كل هذا، ولا يسعني سوى التساؤل؛ إن أبانا رجل شرف، يحترمه المجلس الملكي برمته؛ كل لوردات الأقاليم الأربعة، كل قائد وكل كونتيسة وكل فارس يـحرس حدود المملكة، جميعهم خدموا مع أبي ويعرفونه كما يعرفون أنفسهم، وما زالوا إلى الآن ينعتونه باللورد والأدميرال والكونت على الرغم من أن الملك أطلس قد جرده من جُل ألقابه بعد نفيه، لقد جمع بين أبينا وأطلس حب الإخوة كما قد قيل لنا، كما أنه قد قاد جيش أطلس في حرب الإبادة وجاء له بالانتصار على مملكة «أوديث»، لقد كانا أخوين وبينهما عهود عتيقةً ومقدسة بأسماء الأسياد، فكيف يُلقي أطلس بأبينا في المنفى ويُحرم عليه دخول العاصمة للأبد بعد كل الذي مرّا به معًا؟

صمت إيدجار للحظاتٍ وعاد يقول بنبراتٍ مترددة تمتزج بالشك والخوف:

- إن أبي رجل شرف... صحيح؟!

ابتسم أركام ووضع يده على كتف إيدجار الصغير وحدثه برفقه المعهود:

- عزيزي إيدجار، إن أبانا ليس فقط رجل شرف، بل إنه فارس نبيل وقائد إقليم الأسياد؛ أعظم إقليم في مملكة إيڤيريا بأسرها، إن أسلافنا وأجدادنا كانت لهم السياده الأولى للإقليم بعد الفناء العظيم، ولا يتولى هذا المنصب إلا رجل يحمل بين عروقه دم الأسياد الأوائل.

ثم وضع يده على صدر إيدجار وشعر بأضلاعه الصغيرة بين أنامله وبنبضات قلبه الثائرة، ثم استطرد:

- هنا يا إيدجار... هنا يمكنك أن تسأل وأن تجد الجواب، إن قلوبنا لا تخطئ أبدًا يا أخي الصغير، وهذا ما عليك أن تعلمه، إن للقلب بصيرةً تتغلب على بصيرة العين، إن أبانا رجل شريف وعظيم يحمل من الشرف مثل ما يحمل من الشجاعة والقوة والنبل والأصالة، عليك أن تفهم هذا جيدًا، إن ما حدث مع أبي وأطلس لربما يكتنفه الغموض

ولكن ما أضمنه لك هو أن أبي بريء أيًّا كان جرمه، رجل تدين له مملكة إيڤيريا بالكامل، وشعب إيڤيريا يعلم تمامًا من هو «داريوس» ابن «فاندرال» العظيم.

ثم سمعوا جميعًا عواء قطيعٍ من الذئاب لا لبس فيه، كان يبدو أنه على بُعد دقائق عنهم، وعرف إيدجار مصدر الصوت أو تكهن على الأرجح وإن لم يكن تكهنه صحيحًا؛ كانت تحكي له أمه إن مقبرة الأسياد مكان يعجُّ بالوحوش الضارية والأشباح والغيلان الأسطورية، وقطعان الذئاب الضالة، وبالرغم من هذا لم يشعر بالخوف يومًا، بل يزداد فضولًا يومًا بعد يوم.

وصمت الجميع حتى قال إيڤار:

- هيا بنا، سوف نعود للقلعة، إن غابة الغربان ليست مكانًا آمنًا في الليل.

تمتم إيدجار بصوتٍ خفيض: «أريد أن أراها يا إيڤار!».

نظر له إيڤار ثم أردف بعد لحظة تردد بنبرات تحمل الجدية:

- إن مقبرة الأسياد مكان خطير للغاية يا إيدجار، ولا يجب علينا الاقتراب منها أبدًا، وإن علم أبونا أننا اقتربنا لهذا الحد حتى، لسوف يصب جام غضبه علينا.

بعدها أردف أركام:

- لا تكن فضوليًّا يا إيدجار، إن مقبرة الأسياد ما هي إلا مجموعة من العظام، وليس لها أي فائدة تُذكر.

قرأ إيدجار في عين أخيه الكذب، لم يكن بارعًا في الكذب قط، وربما هذا ما ورثه عن السيد والده حقًّا، أردف باندفاعٍ مفاجئ ورغبة شديدة لا تحتمل في أن يعرف أكثر:

- وهل رأيتها من قبل يا أركام؟

صمت أركام للحظات وقال:

- نعم، مرةً واحدة فقط!

- وماذا رأيت هناك؟ قل لي الحقيقة يا أخي الكبير، أنت لا تعرف الخداع والكذب كأبينا تمامًا.

زفر أركام أنفاسه بيأسٍ وكأنه سيقول حقيقة ما، فلا مفر من الحقيقة أبدًا، ثم جفل وحامت نظراته الفضاء وقال:

- في الحقيقة ما رأيته لا أستطيع وصفه يا إيدجار، ولا أجد تعبيرًا يصف ما رأيت إلا الذهول المهول والشعور بهيبة رهيبة، وقشعريرة في الجسد لا تكاد تتوقف، لقد رأيت

الماضي، ماضي إيڤيريا السحيق، رأيت وكأن الأسياد قد دبّت في عظامهم الأرواح، أرواح لا تراها قط، ولكن تشعر بها؛ تخترق البدن والأفئدة، ما تحاول أن تراه من هنا يا إيدجار ليس ما تظن، ما ترمقه ليس إلا بوابة لعالم آخر، ما إن تطأ قدماك هذا العالم حتى تنتزع الهيبة روحك وتجتث قلبك من مكانه!

ثم أمسك لسانه على مضضٍ وأردف بلهجةٍ تحذيرية:

- ومع هذا فإن مقبرة الأسياد مكان خطير للغاية، ولا يجب أن تفكر حتى بالذهاب هناك وحدك!

استمع إيدجار ثم استمع، ولم يكتف قط، وما فكر فيه كان أن هذا ليس كافيًا بعد ليشفي فضوله الجارف، لا تكفيه الكلمات لكي يُشبع هذا الفضول المجحف الذي يُغرق روحه ويسير بين عروقه كدمائه، يجب عليه أن يرى الأمر بنفسه، يجب أن يشعر هذا الشعور بنفسه، تبعُد مقبرة الأسياد ساعتين عن غابة الغربان، ثم فكر على مضضٍ سائلًا: «لم لا؟!».

غارقًا كان في النومِ، أو في شيء أشد عُمقًا، فتحت «لاجرثا» باب الغرفة بهدوءٍ شديد، وعلى أطراف أصابعها تسللت حتى لا توقظه، ولا تتنبه حواسه أصلًا، كالطيف أو الشبح عبرت الحجرة، وبخطواتٍ أخف من ريشةً بدأت تقترب من السرير الذي يستلقي عليه، كانت الغرفة هادئةً جدًّا، وباتت أنفاسها تصدر صوتًا خافتًا مع كل شهيقٍ وزفير، اقتربت خطوتين أكثر وترقبت عيناها وجهه وصدره العاري، حمل صدره طعناتٍ عدة لم تستطع إحصاءها، لطالما عرفت أن العمل كصائد جوائز ومتعقّب له مغارمه الوخيمة في النهاية، ولكن ليس مع «آجينار»؛ كان طويلًا ومفتول الجسد وعلى رقبته وشم كان لكائنٍ بجسدٍ له قامات أربع ورأسه يشبه طائرًا ما، النسر على ما تعتقد، ومع بعض التخمين استطاعت أن تُحدد ما هو على الأرجح، لقد كان كائن «الجريفن» الأسطوري، يُحكى قديمًـا أن الأشاوس كانوا يمتطون هذه الكائنات المذهلة، يحترمونها بشدة، واستطاع الأشاوس الأوائل ترويضها وامتطاءها، ولكن قُتل آخر ما تبقى منها في حرب الإبادة.

وبدأت في تأمله؛ شعره طويل أسود داكن، متشعبة كالأشجار كانت لحيته؛ لم يهذبها منذ فترة طويلة، يحمل وجهه قسمات الصلابة والقسوة، وامتد بجواره سيفه الهائل الذي يُطلق عليه «العويل»، تقول الحكايات إن سيفه مصاب بلعنة؛ حيث إنه يُطلق عويلًا مرعبًا عندما يسفك دماءً بريئة، ولكن «لاجرثا» لم تُصدق كل هذه الحكايات،

ولم تر هذا بأم عينيها، وليس هناك كائن بريء من الأساس، وهذا كان أحد المبادئ الأساسية في عقيدة الأشاوس.

في النهاية كان «آجينار» أحد صائدي الجوائز وأحد أشرس الأشاوس الذين قد رأتهم يومًا، وظلت ترمقه وقتًا لا تدريه، كأنما تجوب في أعماقٍ لا يُسبر أغوارها، وعلى الرغم من أنها عملت معه في بعض المهام كمساعدة له بأمرٍ من «جلادور»؛ قائد عشيرة الأشاوس وملكهم منذ ما يزيد على قرون لم يعد يحصيها أحد، إلا أن آجينار لا يزال كتابًا مُغلقًا لها، ولا تجرؤ حتى أن تفكر في قراءته، كتاب مليء باللعنات يلعن كل من يقرأ كلماته وحروفه، وجُل ما تعلمه عنه أنه من أشرس الأشاوس لدى جلادور، يقوم بمهام لا يستطيع أحد غيره القيام بها، يُقال إنه يستطيع قتال تنين في طوره الثاني، ويُقال أيضًا إنه عاصر عصر الأسياد الأول وإنه أول من استطاع ترويض «جريفن»[1] وامتطاءه، ولا أحد يعرف عمره تحديدًا ولكن على الأغلب مئات الأعوام بل وربما آلاف.

كلها كانت أقاويل وحكايات، ولم تعرف «لاجرثا» أين تسكن الحقيقة حتى الآن.

كانت «لاجرثا» فتاةً في منتصف العقدِ الثاني، بشرية اشتراها جلادور من أقصى الشرق في شمال جزيرة «ثينيا»؛ حيث تتجمع أعراق الممالك التسعة معًا للتجارة، كانت «لاجرثا» فتاةً خمرية وجميلة وقوية، علمها جلادور القتال بنفسه وعلى الرغم من أنها ليست خالدة وليست من الأشاوس حتى، فإنه أحبها بشدة، وكان محرمًا على الأشاوس قديمًـا مخالطة البشر، كان يُعتقد أن الأشاوس عرق أرقى من عرق البشر العاديين، بالرغم من تشابههم في الهيئة، ولكن أرواحهم مختلفة تمامًا، كان الأشاوس يعتقدون أن في عروقهم تسير دماء الأسياد الأصلية، الرجل منهم بقوة عشرات الرجال من البشر، سيوفهم يُقال إنها إما من أنياب التنانين، وإما من معدن «الأرك» المقدس، مطروقة بتمائم سفلية وسماوية، يستخدمون سحر الأوائل والأسياد والذي يمنحهم الخلود وسرعة هائلة في شفاء الجروح واندمالها سريعًا.

كانت أرض الأشاوس تقع خارج مملكة «إيڤيريا» تمامًا، ولم يكن لهم صلة بالبشر لمدة أكثر من ألف عام، ثبات مقيت، وهدنة طويلة الأمد بين كل الأعراق، ولم يجمعهم شيء سوى دعوى الملوك التي كانت تُقام كل عامٍ من صاحب السيادة وملك البشرية «أطلس» والملوك الذين كانوا من قبله، حتى قامت حرب الإبادة بين مملكة «إيڤيريا» ومملكة «أوديث»؛ أو كما أطلق عليها قديمًا باللغة العتيقة للأسياد الأوائل؛ «آلفهايم»، أو مدينة الإلف.

واستعان أطلس بـعرقِ الأشاوس وملكهم «جلادور» آنذاك لمساعدته في الحرب ضد مملكة «آلفهايم»، ليستعيد شرفه المسلوب والذي سلبه الأمير «إلكادور»؛ وريث العرش والأمير المنتظر لأوديث، وكان المقابل هو نصف غنائم الحرب التي سوف يجنيها

أطلس، والمجد الذي سوف يحصدونه بعد القوانين التي سنّها اجتماع الملوك التسعة، ولم يرفض أطلس قيد أنملة، وكل ما كان يفكر فيه هو الانتقام من الأمير «إلكادور» واستعادة شرفه المسلوب، وأن يطفئ لهيب قلبه الذي اشتعل منذ زمن طويل ومديد.

عندما اقتربت «لاجرثا» أكثر كان جسد «آجينار» باردًا كلوح من الثلج، وتعمدت إصدار بعض الهمهمات لإيقاظه، ولكنه لم يقم بأي حركة قط، متصلبة أفئدته كالحجارة، أرخت ركبتيها على حافة السرير الكبير، وبعد لحظات فتح جفونه، كانت عيناه الرمادية منهكتين بشدة، رمقته للحظاتٍ، ثم بصوت خافت قالت:

- استيقظ يا آجينار.

كان يبدو أن شيئًا ما أرهقه ليلة أمس، تعقب مُجرم أو جائزة كبيرة، قتل وحش ضارٍ ربما، كانت تظن أن الأشاوس لا يشعرون بالإرهاق مثل البشر العاديين، ولكنه كان مرهقًا للغاية، جسده يرشح عرقًا كفيضان غاشم، جفونه تشتهي نومًا لألفِ عام أخرى، وكأن جسده أصبح صدئًا بعد مرور كل تلك الأعوام، انتصب آجينار من على سريره، ثم أنزل قدميه وجلس وبنبراتٍ قاتمة قال:

- ماذا هناك يا لاجارثا؟

أردفت لاجرثا بعد لحظة من الصمت: «طلب جلادور حضورك على الفور يا آجينار!».

فطفق متسائلًا:

- هل طرأ شيء ما؟

أجابت: «لا أعلم، ولكن وصلت رسالة!».

- أي رسالة؟

- رسالة من إيڤيريا!

وصمت للحظة استوعب فيها الكلمات ثم عاد يقول:

- حسنًا، سوف أستيقظ الآن.

انتصب آجينار واقفًا وطقطق ظهره ألمًا امتزج بمتعة مجهولة المصدر، رمقت لاجرثا جسده المفتول المليء بالجروح والندبات في كل مكان، ومنها من لم يلتئم بعد وكأنه كان البارحة، ثم سألت:

- هل كانت ليلة الأمس عصيبة؟

ابتسم آجينار وأردف:

- نعم يا صغيرة، كانت عصيبة، ككل الليالي تقريبًا!

- تبدو مُنهكًا؛ هل تناولت «الستريــجا» مؤخرًا؟

- نعم، ليلة أمس.

- تعقب أثر؟

- لا!

- ماذا إذن؟

ابتسم آجينار ونظر إليها وهو يرتدي ملابسه:

- أنتم أيها البشر، فضوليون للغاية!

ثم استطرد: «لم يكن تعقبًا، هاجم سميلودون[2] قرية صغيرة ووضع حاكم القرية على رأسه الكثير من الذهب!».

شعرت لاجرثا بالكثير من الذهول، ثم سألت بحماس:

- وهل نلت منه؟

- بالكاد!

- كيف؟

أشار آجينار إلى زاوية الغرفة، وهنا حيث انتقلت نظرات لاجارثا حيث أشار، وجدت شيئًا يبدو وكأنه كحقيبة قماشية ملفوفة، مُكوّرة على شيء ما لم تدر ما فيه بعد، اقتربت وفكّت تلك الحقيبة، كانت ممزوجةً بلون أحمر ويفوح من ثناياها رائحة عفن اخترفت أنفها، ومن بين أناملها تدحرج شيء ما أرضًا، كانت رأسًا لنمر عملاق بأنياب هائلة لامعة وحادة، رمقتها بصمت قبل أن تُطلق صرخة مكتومة، ثم في محاولة للسيطرة على لجام ذعرها الهائج وضعت يديها على فمها، ونظرت لآجينار الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة، ثم أردفت في ذهول وبعض من الحماس والإثارة:

- ما هذا؟

- إنه تذكار، أنيابه تساوي الكثير!

وهنا شعرت لاجرثا بقشعريرة انتابت جسدها، وشعور بالحماس مع بعض الاشمئزاز والقرف، لم تر كائن السميلودون من قبل بــهذا القرب، وهذا ما جعلها تشعر بفضولٍ رهيب، وظلت ترمق الرأس المبتور للحظات قبل أن تتخيل كيف قتل آجينار هذا الحيوان الكاسر بضربة من سيفه «العويل» فصلت رأسه عن جسده تمامًا، يبدو أن الأمر لم يكن مرهقًا له كما تخيلت، وهي تعرف جيدًا أن آجينار لم يستخدم نصف قوته الحقيقية حتى لقتل هذا النمر العملاق، إن لاجرثا تعرف أن آجينار أقوى من هذا، لم تر من قبل أحد الأشاوس يموت من إصابةٍ بليغة أو جرح عميق، يملكون قدرة شفاء هائلة وسرعة رهيبة في التئام الجروح، وبالرغم من خلودهم كانت تعرف أن هناك طريقة لقتل أحد الأشاوس في النهاية، ربما بتعويذة سحرية أو لعنة سُفلية، لم تعرف بعد حتى الآن، وبعد مكوثها معهم كل هذا الوقت في قلعة «عدن»، كانت تعرف أنهم لربما يموتون بطريقة ما، وسبب تسمية القلعة بهذا الاسم هو أن القلعة كانت مُعلّقةً على جرف صخري هائل الارتفاع ومن يراها يظن أنها مدينة معلقة في السماء؛ تتحرك وتطفو بين السحاب الراكد، وكانت تلك القلعة المُعلقة مقرًّا للأشاوس لأكثر ما يزيد على عشرة آلاف عام، وظلت صامدةً حتى أثناء الفناء العظيم.

وقف آجينار وفرك عينيه في مقاومة بقايا نعاسٍ كان لا يزال عالقًا بين جفونه، كانت الغرفة متوسطة الحجم، بها سرير كبير وموقد نار تآكلت نيرانه حتى باتت رمادًا، وعلى الجانب الآخر من الغرفة فوق المنضدة قبع إناء واسع به ماء، وتحرك متجهًا نحو الإناء، وفي محاولة بائسة لطرد بقايا نعاسه غمس رأسه في الإناء كاملًا وظل على هذه الحال لثوانٍ، ثم بالماء مسح جسده، ويديه، ثم قدميه وتحت إبطيه، يجب أن يكون مستعدًّا إن كانت هناك مهمة جديدة سيكلفه بها جلادور، ثم بدأ في ارتداء ملابسه، تحسس الملمس الخشن لردائه وملمس الحراشف التي تبث في أجساد من يلمسها القشعريرة؛ يقولون إن جلد التنانين لا يتأثر باللهب ولا تخترقه النصول الحادة؛ إلا نصلًا مقدسًا من فولاذ مثل فولاذ «الأرك»، وذلك الفولاذ لم يعد له وجود الآن وانقرض منذ وقت طويل، ومن تحت ردائه الخشن طبقة مبُطنة من التمائم المطروقة التي تعود إلى عصور ما قبل الفناء العظيم.

وبعد أن انتهى علق سيفه الكبير «العويل» على ظهره، ثم التفت نحو لاجرثا وأردف:

- أنا جاهز يا فتاة، هيا بنا.

ثم خرج الاثنان من الغرفة إلى ممر طويل وواسع على جانبيه اصطفت غرف متجاورة، عبرا الممر حتى وصلا إلى قاعة شاهقة جدًّا تتخللها نوافذ عملاقة من كل مكان، تناثرت النوافذ في السقف والجدران، كما تتناثر الذكريات في رأس آجينار؛ هنا كان يخرج الأشاوس على ظهور الجريفن للحروب، فيما مضى كان الأشاوس قبائل

وشعوبًا سكنت «وادي الوفرة»، وكان هذا قديمًــا جدًّا، قبل وجود البشر حتى، بل قبل وجود أي عرق آخر، كان هذا في زمن الأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء، وما قبل سيادة البشر.

لقد استمع للكثير من الحكايات؛ قبل الفناء العظيم حكم الأسياد الأرض، ولم يكن هناك الكثير من الأعراق آنذاك، كان الأشاوس يعيشون في «وادي الوفرة» أما قبائل الغيلان والجن فسكنت في الجانب المظلم من الأرض، كان وادي الوفرة يمتلئ بالخير والطعام والشراب من كل نوع وصنف ولم تجف أبدًا أنهاره، ولم تنضب ينابيعه، كانت أشجاره تنضح بثمارٍ خضراء مبهجة، ومن ثم تنمو في اليوم التالي، كان الأشاوس يعيشون آخر عصر للأسياد، ولم يضطروا لخوض الحروب إلا مع الوحوش الكاسرة وبعض قبائل الغيلان الفوضوية، ومع موت آخر سيد من الأسياد، اختلت الطبيعة تمامًا، ونضب وادي الوفرة، وجفت أنهاره وذبلت أشجاره، وبدأ الفناء العظيم وانقرضت معظم الأعراق آنذاك، يُقال إن الأرض كانت تتهيأ لعصر سيادة جديد، عصر سُمي بعصر البشرية بعد ذلك.

آجينار لم يعرف هل هي حكايات تُروى للأطفال قبل النوم، أم هي أساطير كتبها رجل ثمل، كان عدد الأشاوس قليلًا جدًّا، ومحرم عليهم التزاوج مع البشر أو مع أي عرقٍ آخر، على كل حال كان البشر ينبذون الأشاوس بالرغم من قوتهم ودمائهم النقية، يظنون أنهم غريبو الأطوار، مسوخ، ملعونون، لعنتهم الآلهة ولعنهم الأسياد على حد سواء.

وأفاق آجينار من غياهب أفكاره وممرات ذكرياته عندما نطقت لاجرثا:

- هل امتطيت واحدًا من قبل؟ أقصد الجريفن!

أردف آجينار:

- نعم، وكان هذا منذ زمن بعيد... بعيد جدًّا!

كانت نبراته تحمل شيئًا من الحزن العميق، والكآبة الآسرة، ثم قالت لاجرثا:

- هل كانت المخلوقات جميلة؟

- أجمل ما قد ترينه يومًا، كانت مخلوقات عظيمة ومقدسة، ذكية ووفية لأصحابها.

تساءلت لاجرثا:

- وماذا قد حدث لها؟

- انقرضت؛ لقد قُتل آخر ما تبقى منها في حرب البشر الأخيرة.

- حرب الإبادة؟

- بلى!

- لقد سمعت عنها كثيرًا، يُقال إنه قد انقرض الكثير من الأعراق في تلك الحرب!

- على مر تلك العصور التي قد عشتها، لم أر عرقًا أغبى من العرق البشري!

- كنت أظن أن الأشاوس محرم عليهم مخالطة البشر، أليس صحيحًا؟

قال بغضب مكبوت:

- بلى، صحيح، ولكن لولا جشع المجلس وموافقة جلادور على خوض الحرب مع البشر، لكان الوضع مختلفًا الآن.

ثم استطرد وقد ازدادت نبراته غضبًا:

- ليس علينا أن نخوض حروب البشر، حروب ليست لنا، ولم تكن لنا أبدًا!

هنا صمتت لاجرثا، ولفحه الصمت بعد ذلك، لم يقصد أن يجرحها آجينار بنصل كلماته الحاد، لكنه كان يشعر بالغضب الشديد ربما على الجنس البشري كله، ولكنه كان يجهل سبب كل هذا، السبب الحقيقي الذي جعل ملك الأشاوس جلادور ومعه المجلس يوافق على مساندة البشر في حروبهم، مع أن هذا كان محرمًا على مر عصور ولآلاف السنين، وغادروا من قاعة النوافذ متجهين نحو قاعة التماثيل الحجرية.

«الهيبة والشرف»، هي الكلمات التي تُقال عندما يُذكر الكونت «داريوس» في كل ركنٍ من أركان المملكة؛ سيد أعظم إقليم في مملكة إيڤيريا؛ إقليم الأسياد، قائد حرب الإبادة وساعد الملك المنفي ويده المبتورة، رجل عريض الكتفين ناحل الأطراف، حافظ على شعر لحيته قصيرًا مشذبًا بعناية، كان الشيب قد وخط لحيته، لم يكن اللورد داريوس رجلًا يهوى الكثير من الضحك، عبوس، لم يضحك منذ وقت طويل جدًّا ملّ من حسابه، ولم يكن داريوس مُرائيًا، ولم يتعلم يومًا كيف هو الكذب أو التملق؛ رجل شرف وأمانة كما عرفته كل إيڤيريا، والممالك التسعة أيضًا، حيث تولى استضافة الملوك حين كانت دعوتهم لا تزال قائمة.

كان رجلًا شجاعًا ومقدامًا يقول كل ما يؤمن به ويفكر فيه دون خوفٍ من أحدٍ حتى وإن كان هذا الشخص هو الملك ذاته، لا يخاف أحدًا أيًّا كانت هويته، وأيًّا كانت قوته وسلطته، كلمته كلمة شرف وأمانة، وما إن تخرج من فمه تكون سيفًا على رقبته،

حاز على احترام شعبِ إيڤيريا وكل من لوردات الأقاليم الثلاثة الأخرى، والملك أطلس والملوك الثمانية معًا؛ لشجاعته في الحرب، ولشرفه في المواجهة، ولأخلاقه الرفيعة وكياستهِ المنمقة.

تقابل داريوس مع الملك أطلس لأول مرة وجهًا لوجه منذ زمن بعيد، عندما كان الملك لا يزال أميرًا واعدًا، كان شديد القوة، يرتدي في معاركه خوذةً بقرون هائلة تثير الرعب في نفوس المحاربين، حينها قاد أطلس غارة لاسترقاق العبيد في أراضي «ڤالكارد» الحمراء، وأرسلت القبائل السبع نداء إغاثة للأقاليم الأربعة ولم يستجب أحد سوى شخص واحد فقط؛ وحينها انطلق داريوس فوق رأس جنوده لمواجهة الأمير الطائش، وتقابلا في معركة حامية ملتهبة، سُميت المعركة بعد ذلك باسم «غارة اللهب»، وهُزم الأمير الأهوج حينها وانسحب بقواته الذهبية بعيدًا وراء التلال، يومها كان الأمير غاضبًا، ولكن مع غضبه العاتي كان يشعر بالاحترام الشديد لهذا الشاب الذي واجهه بشجاعةٍ غير عابئٍ بكونه أميرًا والذي كان يُدعى داريوس كما سمع، وقُص له الكثير من الحكايات عن شرف ذلك الشاب وصدقه وشجاعته، وشعر بأن هذا الشخص سيكون مناسبًا في منصبٍ أرقى من كونه سيدًا لإقليم، وبدأت صداقتهما القوية قبل اندلاع الحرب بأعوامٍ مديدة وطويلة جدًّا، وبعد موت الملك «أمناديل» عيَّن أطلس داريوس ليكون يده وساعده وكلمته حين يكون غائبًا.

ربما يحاول هو جاهدًا أن ينسى الحرب، ولكن الحرب من الأشياء التي يصعُب نسيانها مهما مر الوقت، ومهما عبر الزمان، كانت الحكايات لا تزال تُقص في كل مكان، حكاياتٍ مُحملة ثناياها بالأحمر الدموي التي لا تزال تُحكى حول كل مستوقد وحفرة نارٍ، وفي كل ركنٍ من أركان إيڤيريا؛ عن بطولات الكونت العظيم «داريوس» والملك «أطلس» في حربِ الإبادة... حكايات عن الحب، وأغانٍ عن الموت والرماد والخسارة، وعن الغربان أحيانًا!

كانت الغرفة واسعةً؛ حملت مكتبًا ومنضدة حولها ثلاثة كراسي، وفوق المنضدة زجاجة من النبيذ المُعتق، وفي الركن الآخر علق على الجدار سيفه من الفولاذ القاتم والذي أطلقت عليه الحكايات «الهلاك الأسود» وبجواره درعه الذي شارك به في حرب الإبادة كذكرى للتخليد، وبجوارهما لوحة أهداها له الملك عقب انتهاء الحرب تمامًا، كان يقف فيها بجوار الملك فوق كومة من الجثث، وكلاهما يمسك سيفه ويرفعه لأعلى إشارةً إلى الانتصار على مملكة أوديث وعودة شرف أطلس المسلوب.

هيمن الهدوء والصمت على أرجاء القلعة، في الأركان كانت أُتن النار مشتعلة وبين أحضانها تأجج اللهب الذي انبعث منه الضوء والدفء، ومن النافذة ظل رامقًا الفضاء بنظراتٍ حملت الكثير من الكلمات والأفكار، راقب إقليمه الذي أضيئت بيوته بالشموع

والمشاعل، كانت السماء ذات زُرقة داكنة وملبدة بالغيوم، كان الليل على الأعتاب وامتزجت السماء بالأرجواني القاتم.

اتجه داريوس إلى مكتبه وجلس عليه بوقاره المعتاد، وبعد لحظات دخلت «إيلين»، وقد ظهر على ملامحها بعض القلق والتوتر الشديد، كانت «إيلين» كإشراقة شمس في يوم مثلج، أو كأنشودة جميلة تغنى بها آلاف الشعراء والعشاق، يراها الكونت داريوس كل مرة كأنها أول مرة، عيناها الزرقاوين، أنفها المدبب والرقيق وثغرها المشرق والبشوش، وجدائلها الصفراء الذهبية، يا لها من امرأة تمناها ألف رجل فحصل عليها رجل واحد، زهرة القلعة التي تُعطي لتلك الحوائط الرمادية لونًا ما، إذا كان هناك وصف دقيق لإيلين فهو زهرة المجنوليا، تنشر عبقها في كل ركنٍ قاتمٍ من الأركان فينبعث ضوؤها الذهبي الذي يميل بدلال وغنج فينبت الزهور ويعكس ألوان طيف لم تحسب حسابًا لشتاء غاشم.

كانت تشعر بالقلق بالتأكيد..

لقد تأخر الفتية هذه المرة، ربما تأذى أحدهم أو تعثر بقوة في جذع شجرة، أو ربما هاجمهم وحش ضارٍ بأنياب حادة في الغابة، كل هذه مخاوف كانت تدور في خلدها؛ الفتى الصغير إيدجار تلك هي المرات الأولى له في الصيد في غابة الغربان، يحكى أن غابة الغربان يسكنها سيد، كانت تحكي لهم تلك القصص في طفولتهم، ولكنهم الآن أصبحوا رجالًا ويجب أن يتعلموا الشجاعة، وأن يواجهوا المخاطر، وكانت تلك الفكرة سببًا في أن تهدأ قليلًا؛ إنهم رجال الآن ولم يعودوا أطفالًا كما كانت تراهم دائمًـا.

ثم اتجهت إيلين إلى اللوحة المعلقة على الحائط، ثم أخذت تتأملها، وتحرك الكونت داريوس إلى المنضدة وصب كأسين من النبيذ، واتجه نحوها، وقطع تأملها قائلًا بعد أن ناولها كأس النبيذ:

- كان هذا منذ زمن بعيد، كانت تلك معركة «الأغصان الحزينة»؛ المعركة الأخيرة بين مملكة إيڤيريا وأوديث.

سألت إيلين:

- ولماذا أطلقوا عليها ذلك الاسم؟

أجابها بعد أن تجرع القليل من النبيذ:

- لقد كانت تلك المعركة بالقرب من «غابة الأغصان» خارج المملكة، لقد روت الدماء المسفوكة جذور تلك الأشجار لأيام عديدة، وسكنتها أشباح الموتى؛ ومن يدخل تلك

الغابة يسمع همسًا لبكاء وصراخ خافت بين الأغصان الخالية من أوراقها؛ ولهذا السبب أطلق على المعركة «معركة الأغصان الحزينة»!

صمتت إيلين قليلًا ثم عادت تقول:

- لقد حقق أطلس انتصاره في النهاية.

صمت واتجه للنافذة وتسلل الهواء البارد داخل ضلوعه، ثم خرج ببخارٍ دافئ، ثم أردف:

- تصنع الحقيقة الوهم أحيانًا... وهم الانتصار، في الحقيقة لم يكن هناك انتصار أبدًا، في الحرب كلنا قتلى... حتى الأحياء يصبحون قتلى في الحرب!

عندما انتهى، دخل حارس إليه، وانحنى له بنظرات مرتاعة على وجهه قبل أن يقول بلهفة لافظًا أنفاسه بقوة:

- سيدي... هناك رسول ملكي من العاصمة يطلب رؤيتك حالًا!

كانت القاعة مستديرة فسيحة ذات جدران من الحجارة الهائلة والشاهقة، مقعد واحد لا أكثر كان في القاعة، كان المقعد من الحجارة القاسية والداكنة المنحوتة بدقة عالية، مشيدة عرشًا كعروش الملوك، كانت الحجارة من حجارة «الأرك»[3] المباركة التي كانت موجودة قديمًا قبل الفناء العظيم في «وادي الوفرة»، والتي بُنيت بها قلعة عدن بالكامل، كانت حجارة الأرك ذات لون داكن، وقاسيةً كالفولاذ أو أشد قسوةً من ذلك، إذا تساقط عليها نور الشمس في الصباح لمعت بلمعان أرجواني خافت، وفي الليل ينسال عليها ضوء القمر فتعكس ألوان شفقٍ باهية تخلب الألباب.

كانت القاعة يكتنفها الظلام، تسللت أشعة الشمس بحذر من النوافذ الزجاجية الشاهقة لتسقط على الأرضية والأركان، مكان كئيب موحش لا يتحرك شيء فيه غير الرياح المزمجرة كغول جائع، على جانبي القاعة انبرى صفان من التماثيل هائلة الحجم من الحجارة، كان الأشاوس لديهم طرق لتشكيل الحجارة لم يعد يدركها أحد الآن، كانت التماثيل لكائنات الجريفن المقدسة، لمعت الحجارة القديمة تحت شعاع الشمس الساقط، كانت القاعة تبدو مهيبة، وكأنما تحرسها التماثيل الحجرية، بثت أعين الجريفن الزاجرتان القشعريرة في جسد آجينار عند دخوله القاعة الواسعة، يُقال إن قلعة «عدن» بناها أحد الأسياد، تلك الحجارة الشاهقة هائلة الحجم التي شيدت بها القلعة يستحيل على أي كائن حملها أيًّا كانت قوته، وتلك التماثيل الهائلة والبالغة الدقة، من يراها يظن أنها ستدب فيها الحياة في أي لحظة، كانت قلعة عدن ضخمة

جدًّا، ولم يعرف أحد كيف بُنيت وشيدت؛ وأغلب الظن أنها شيدت من الأسياد الأوائل والعهود القديمة لوادي الوفرة قبل الفناء العظيم.

نظر آجينار للتماثيل الحجرية الشامخة أمام عينيه، لن تنبعث الحياة من الحجارة، هو متأكد من هذا ولكنه كان عبثًا يحاول أن يبعث الحياة في شيء ميت.

وعلى المقعد الحجري في آخر القاعة جلس «جلادور»؛ كبير عشيرة الأشاوس وملكهم، ومن ورائه نافذة عملاقة أطلت على وادي الوفرة، كان وادي الوفرة قديمًا جنة من الجنان، كانت تنبجس من الأرض ينابيع عذبة وأنهار جارية وشلالات لا تنضب، أما الآن فلا يزيد على كونه أرضًا مقفرةً ضرب جذورها الجفاف، كان جلادور طويل القامة، عيناه ذئبيتان تتوشحان باللون الرمادي القاتم، لون بشرته شاحب، وشعره كستنائي حالك كسواد الليل، على رأسه إكليل من الفضة الداكنة يشبه التاج، مرصع بالزمرد، وعلى حافاته كُتبت عبارات وتمائم من اللغة القديمة؛ لغة الأسياد الأوائل، شارك جلادور في معركة «الأغصان الحزينة» من حرب الإبادة، بعدما هُزم أطلس في معركة «بركة الدماء» أمام الأمير إلكادور، وكاد أن يخسر أطلس الحرب لولا أن استعان بالأشاوس وملكهم «جلادور» آنذاك، وقرر المجلس أن يخوض الحرب مع أطلس ضد الأمير «إلكادور»، ولولا الأشاوس لربما هُزم أطلس شر هزيمة الآن، وكان قرار المجلس لمساندة أطلس قد أثار الكثير من التساؤل عند شعب إيڤيريا والكثير من محاربي الأشاوس أيضًا، فالأشاوس في النهاية لم يكونوا همجيين هدفهم جمع الذهب والغنائم فحسب، ولكن آجينار كان يعلم جيدًا أن جلادور والمجلس الأعلى خاض حرب البشر لهدف يرقى عن جمع المال؛ هدف يجهله الجميع.

خلف مقعده حلّقت راية الأشاوس التي توشحت بالأسود الحالك، رسم عليها كائن الجريفن ذو الأربع قوائم شامخًا جناحيه الذهبيين اللامعين في بهاء، انحنى آجينار لجلادور احترامًا، كان جلادور ذا هيبة كبيرة ووقار عظيم، كان جالسًا على عرشه في صمت مهيب، من يراه يظن أن الحجر الأصم سوف ينطق وهو لن ينطق بكلمة واحدة، فانتصب آجينار ثم أردف:

- ما الأمر يا جلادور؟

أردف جلادور:

- لديك مهمة عاجلة!

- ما هي؟

- لقد جاءت رسالة من إيڤيريا... رسالة ملكية!

- ملكية؟

- نعم، من ملك البشر؛ أطلس.

- وما فحوى تلك الرسالة؟

- أثق أن فحوى الرسالة لن يروق لك!

- هات ما عندك.

أخرج جلادور الرسالة:

- طلب أطلس أحد الأشاوس لمهمة، ولقد رشحتك لهذا الأمر.

تصدرت نظرة متجهمة على عينيه، ولم يرق له ما سمعه بالفعل، وقف جلادور واتجه نحو النافذة الواسعة، وسحب نفسًا من الهواء إلى رئتيه وأردف:

- أعرف سخطك على البشر يا آجينار وعلى أطلس بالتحديد، وعلى الأرجح أنت محق، إنهم كائنات غبية، أنانية وفوضوية وغير عادلة، ولكن يجب علينا أن نتأقلم، يجب على الأشاوس التأقلم مع البشر ومع باقي الأعراق الأخرى، ولهذا وافق المجلس الأعلى على خوض الحروب مع أطلس ليوطد العلاقة بين العرقين؛ البشر والأشاوس، بعد الفناء العظيم لا يوجد مهرب من هذا، إما التأقلم أو الفناء مرارًا وتكرارًا لما تبقى من حضارتنا وشعبنا!

- لقد أخطأ المجلس الأعلى، ولقد أخطأت أنت أيضًا يا جلادور، لم يكن عليك أن تخوض حروب البشر حتى لو أدى هذا إلى الفناء.

نظر جلادور في عيني آجينار واقترب منه خطوتين وقال:

- أنت محق يا آجينار، لقد فقدنا الكثير في الحرب الأخيرة.

ثم رمق التماثيل الحجرية بأسى واستطرد:

- ومات آخر ما تبقى من المخلوقات المقدسة في معركة الأغصان الحزينة، ولكن الحياة دائمًا تضعك بين خيارات سيئة أو أشد سوءًا، وتترك لك حرية مزيفة للاختيار!

قال آجينار بنبراته الهادئة:

- وما هو المطلوب؟

- اذهب إلى العاصمة في إيڤيريا، قابل أطلس، انظر في أمر مهمته، ثم عُد أدراجك إلى قلعة عدن بعد أن تـجد طريدته.

قال آجينار: حسنًا، كما تأمر.

لم يكن آجينار راضيًا بما حدث، ولكن بعد الفناء العظيم لشعبه أصبحت الخيارات معدودة لدى الأشاوس، كانت قوانين الأشاوس القديمة تنص على عدم مخالطة أي عرقٍ بأي شكلٍ من الأشكال، ولكن لم يكن هناك خيار آخر، هو لا يتأثر بالكلمات الرنانة التي يرددها جلادور والمجلس عن الفناء العظيم، ويعرف أن هناك أسبابًا خفية وغير معلنة لمساندة الأشاوس البشر في حروبهم، ولكن الآن ليس أمامه خيارات عدة، وعليه أن يمتثل للأوامر إلى حين إشعار آخر.

غادر آجينار القاعة على أعقابه، وأمر بتجهيز حصانه بسرعة ليغادر قلعة عدن، سوف تكون الرحلة طويلة من وادي الوفرة إلى عاصمة إيڤيريا.

كانت السماء قد اكتست بحجاب من السواد الحالك قبل أن يبلغوا القلعة، ساد الظلام وأضاءت أتن النار الطرقات، كانت الحركة في الطرقات غير مألوفة لهم، أغلقت الحوانيت أبوابها سريعًا، وانتشر همس بين العابرين عن رسول جاء من العاصمة، دخل الإقليم منذ ساعة تقريبًا متجهًا إلى قلعة سيد الإقليم، كان إيڤار فوق صهوة حصانه ومن ورائه الوعل الذي اصطاده، وعلى أقدامهم كان إيدجار وأركام سائرين، فكر أركام للحظات ثم أردف لإخوته:

- ماذا يفعل رسول ملكي من العاصمة في إقليم الأسياد؟!

خيم الصمت عليهم حتى قال إيڤار:

- إنه لأمر عجيب... بعد كل هذا الوقت!

- إن الأمر يثير في نفسي الفزع، وأشعر بشعور سيئ!

قال إيدجار الصغير:

- لا أفهم، ما الداعي للقلق؟ إنه مجرد رسول!

أردف أركام:

- بعدما تم نفي أبينا يا إيدجار، حرم الملك على أبي ونسله أن تطأ أقدامهم أرض العاصمة مهما حدث، والآن رسول من العاصمة يحمل رسالة إلى أبي... هذا أمر غير متوقعٍ أبدًا!

صمتوا وهمز إيڤار حصانه وشد على سرجه ليندفع إلى الأمام مسرعًا، فزعق منطلقًا وانطلق شقيقاه وراءه مسرعين على أقدامهم إلى القلعة، كانت القلعة الرمادية مضاءة بالمشاعل المعلقة والأتن المشتعلة، كانت كبيرة وهائلة الحجم، فيها أكثر من عشرين غرفة، وحول القلعة سور من الحجارة الرمادية غير المطلية، وانتصب بالجوار على الجانب الأيمن برج المراقبة الذي يرتفع لأكثر من نصف فرسخ ليكشف الإقليم كاملًا من أعلى، وعلى الجانب الأيسر بيت الحراس والخدم، وعلى أبواب القلعة العتيقة بلغة الأسياد القديمة نُحت تاريخ الإقليم منذ السيادة الأولى للبشر بعد الفناء الأعظم وباسم السيد الأول للإقليم؛ «فاندرال» الأعظم.

أمام القلعة باحة واسعة ومستديرة وعلى جانبها الأيسر إسطبل الخيول، وعلى اليمين تقبع حلبة التدريب التي اعتاد أن يتدرب فيها كل من أركام وإيڤار مع مدربهم «زارو» كان أركام يحب السيوف الحادة الطويلة، أما إيڤار فيفضل استخدام الخناجر والقوس والسهم، أما إيدجار الصغير فيتدرب بالسيوف الخشبية، كان يتدرب ثلاثتهم كل يوم، وكان السيد والدهم يتابع تدريباتهم الشاقة كل صباح من نافذته العالية، كان أركام وإيڤار بارعَين جدًّا في المبارزة، حتى إن أركام قد هزم زارو في عدة مبارزات بالسيف، كان في طريقه الصحيح ليصبح محاربًا وفارسًا لا يُشق له غبار، وربما سيكون في يوم من الأيام أعظم فارس في مملكة إيڤيريا بأسرها!

كانت العربة واقفة أمام القلعة، عربة ذهبية اللون يحيطها حراس من الحرس الملكي، فوقها رفرفت الرايات الملكية مع الرياح المزمجرة، على الأرجح لم تصل العربة منذ وقت بطويل، ارتدى الحراس دروعًا توشحت باللون الأسود والذهبي اللامع، تلألأت دروعهم تحت المشاعل والأتن الملتهبة، وقفوا مصطفين في نظام مهيب ولافت، دون حركة أو همس أو لمز، كالحجارة أو أشد صلابة.

دخلوا ثلاثتهم إلى القلعة، كان الرسول قد وصل إلى غرفة الاستقبال بالفعل؛ وأغلقت الأبواب ووقف الحراس عليها ليتأكدوا من أن لا أحد سوف يسمع ما سوف يقال في تلك الغرفة، حاول الفتية أن يسترقوا السمع، ولكن باءت محاولاتهم بالفشل الذريع، كانت غرفة الاستقبال صامتة وكأن من فيها يتهامسون في آذان بعضهم بعضًا، وكأن الكلمات التي تقال في الداخل كلمات مقدسة ويحرم عليهم أن تتلقفها آذانهم وإلا سوف تصيبهم اللعنة.

داخل غرفة الاستقبال قبعت طاولة دائرية كبيرة، تلك الغرفة التي كان يجتمع فيها المجلس الملكي والذي كان عبارة عن لوردات الأقاليم الأربعة، كان هذا قبل وقت طويل جدًّا، ولا يتذكر تحديدًا متى كانت آخر مرة اجتمع فيها المجلس الملكي، ربما كان هذا قبيل الحرب بين إيڤيريا وأوديث تمامًا.

على الحائط الشمالي لقاعة الاستقبال عُلِّق رأس ذئب ضخم محنط، بث القشعريرة في جسد الرسول الملكي عندما رمقه، جلس الكونت داريوس على المقعد العالي في أقصى القاعة بوقاره المعتاد، وبجواره جلست زوجته إيلين، انحنى الرسول للكونت داريوس، ثم أردف:

- اسمح لي يا سيدي!

نظر داريوس إلى عين زوجته إيلين بقلق، ثم رفع نظره للرسول وأردف: تفضل!

أخرج الرسول الرسالة ثم فض الختم الملكي من أعلاها ثم فتحها، تأرجحت نظراته على الكلمات والحروف قبل أن ينطق بها، ثم ابتلع ريقه وأخذ نفسًا عميقًا، وطفق يقرأ الرسالة الملكية:

- «باسم الأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء العظيم، وباسم الملكوت الذي شيدته طوال هذه السنين، أنا الملك «أطلس» ابن الملك «أماناديل» ملك البشر وملك إيڤيريا بأقاليمها الأربعة، سليل العائلة الملكية والسيادة الأولى للبشر، أحدثك يا داريوس يا صديقي القديم، أيقنت دومًا أنك رجل صدق وأمانة، ولهذا أحتاجك بجواري في تلك السويعات، إن الأمر يتكرر مجددًا ولا أستطيع الهروب منه، منذ ما يزيد على عشرة أعوام، يملؤني الخوف والرعب والفزع؛ إن «هيميريا» زوجتي حبلى منذ ما يزيد على ثمـانية أشهر، وأشك أن المولود في أحشائها ذكر، إنه الظلام، إنه قادم بلا عنان، تغني الغربان في أحلامي أغنية عن طعم الرماد، وتطاردني الكوابيس كمن يركض بغير حراك، في كابوسي أرى الكثير من الغربان، تتغنى الغربان باسمي في سمفونية لم أر لها مثيلًا، أركض في غابة الظلام ثم أسقط أرضًا، ضعيفًا، مذلولًا، أستمع لكلمات الرجاء التي تنبعث من ثنايا الظلام، أعرف أصواتهم جميعهم بحق الجحائم والأسياد؛ يتوسلون إليَّ لأرحمهم، ثم تنهش أسراب الغربان في رأسي بلا مقاومة مني، أستيقظ كل يوم فزعًا، ويتكرر الأمر في اليوم التالي في سرمدية يملؤها الجفاء والفتور، إنها اللعنة يا داريوس، تسكن عقلي وصدري يا صديقي القديم، وليس خطابي لك خطاب الملك لساعده السابق، بل إلى صديق مقرب وأخ وفيّ، أترجاك يا داريوس عد... عد يا صديقي القديم فأنا في أمس الحاجة إليك، إلى رجل صادق وصديق حقيقي يقف بجواري لمواجهة كل هذا الظلام، ولعلك لم تنس الكلمات الموعودة كما لم تغادر عقلي قط:

«من بين الدماء النقية سوف يـحلق، ينكل بالعرش والأصفاد، في يوم مظلم ما، يرتقي القمر الأحمر وستذبل أزهار الأقحوان، وسيعزف لحن الرثاء على الحياة، وتهبط الغربان من كل مكان، تنعق بسمفونية جدباء، لا مرقص فيها ولا غناء، ويبلغ عواء

الذئاب حد السماء، ولا تحاول أن تنطق بكلمات الرجاء، فالسمفونية ليس بها إلا الرثاء، ومن اللهب والرماد سيحل الفناء».

ثم أنهى رسالته بتوقيعه أسفلها: «صديقك الآثم: أطلس».

سكت الرسول ولم ينطق أي شيء آخر، وظل الصمت مطبقًا على أفواههم جميعًا، جفل داريوس وحملق في فضاء واسع امتلأ بالماضي والذكريات القديمة، ذكريات ود لو ينساها يومًا، وهمس لنفسه: «لقد ذكر أطلس الغربان في رسالته، كابوسه الذي لا يكاد يغادره... الغربان! الكلمات الموعودة!».

وظل هنيهة غارقًا في جحيم أفكاره، وبعد لحظات أفاق متجهًا نحو الرسول مندفعًا كالثور، في جنون واختطف الرسالة الملكية من يده بخشونة وطفق يتفحصها بأنامله وعينيه وروحه؛ الرسالة تحمل ختم الملك أطلس، مكتوبة بخط يده، هو يعرف خط صديقه جيدًا، يده ترتعش، وروحه ترتجف، خائف، متذبذب، تنخر في رأسه الكوابيس كإبر حادة ومدببة، همهم داريوس بالكلمات:

- «هذا مستحيل! فلترحمنا الآلهة»، زفر بها بفزع وهذيان.

واقتربت إيلين من داريوس في قلق راود صدرها، وتصدّرت وجهه نظرة متجهمة، لم يكن داريوس في تلك اللحظة هو الرجل الذي اعتاد التحدث عن معارك الأبطال وعصر الأسياد الأوائل، لقد كان رجلًا مختلفًا تمامًا في تلك اللحظة شعر أنه يختنق، وكأن تلك الجدران الرمادية كالقضبان تحبس روحه، نظر لها ثم أردف بشيء من الهذيان:

- لقد جن أطلس! زوجته حبلى، وتطارده الغربان في أحلامه... مجددًا!

وضعت يده على كتفه وأردفت بحنان:

- اهدأ يا داريوس!

ثم صمت للحظة استعاد فيها عقله وألم لجام لسانه وكلماته، ثم جلس وتنهد وخرجت الكلمات من فمه:

- لقد كان هذا منذ زمن بعيد جدًّا، لقد ظننت أن الوقت كافٍ لكي ينسى الجميع ما حدث في العاصمة منذ عشرة أعوام، لكي ينسى أطلس هذه الترهات عن تلك النبوءة المشؤومة والكلمات الموعودة، ولكن يبدو أن هناك أشياء يعجز الوقت عن معالجتها، وإذا عجز الوقت فلن يفلح أي شيء آخر!

لم يكن داريوس بالرجل المتطير الذي يؤمن بالنبوءات، بل كان رجل عقل وحكمة، ولكن تلك النبوءة وتلك الكلمات الموعودة لم تغادر عقله قط منذ ما يزيد على عشرة

أعوام كاملة، عن نبوءة انتشرت في أرجاء المملكة تهدد ملكوت أطلس الذي شيده طوال هذه السنوات، وسقوط مملكة السيادة عقب ذلك، وليس ذلك فقط بل ربما الفناء الكامل لعرق البشر.

قالت إيلين بانفعال شديد:

- إنها لعنته يا داريوس، إن أطلس ملعون، لعنته الأسياد والآلهة، رجل مهووس بجنون العظمة، مجنونًا كان بعرشه وملكه، يستحق كل ما حدث له، رجل سكنه الشر والجنون منذ زمن بعيد، وإن كانت زوجته هيميريا حبلى بذكر فلترحمنا الأسياد!

- بعد حادثة «سرب الغربان»، وأطلس لم يعد أطلس، لقد جن تمامًا، وإن حملت الملكة بذكر في أحشائها، فعلي أن أتوجه إلى العاصمة في أسرع وقت ممكن، لن أتحمل أن يتكرر ما قد حدث في العاصمة مرة أخرى، لن أسمح بهذا مهما كان الثمن وخيمًا!

لقد تحدث كثيرًا عن الماضي، عن الحرب وعن عصر الأسياد والأبطال، عن معاركه الغاشمة وعن قيادة الأساطيل، ولكنه كان يرفض دائمًا أن يتحدث عما قد حدث في العاصمة بينه وبين أطلس، كانت حادثة «سرب الغربان» ماضيًا أليمًـا لا يستطيع مهما بلغ من جهد أن ينساه.

الجريفن: هو حيوان أسطوري عملاق له جسد أسد ورأس نسر، كان يمطتيه الأشاوس قديمًا في الحرب، قبل الفناء العظيم.

سميلودون: هو جنسٌ من النمور سيفية الأسنان، له أنياب عملاقة الشكل وحادة.

الأرك: كانت الحجارة المقدسة للأوائل من الأشاوس، استخدموها لتشييد قلعة عدن لصلابتها، ولكن لم يتبق منها شيء مطلقًا.

النعيق الثاني

«بحر الرماد»

2

ارتفعت أسوار العاصمة من بعيد عالية قوية وشاهقة.

كان منهك القوى بعد رحلته الطويلة، اقتربت من نصب عينيه الأسوار العالية للعاصمة، لم يدرك ارتفاعها الشاهق والحقيقي إلا عندما اقترب أكثر، وكلما اقترب ازدادت ارتفاعًا كأنها ترتفع حد السماء، وشعر أن لا حد لارتفاعها، تدفق الزائرون من البوابة الشرقية، ضرب صوت سنابك الخيل أذنيه على البلاط الناصع المحدب فكان له وقع مريح عندما اخترق مسامعه، على أعتاب البوابة وقف الفرسان بدروعهم السوداء الموشحة بالذهبي اللامع؛ بالتأكيد إنهم من الحرس الملكي، لم يكن يحتاج الكثير من التفكير لإدراك هذا، وفوق البوابة رفرفت الرايات الذهبية فوق رؤوس العابرين أسفلها، لم يزر آجينار عاصمة إيڤيريا منذ ردح طويل من الزمن ربما كان هذا منذ الحرب بين الملك أطلس والأمير إلكادور.

كان الهواء لافحًا وغمر وجهه وعينيه، وبالرغم من الصيف القائظ إلا أن السماء كانت ملبدة بالغيوم الداكنة، وشعر أن هناك عاصفة قادمة لم يحسب لها أحد حسابًا، تلثم آجينار واضعًا قماشة أذابت نصف ملامحه وذاب بين الحشد العابر، ثم على حصانه الملجم أخفى سيفه «العويل» حتى لا يثير شكوك العابرين، وتحرك عابرًا البوابة الشرقية في هدوء، كانت رحلته طويلة وشاقة فكان ينشد الراحة، كان يعلم وجهته جيدًا؛ ميلًا نحو الشمال، يعرف هناك حانة بجوار الميناء الشرقي القديم، سوف يقضي الليل هناك، يستريح، ثم يكمل رحلته غدًا.

في العاصمة يوجد كل شيء، منازل وبساتين صغيرة، مخازن من كل شيء، من الغلال والنبيذ والقمح، وبيوت خشبية وأكشاك تجار، تتناثر الحانات والمقابر والمواخير في كل مكان، بين المباني كانت الطرق واسعة اصطفت فيها الأشجار الخضراء وبساتين الورد ذات الرائحة الزكية، وفي الجزء الفقير من العاصمة كانت الشوارع ملتوية ومتشعبة، تضيق فيها الأزقة كخرم إبرة لا يستطيع أحد التنفس فيها بشق نفس واحد.

عند عبوره البوابة وقعت عيناه على ساحة واسعة تحرك فيها التجار يجرون البغال والحمير، والعامة فوق العربات والأفراس، وصرخت الأرض تحت وطأة العجلات الضارية التي تجرها ثيران فحلة محملة بحجارة عتيقة وشاهقة متجهة إلى حي القصور في الجنوب، تحرك وذاب بين الحشود عابرًا أسواق العبيد وساحات رهانات الأحصنة؛ هناك حيث يتجمع العامة والتجار ويتراهنون على الأحصنة في سباق غاشم لا يعرف الرحمة، وبعد دقائق باغته المطر، انهمر غزيرًا وصاخبًا، مصحوبًا بهزيم رعد

هادر اخترق الآذان، وبدأت الحوانيت بالإغلاق وبدأ يتلاشى الدخان المنبعث من مداخن أكشاك صانعي الحبال والسراجين والدباغين وكانت الشمس إلى الغروب تنحدر وتميل، ثم غاص إلى الدهاليز منحدرًا شمالًا؛ كانت المباني مربعة مبنية بطبقة من القرميد الذي يلمع تحت الشمس، كانت العاصمة كبيرة جدًّا، بمساحة الأقاليم الأربعة تقريبًا.

في أقصى الشمال هال عينيه مبنى «القدماء»، يتحاكى عنه الرحالة والمسافرون، يقال إنه أول معبد تم تشييده منذ السيادة الأولى للبشر بقيادة الملك «إيغور» والذي أطلقوا عليه أسماء عدة ومنها: العابر الأول.

كان مبنى القدماء مبنًى هائل الحجم، طوله أكثر من ثلاثمائة وخمسين ذراعًا، فوق القمة انتصب تمثال «ڤالكين» الهائل؛ إله البحر والأمواج، زاجرًا بحر «الرماد» بعينين يملؤهما القسوة والقوة والهيبة، يقال إن ڤالكين الهائل حمل الفاتح الأول بين أمواج بحر الرماد، ولم يجرؤ أحد أن يعبر بحر الرماد قط، يقال إن من يعبر بحر الرماد يجب أن يكون حاملًا للدماء الملكية النقية؛ من كانت لهم السيادة الأولى وتجري بين عروقهم دماء الأسياد، في قديم الزمان حمل «ڤالكين» الهائل؛ الملك إيغور بين أمواج بحر الرماد العاتية، ولم يستطع أي كائن من قبل أن يعبر بين تلك الأمواج العاتية، إلا أن إيغور حمل دماء السيادة بين عروقه، وباركه ڤالكين ولم تغرق سفينة واحدة من أسطوله عند فتحه لإيڤيريا، هكذا كانت الحكايات تروى في كل ركن من أركان إيڤيريا، وفي كل قصة تروى ليغط الأطفال في نوم عميق.

حاول الكثيرون أن يبحروا في «بحر الرماد» ولكنهم فشلوا وحطمت أمواجه الحادة سفنهم إلى نصفين ولم يعد منهم أحد حيًّا قط، ومن وقتها أصبح الميناء مهجورًا يعج بالهدوء القاتل وصمت الأمواج المخيف، ولم تكن أمواجه أمواجًا عادية أبدًا؛ بل كانت شاهقة كالجبال، رمادية باهتة اللون، ورمال شاطئه أسود كقطعة من الليل، يقول الكهنة في مبنى القدماء إن «بحر الرماد» يعبّر عن كينونة وغضب ڤالكين الدفين.

انتصب بجانب «ڤالكين» الهائل ثلاثة تماثيل شاهقة اخرى، أحدها كان لـ«مينرڤا»؛ سيدة الحكمة والعقل الأزلي ومرشدة البشرية إلى السيادة الأولى بعد الفناء العظيم، وبعدها انتصب تمثال لـ«هراكوس» مرتديًا جلد أسد حاملًا قوسًا بداخله سهم على أتمة التأهب، كان هراكوس إلهًا للشجاعة والحرب، ثم في أقصى الجنوب كان شامخًا التمثال الرابع؛ صاحب العذاب الأبدي والظلال السوداء «إيروس»؛ يُقال في «اللفائف العتيقة» إن إيروس اتخذ الخواء والفراغ مقرًّا دائمـًا للنفوس الضالة والمعذبة والتي لم تبل حسنًا في الحياة الأولى.

غرق الميناء القديم في أمواج من الضباب العاتي، وعلى أعتاب الشاطئ الأسود انبرى تمثال للملك «إيغور» على ارتفاع ألف قدم من الأرض؛ كان الملك «إيغور» صاحب

السيادة الأولى للبشر والملك الأول والمؤسس لمملكة إيڤيريا، كان تمثالًا شاهقًا من الجرانيت المنحوت بعناية شديدة، رافعًا يمناه بنصل قاطع لمع تحت شعاع الشمس الساقط، وبيسراه شد على درع دائرية هائلة نحتت على أطرافها كلمات عتيقة عن العهود القديمة بينه وبين ڤالكين الهائل، رامقًا بحر «الرماد» بعينين زاجرتين من العقيق بثت الرعب في قلوب الناظرين، من أسفله قبع فنار عالٍ غرق في حجب الضباب الكثيفة.

داعبت أنفه رائحة اليود المنبعثة من البحر القريب مع دفعة باردة من الهواء اخترقت صدره، كان الجو باردًا بجوار البحر ولم يمنع جلد التنين السميك والخشن الذي يرتديه البرد أن يتسلل إلى أضلاعه بخفة، لـملم الناس مؤخراتهم وطفقوا يختبئون من المطر تحت أسقف الحانات والبيوت ينشدون الدفء وربما بعض المرح مع محظيات لم يعبأن بالبرد القارس.

توقف آجينار أمام حانة «لاكروفت»، ثم مشيًا على الأقدام قاد حصانه، كان الشارع خاويًا إلا من صوت تضارب أمواج بحر الرماد القريب؛ كوحش يشمر عن سواعده أو أشد، وقف للحظة واستمع إلى الضجيج داخل الحانة؛ في تلك الساعة وفي هذا الطقس السيئ يتجمع البحارون والتجار في الحانات ليحظى كل منهم بفتاة أو بكأس من الجعة محلية ورديئة الطعم، لم تكن حانة ذات طابع مرموق وخاص أبدًا، جر حصانه أسفل الشارع وسلمه إلى إسطبل للخيول ودفع لصاحبها عملة ذهبية واحدة؛ لليلة واحدة لا أكثر، ولا يحتاج لأكثر من هذا.

أخفى سيفه تحت معطفه كي لا يثير الشكوك، ثم دفع باب الحانة الخشبي ودلف للداخل، كان الجو صاخبًا؛ وارتفع صوت الرجال بأغانٍ وتمايلت من بين أيديهم فتيات الليل والمحظيات كالأفاعي، انسكبت نظرات كل من في الحانة عليه، كان يبدو غير مألوف وغريبًا ومثيرًا للشكوك، ينهمر من معطفه الأسود بقايا المطر المنهال في الخارج، تحرك ببطء حتى وجد مقعدًا عند الساقي، جلس، فرفع صاحب الحانة رأسه من برميل الجعة المعتق وحدق إلى آجينار للحظات، كان جالسًا بهدوء وبلا حركة مطلقًا، سأله صاحب الحانة:

- هل تود شرب شيء ما سيدي؟

أجاب بتعبير مضجر:

- نعم من فضلك، كوبًا من الجعة!

أومأ صاحب الحانة بالإيـجاب، بعدها خلع آجينار معطفه ولاحظ كل من في حانة لاكروفت أنه يحمل سيفًا، ولم يكن الأمر نادرًا، فكل الرجال في إيڤيريا يحملون

السيوف في العادة، ولكن «عويل» قد لفت الأنظار، يا له من سيف هائل حقًّا، ولم ينفك كل من في الحانة يلقي نظرات الشك عليه وعلى سيفه العظيم، ولاحظ الجميع الوشم على رقبته، وشم غريب لم يروا مثله أبدًا، ولكنهم سمعوا الكثير من الحكايات عنه بالتأكيد!

بعد مرور دقيقة أحضر صاحب الحانة كوب الجعة لآجينار، تناولها آجينار من يده، وظل صاحب الحانة يحدق إلى آجينار حتى فرغ من الجرة؛ إنه غريب ليس من المنطقة! كانت رحلته طويلة، حذاؤه مغبر ومتسخ بادٍ على محياه الإرهاق، سأل آجينار:

- أبحث عن نزل أبيت فيه الليلة.

لم تكن لهجته تقترب من لهجة الأقاليم الأربعة، ولم تكن كلهجة الريفيين على حدود المملكة، وأدرك أنه لم يكن من أهل إيڤيريا قط، ثم على حين غرة رمق الوشم على رقبته، ثم سأل:

- من أين أنت أيها الغريب؟

أجاب آجينار:

- لست من هنا!

- لا أستطيع أن أؤجر نزلًا لغريب!

- سأدفع لك ما تريد.

ارتفع صوت جاء من خلفه:

- ليس هناك نزل لأمثالك هنا، أنت من الأشاوس الملعونين، وهؤلاء غير مرحب بهم هنا!

صمت الجميع ولم تصدر إلا أصوات خافتة، التفت آجينار ليجده رجل طويل وعريض الكتفين ربما كان أحد رجال العصابات، وهابه الجميع ولملموا مؤخراتهم بحذر يبتعدون عنه ويراقبون ما سوف يحدث من بعيد، يبدو أن الرجل قد أفرط في شرب الكحول وثمل عقله، وأصبح كمن لا عقل له تمامًا، كان الرجل يحدق إلى آجينار منذ دخوله بنظرات شك حادة، اخترقت رائحة أنفاسه أنف آجينار وكل من حوله المتلئة بالجعة وممزوجة بطبق صدف البحر الحار، فنطق آجينار:

- أنت صاحب الحانة؟

- لا، ولكن ليس لك مكان بين البشر، أنت من عرق الأشاوس، مجرد ساحر غريب الأطوار!

نظر آجينار لصاحب الحانة، فتملص من عينيه وتهرّب خوفًا من كلا الطرفين، فلا حيلة له ولا قوة على سطوة العصابات الغاشمة أو أحد الأشاوس الذين قد سمع عنهم الحكايات والأساطير، ابتسم آجينار ثم لم يعره أدنى اهتمام وجلس على مقعده وطلب كوبًا آخر من الجعة؛ كأن شيئًا لم يكن، تردد صاحب الحانة للحظات حتى استجمع قواه الساقطة من أضلاعه ولملم ذعر قلبه الهائج وقدم له كوبًا آخر بتردد شديد، تناوله آجينار واحتسى منه القليل، صاح الرجل بغضب:

- بحق ڤالكين الهائل! ألم تسمعني أيها الحثالة؟

- سوف أغادر عندما أنهي كوبي!

قالها آجينار بهدوء شديد.

- إذن سوف تغادر أسرع مما توقعت.

اندفع الرجل نحوه بصلف وشد من يده كوب الجعة، ثم بابتسامته السمجة سكب كوب الجعة على رأسه، وأطلق ضحكة شرهة تبعتها ضحكات وقهقهات كل من في الحانة، لم يحرك آجينار ساكنًا من مقعده، وظل على هذه الحال للحظات، ثم أردف بنبرات لا تزال هادئةً:

- لا أريد المشكلات يا سيدي، ولا أريد أن أؤذي أحدًا!

ثم انتصب من على كرسيه ورحل بعيدًا عنهم، استوقفه الرجل بصياح هادر:

- أتستهزئ بنا؟

ببغتة اندفع الرجل نحوه وأمسكه من كتفيه وألجم حركته، أو ظن هذا على الأقل، ورفع رجل آخر قبضته للكم آجينار، انتفض آجينار ولم يمنحهم أدنى فرصة، اندفع برأسه للوراء فأدمى أنف الرجل وتراجع خطوتين للوراء، ثم سحب آجينار سيفه «العويل» قبل أن يطلق صفيرًا في غمده ولمع النصل تحت الضوء الخافت، وبدأ الجميع يتراجع خطوتين للوراء ويفكرون مجددًا في الأمر، وتحولت ضحكات فتيات الليل إلى صرخات هستيرية يملؤها الذعر، واهتاج الجميع وظل صاحب الحانة يرتجف خوفًا.

بعد لحظة اندفع الرجل نحوه ممسكًا خنجرًا، ولوح به في الهواء يمينًا ويسارًا في عشوائية مباغتة، أصاب آجينار في وجهه ورأسه وحاول طعنه عدة مرات في صدره، أصابه جرح صغير في خده، ولكن لم يخترق النصل درعه الخشنة، وبعدها اندفع نحوه

آجينار بقوة وأمسك رقبته ورفعه بيد واحدة في الهواء، وبدا على الجميع الذهول وعدم التصديق لما تراه أعينهم، بعد أن رفعه لأعلى ألقاه أرضًا بخشونة وقوة، بدا الرعب واضحًا على وجوههم، وارتطم الأخير يتلوى ويتشنج أرضًا كثعبان ابتلع سمه!

وضع آجينار العويل في غمده بهدوء شديد، ثم تحرك وتحاشاه كل من في الحانة بصمت ونظرات، اقترب من صاحب الحانة وأردف بهدوء:

- هل لا يزال النزل متاحًا؟

قال صاحب الحانة مرتجفًا تصطك أسنانه: «بالتأكيد يا سيدي، تفضل معي!».

تلك الساحة أطلق عليها البعض ساحة «الرؤوس المعلقة» لسبب ما...

خلف الساحة الواسعة امتدت الأشجار والبحيرات بلا نهاية، وفي أقصى الشمال الغربي كان هناك حصن ضخم مشيد بالحجارة الهائلة، وفوق التل العالي كان القصر الملكي الغامر والمتألق، من حوله ومن كل اتجاهات البوصلة الأربعة انتصبت أربعة أبراج أسطوانية هائلة، ورفرفت الرايات من الشرفات والأسوار، ومن الخلف كانت الثكنات العسكرية والزنازين والأصفاد، أطل القصر على خليج «بارتالوم»؛ حيث شق الصيادون مياه الخليج بمجاديفهم وألقوا شباكهم، ومخرت سفن الغلال إلى المرفأ بحمولاتها القادمة من جزيرة «ثينيا»؛ بلاد أقصى الشرق.

عند مرفأ «كاتلوس» تراصت السفن التجارية على شط النهر وازدحمت، وبدأ التجار والصيادون بتفريغ الحمولات من باطن السفن؛ فوق ظهورهم وعلى ظهور البغال والحمير، كان الصيادون يتحاكون، والتجار يتسامرون عن «بارِجة»[4] الملك والذين أطلقوا عليها لقب «ذات القرون»؛ وذلك لأن البارجة في مقدمتها يرتفع قرنان هائلان تقشعر لهما الأبدان عندما تتهاوى عليها النظرات، كانت البارِجة مطلية بلون أسود لامع مع الذهبي المشع تحت أشعة الشمس الساقطة من السماء، مفرودة أشرعتها ذات اللون الذهبي ببهاء وجمال كأنها حورية بحر سحرت مقل كل من شاهدها، وخلبت ألباب المحاربين والأبطال ومنهم العقاب الملكي القائد «هيستوس»؛ قائد جيش أطلس الجسور، كانت البارِجة؛ «ذات القرون» هائلة الحجم، يقف على سطحها مائة رام من رماة السهام مع نيرانهم المثبتة على سطح البارِجة، ومئتان من المحاربين المدككين بالنصول اللامعة والدروع الذهبية، وفي بطن البارجة أكثر من خمسمائة مجدف يتحركون بتناغم بأوامر صادحة يتلقونها من الأدميرالات والقادة، في قمرة القيادة يتولى أطلس الدفة بنفسه وعن يمينه وشماله لوردات ينتظرون الأوامر.

كان أطلس يقود ذات القرون في معاركه بنفسه، كان بارعًا جدًّا في قيادة الأساطيل والجيوش، استحق بجدارة أن يفوز في الحرب على الأمير إلكادور في حرب الإبادة، وذكر اسمه في التاريخ لعقود قادمة، وفي مرة من المرات قاد ذات القرون بين أمواج بحر الرماد الغاشمة، لم تــخدش بارجته ولو خدشًا واحدًا، وبذل مئات القرابين لقالكين الهائل ذلك اليوم.

لم يخسر أطلس معركة بذات القرون أبدًا، كان الملك أطلس فارسًا شجاعًا ولا يشق له غبار، لم يعرف التردد في معاركه قيد أنملة قط، كان يرتدي في حروبه خوذة ذات قرون عملاقة ذهبية مماثلة لبارِجته «ذات القرون» ورمح طويل غامر، يقال إنه مطروق من قبائل الجن القديمة، ونصله من فولاذ «الأرك» المقدس؛ إرث عائلته لأبيه من قبله؛ الملك «أمناديل»، اعتلت عينه اليسرى رقعة ذهبية أخفت إصابة في إحدى معاركه الضارية منذ زمن بعيد، كان يتقدم معاركه حليق الوجه صافي العينين، شامخًا يبلغ طوله سبعة أقدام إلا نصف، بجسد مفتول ومن ورائه زنقبة حمراء معلّقة في درعه تحلّق من خلفه جعلته كالملائكة في أحلام العذارى، حلمت به كل فتاة في المملكة، وفي كل العوائل المرموقة، ألقت الفتيات النذور ليكون أطلس ملكًا لها، لكن يبدو أن الآلهة كانت تسخر منهن جميعًا بشكل ما، لأنه وعندما وقع أطلس في الحب؛ وقع في حب فتاة بسيطة من العامة، أبوها كان يعمل في الإسطبل الملكي، كان أطلس شابًّا مغمورًا ومندفعًا آنذاك، ورفض الملك «أمناديل» الأمر بشكل قاطع، وعندما سمعت شقيقته الكبرى «إيڤيدوكيا» بالأمر ناشدت أباها الملك أن يرأف بقلب أخيها الوديع والشغوف، ولكنه لطمها على خدها بقسوة وصرخ فيها كذِئب يرهب فريسته، وأمر الملك «أمناديل» بقطع رأس الفتاة ووالدها بشكل وحشي وبلا رحمة، وأجبر أطلس على أن ينظر إليهما طويلًا، معلقة كانت رؤوسهما على الخوازيق، كانت دقائق ولكن شعر أطلس بمرورها دهورًا عديدة، ومن وقتها فقد أطلس شيئًا ما في روحه لم يدرك ما هو تحديدًا، ولكنه وببساطة لم يعد يعرف معنًى للحب بعد الآن، أصبح قلبه كالجلمود قاسيًا لا يرق إلا لذكرى شقيقته الراحلة؛ «إيڤيدوكيا» وحرب الإبادة التي أشعل فتيلها فقط لأجلها، تلك الوحيدة التي أحبته ورأفت بقلب كان يومًا شغوفًا، ولكنه الآن فقد الشغف وفقد إيڤيدوكيا، وفقد كل شيء آخر!

تساقط ضوء الشمس على الزجاج الأحمر المثبت في نوافذ القصر، فانبعث ضوء دموي على ساحة العرش، وتأجج اللهب وطقطق في أتنه وسرجه، جعلت الشموع المضاءة على طول القاعة الحوائط كأنها تتوهج بنور باهت أقرب إلى الظلام من النور، كانت تلك القاعة مليئة بالنور والدفء في يوم من الأيام، كأنها قلعة سحرية يبث فيها الضوء الحياة، أما الآن فلا ضوء ينير تلك القاعة أبدًا، يغشاها ظلام خفي المعالم كما يغشى

قلب صاحبها تمامًا، وكان عرشه يقع في أقصى القاعة، عرش كبير عال موضوع فوق بضع درجات يجب على الملك صعودها قبل بلوغ العرش.

لقد كان أطلس شغوفًا بموسيقى الأوركسترا والمقطوعات الموسيقية، وخصص لفرقة كاملة مكانًا في القاعة يعزفون الموسيقى ليل نهار في الحفلات وعندما يصيبه ضجر لا أمل في انقشاعه، في السقف علق سراج انعكست نيرانه لتضيء الرسومات التي زينت القبة والحوائط بألوان زاهية كأن الحياة سوف تدب فيها في لحظة ما، رسومات للآلهة يسلمون السيادة الأولى للملك إيغور الفاتح على رأس أسطوله وهو يعبر بحر الرماد، ثم وهو يعتلي عرش إيڤيريا معلنًا عن نفسه كأول ملك في سيادة البشرية، امتزجت الرسومات والألوان ببعضها مكونة خليطًا سحريًّا خلب ألباب كل من دلف إلى القاعة.

ران صمت مهيب في أرجاء القاعة... وبعد دقيقة شق الصمت صوت مقطوعة موسيقية هادئة وحزينة...

خلع «أطلس» تاج السيادة من فوق رأسه واضعًا إياه أرضًا، وأمسك سيفه من مقبضه المذهّب منكِّسًا نصله العاري من غمده، مرتديًا درعه الذهبية وقد خر على ركبتيه أرضًا يصلي أمام تمثال شقيقته «إيڤيدوكيا» الشاهق في أقصى القاعة، والذي أمر بتشييده في قاعة العرش عقب انتهاء الحرب، تخليدًا لذكراها.

لحيته كانت طويلة يتخللها الشيب الأبيض كالثلج، جسده لا يزال مفتولًا قليلًا بعد كل تلك السنين التي مرت، مرهقة كانت عيناه وروحه، اعتلت عينه اليسرى رقعة ذهبية غطت عينًا أصيبت في معركة ما، أنفه كان مدببًا ويحمل وجهه قسمات الوسامة كما يحمل قسمات القسوة والقوة.

رمق أطلس وجه إيڤيدوكيا الحجري، لقد مر ردح طويل جدًّا، طمس فيه الوقت الملامح الحجرية، لم يعد يتذكر عن تلك الملامح البريئة شيئًا، فقط يشعر بحبه العظيم الذي يسري بين أوصاله وعروقه لها، ثم بعدها أغمض عينيه؛ هائمًا في البقاع القصية وانتظمت أنفاسه في تناغم... وتمايلت ظلال ذكرياته وتبدلت كحيوانات مراوغة تتسابق على جدران عقله!

يقال إن الآلهة تسخر من صلاة الملوك..

فلتسخر إذن.. ولتكن روحه الضعيفة بمنأى عن النزاع..

يتراءى له الأمر باستمرارية مجفلة؛ يتدفق صوت نعيق الغربان كالبرق في أذنيه وجسده كلما أغمض عينيه... نعيق بلا غربان، وصوت بلا مصدر!

وفي الليل يخاف النوم كالأطفال، وعندما تغفو عيناه عنوة تطارده أسراب الغربان في كابوس سرمدي انعقد في دائرة يستحيل كسرها، يركض وتنعق أسراب الغربان من

خلفه بلا أمل في الهرب... ولا أمل في النجاة.

ولم يكن نعيق الغربان نعيقًا غريزيًّا، بل تمتزج أصواتهم لتغني سمفونية لم تسمعها أذن من قبل، أغنية عن طعم الرماد والخسارة، يرتجف جسده ويتعرق راكضًا لاهثًا من أصوات الرجاء التي تنبعث من الظلام حوله، إنه يعرف تلك الأصوات التي تترجاه جيدًا، وربما كان يعرف تلك السمفونية التي تتغنى بها الغربان قليلًا الآن، وربما رقص عليها مرة من المرات.

وتساءل بمرارة –وليس للمرة الأولى–:

كيف يعيش الإنسان بلا روح؟ كيف يموت وهو على قيد الحياة؟ لقد فقد روحه برحيل شقيقته، انطفأت شموع قلبه وانتهى الأمر، يكسره الغياب الأسود، كسر العظام أخف وطأة بالتأكيد من كسر الروح... ولم يعد يربض بين ضلوعه الخاوية سوى الظلام الدامس الآن.

لو كان لديه القدرة على الصراخ لصرخ، لبكى، لعوى كالذئاب، ولكن صوته قد مات بداخله منذ وقت طويل، مكبوحة بداخله كل أمارات الغضب، وتصب فوق روحه كالجحيم.

«وانتهت المقطوعة الموسيقية ولم ينته حزنه الآسر بعد!».

بعد دقائق فتح باب القاعة ودلف منها رجل متوسط القامة، يبدو وكأنه في منتصف عقده الرابع، على وجهه لحية خفيفة وفي أسفل ذقنه جديلة مضفرة، كان يرتدي رداءً مهندمًا ومزخرفًا، على رأسه تاج يشبه تاج الملك ولكن بلون فضي لامع، ذلك التاج الذي يتميز به مستشار الملك وساعده الأول واليد اليمنى والفم الذي يطلق ويسنّ القوانين في غياب الملك، كان «ألكيدس» ساعد الملك بعد أن نفى أطلس ساعده الأول؛ «داريوس»، وكان بارعًا جدًّا، رجل ذكي وطموح إلى أبعد الحدود، له أعوان وآذان في كل المملكة من الأقاليم الأربعة والعاصمة حتى في «ثينيا» بلاد أقصى الشرق، وفي كل حدب وصوب له رجال يهمسون في أذنه بالمستجدات في مختلف البقاع القصية منها والدانية، لقبه موظفو الخاصة الملكية سرًّا «بالبوم الملكي» نظرًا لبراعته في إدارة شؤون القصر، وجواسيسه الموجودين في كل مكان.

قطع القاعة بخطوات متناغمة وهادئة، وما زال الضوء الأحمر موجودًا لم يبرح المكان بعد؛ يغشى أرض القاعة بدماء لا رائحة لها ولا ملمس، كان الملك أطلس قد هيمن فوق عرشه واعتلى رأسه تاج السيادة، وتقدم «ألكيدس» واقترب ثم انحنى للملك وقال:

- فليحيا صاحب السيادة؛ الملك أطلس بن أمناديل.

رمقه أطلس للحظة بصمتٍ، قبل أن ينطق بتأن يملؤه الهيبة:

- مرحبًا بك ألكيدس!

وكانت نظرات أطلس كأنه ينتظر شيئًا ما على أحر من الجمر، يشعر بقلق دفين داخل روحه، ثم راح يسأل:

- ألم تأت أي أخبار من الشمال بعد؟

فطن ألكيدس إلى ما يرمي إليه الملك، فأردف:

- أخشى يا مولاي أن لا أخبار مستجدة عن الرسول الملكي!

صاح الملك في غضب شديد بصوت أجش قوي هز أرجاء القاعة:

- إذن متى؟! لم كل هذا التأخير والتردد بحق الجحائم، عليكم اللعنة جميعًا!

قفز قلب ألكيدس داخل صدره يبحث عن مأوًى من زئير أطلس المزلزل، منذ أسبوع كان ينتظر رسالة من رسوله الملكي الذي أرسله في الشمال عند إقليم الأسياد، ولكن لم تأت رسائل أو أخبار بعد عن رسوله المنتظر:

واستجمع ألكيدس قواه، ثم استطرد:

- اهدأ جلالتك، إنني أعرف داريوس أيها الملك، إنه رجل شريف، ولن يخذلك أبدًا!

هدأت نبرات أطلس، تنهد ثم أردف:

- الخذلان! في الحرب تجد الكثير من الخذلان يا ألكيدس، في دموع الجنود، في بكائهم وصراخهم، أنينهم المتصاعد، لقد خذلنا الجنود في معركة «بركة الدماء» وفروا كالجبناء، كانت معركة غاشمة لن ينساها تاريخ إيڤيريا، شارك فيها الكثير من الأعراق، استعان إلكادور بالعمالقة، كان منظرهم مهيبًا أخاف الجنود وتسبب في روعة قلوبهم من صدورهم، ما زلت أسمع صليل الصوارم في ذلك اليوم كأنه البارحة، قريبًا من أذني وروحي؛ تصافح الفولاذ بالفولاذ، توسلات الجنود، دماؤهم التي جرت كالبرك في الأرض، جميعهم كانوا خائفين، ترتعش قلوبهم داخل صدورهم كشمعة تنتظر الانطفاء، لكن داريوس لم يتزحزح قلبه ولو قيد أنملة، شامخًا كان في ظهري كأن الدماء التي تسري في عروقي وجدت لها مجرًى في عروقه، كأنه شقيق لي أو ربما أكثر من هذا قليلًا، عن أي خذلان تتحدث يا ألكيدس؟ داريوس لا يعرف معنًى للخذلان!

- صدقت جلالتك!

صمت الملك وحدق إلى الفراغ لحظة، كأنه يفكر في شيء ما، قاطع تفكيره ألكيدس عندما أردف:

- لقد وصلت رسالة جلالتك!

استعاد أطلس لجام تفكيره وأردف:

- أي رسالة؟

تنحنح ألكيدس، ثم أخرج الرسالة من ردائه وأردف:

- رسالة من «العقاب الملكي»؛ القائد هيستوس.

- كلي آذان مصغية للقائد هيستوس!

فتح ألكيدس الرسالة ثم طفق يقرؤها على مسامع أطلس:

- «باسم الأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء العظيم، من «العقاب الملكي» إلى الملك أطلس بن أمناديل، أنا هيستوس قائد الجيش وقائد فيالق الجناح الذهبي والحرس الملكي... لقد ساء الوضع هنا كثيرًا جلالتك، ولكنه تحت السيطرة حتى الآن، لقد استطعنا صد عشائر «الوِيكنجار» لفترة من الوقت، لن تدوم طويلًا، على ما أعتقد، إنهم يزدادون شراسة وقوة في كل مرة، يرتدون جلد الدببة والأسود، يروضون الذئاب الشرسة ويمتطون نمورًا سوداء عملاقة، لا يعرفون الاستسلام، قائدهم يدعى «ميڤيا»؛ على الأرجح فتاة، يسميها البعض؛ «فتاة الغابة» تسكن غابة «الصقيع»، وقد جمعت القبائل تحت راية أمير القبائل؛ المدعو «كريدو»، ولكن سيفي من اللهب وأنفاسي من الرماد، لقد هزمناهم في معركة فاصلة وكان النصر لنا، ورفرفت رايتنا عاليًا، لقد تقهقروا لينظموا صفوفهم، ولقد تمركزت قواتنا في وادي «الضباب»، ولن أعود حتى أكسر شوكتهم إلى الأبد، الجندي المخلص؛ «العقاب الملكي»... هيستوس».

ابتسم أطلس وأردف: «لطالما كان هيستوس فارسًا شجاعًا ورجلًا مخلصًا».

قال ألكيدس: «إن عشائر الوِيكنيجار عشائر همجية، سمعت أنهم ولدوا من أرحام العمالقة والغيلان، يشربون الدم من قرون مصقولة، ولكن أثق أن «العقاب الملكي»؛ القائد هيستوس صلب كالفولاذ، وسيتغلب عليهم لا محالة!».

- آمل ذالك!

اقترب ألكيدس خطوتين من العرش، وقال بصوت خفيض:

- هناك شيء آخر جلالتك!

- تحدث ألكيدس.

- هناك أخبار عن دخول غريب إلى العاصمة ليلة أمس، عند الميناء الشرقي القديم!

- غريب! من؟

- يهمس الناس في الأزقة؛ بأن الغريب من عرق الأشاوس!

انتفض قلب أطلس وكأنه سيخترق أضلاعه، وقال:

- هل أنت واثق من هذا ألكيدس؟

- نعم يا جلالة الملك، الهمسات تتحدث في كل مكان.

- إذن قد قبل جلادور عرضي.

ثم استطرد أطلس: «اعتقِله يا ألكيدس، وحقق معه بنفسك، وتأكد أنه من الأشاوس، ثم بعد ذلك، أحضره إلى هنا!».

ابتسم ألكيدس: «كما تأمر جلالتك!»، ثم انحنى وانسحب من قاعة العرش.

عالقًا بين قاع البحر وسطحه...

هكذا كان مشتتًا بين أمرين يعرف جيدًا أن كليهما سينتهي بعاقبة سيئة الأجل، كان بمنأى عن النزاع –ولن يدوم هذا طويلًا– كغريق يطلب النجدة من غريق مثله، ودار في ذهنه آلاف الأشياء والأفكار التي تدور في دائرة سرمدية الأبعاد وما لسبر أغوارها من سبيل، ولا سبيل لحل يرضي جميع الأطراف، جميعنا هنا خاسرون، والخسارة سوف تكون خسارة مدوية ولا حدود لها.

«أطلس سجين عقله»... هكذا قال عندما رآه ذلك اليوم!

يذكر آخر مرة رأى فيها أطلس منذ أكثر من عشرة أعوام، كان قد جن تمامًا وفقد عقله بغير رجعه، وظل يضحك بجنون ويتراقص على أنغام سمفونية لم يسمع لها مثيل من قبل، كان مسرفًا في الشراب ذلك اليوم؛ مخمورًا يتفوهه بأمور مجنونة لا يتقبلها عقل بشري قط، عن دماء ولهب ورماد، عن ظلام قادم لا يبدده ضوء، عن كلمات موعودة لم توجد يومًا إلا في عقله، هو لم يصدق أيًّا من تلك الترهات أبدًا، ولم يكن بالرجل المتطير الذي يؤمن بالنبوءات، ولكن صاحب السيادة الأولى؛ الملك أطلس يكاد أن يصبح مهووسًا بها، أصابه جنون العظمة مع أوهام لا يستطيع عقله كبحها!

ارتفع صهيل الخيل عندما شد أركام على لجامه وانطلق يسابق الريح، وكان من ورائه السيد والده على حصانه يحاول اللحاق به في سباق لأعلى التل، كان الفتى سريعًا متألقًا فوق جواده ومن ورائه يحلّق شعره الكستنائي الأسود كالليل.

وعندما بلغ القمة؛ أعلى التل متفوقًا على السيد والده، شعر داريوس بالفخر من داخله، كان داريوس يحب أركام بطريقة لا توصف، وقد كان يعده لأن يكون سيدًا للإقليم من بعده، وكان يملك كل الصفات التي تؤهله لهذا؛ فهو يملك قوة المحاربين والفرسان، له حنكة ومهارة في استخدام السيف ربما تتغلب على مهارة نصف اللوردات والفرسان والسيافين في كافة المملكة، شجاع ونبيل ذو مروءة وأخلاق، له حكمة ليست في مثل أقران سنه، صادق ولا يكسر العهود.

وعندما بلغ السيد والده القمة بجواره، التقط أنفاسه وأردف:

- لقد تغلبت علي بشجاعة يا فتى.

أطلق أركام ضحكة وأردف:

- لا تفعل هذا، أعلم أنك تركتني أتغلب عليك بإرادتك!

ابتسم داريوس وأردف:

- كنت أفعل هذا عندما كنت طفلًا؛ متعمدًا الخسارة أمامك، أما الآن فلم أعد أفعل!

- لماذا؟

- لأنك لم تعد طفلًا بعد الآن يا أركام، أصبحت رجلًا قويًّا تنصاع له المجريات.

وترجّل من على حصانه وألقى بنظرة على إقليمه من فوق التل وأردف:

- وكلما زادت قوة المرء زادت مسؤوليته!

وترجل أركام من على صهوة حصانه ووقف بجوار أبيه وأردف:

- نعم يا أبتِ، أعلم هذا!

وكان وجه السيد والده يحمل حزنًا عميقًا قد لمسته عيناه، وصوتًا مفعومًا بشيء من اليأس والتردد، فأردف:

- ماذا هناك يا أبي؟ منذ وصول الرسول الملكي وأنت لست أنت!

صمت قليلًا رامقًا الفضاء الواسع:

- سوف أسافر إلى العاصمة قريبًا يا أركام.

انتفض بتعجب قاتل:

- العاصمة! لماذا؟

- لا أحد يعرف أني اتخذت ذلك القرار الآن، أنت فقط ولا أحد غيرك من يعرف عن هذا الأمر، لقد أقسمت ألا أعود إلى العاصمة مجددًا بعدما حدث في الماضي، ولكن يبدو أنني سوف أكسر قسمـًا عتيقًا عنوة!

- ماذا حدث لك في العاصمة يا أبي؟ طوال تلك السنين المديدة أحاول فهم اللغز ولكني أفشل في كل مرة، هناك قطعة غائبة من اللغز لا أستطيع أن أفطن لها وحيدًا، شيء خفي لا أستطيع الوصول له!

- نعم يا أركام، جزء يجب أن تراه بعينيك لتصدقه، ما حدث في العاصمة شيء شديد الفظاعة، لن تصدقه إذن إذا سمعته!

- إلا أذني يا أبي، أنا ابنك من صلبك سوف أصدقك في كل ما تقوله حتى وإن كان جنونًا جامحًا (وعاد يسأل)... ماذا حدث؟

تنهد داريوس وقال:

- لا بأس إن عرفت القليل!

- كلي آذان مصغية يا أبي.

قال:

- قبل حرب الإبادة بأعوام عديدة، كان هناك شقيقة لأطلس تدعى «إيڤيدوكيا»؛ كانت فتاة جميلة ورقيقة، لها قلب وديع لا يحمل الضغائن، أحبها أطلس بشدة كما لو كانت آخر شخص على وجه الأرض، وكانت مملكة «أوديث» أو«ألفاهايم» وقتها مملكة قوية يحكمها الأمير الواعد «إلكادور»؛ وفي زيارة للأمير إلى إيڤيريا؛ عند اجتماع الملوك، رمقت عيناه إيڤيدوكيا لأول مرة، ووقع صريعًا غريرًا في عشقها، وطلب منها رقصة؛ هكذا بدأ الأمر، بدأ برقصة لعينة، كانت رقصة طويلة تمنى لو لم تنته أبدًا، وأن يتوقف الزمن ليروي عطش قلبه الذي لا يرتوي، لقد امتلكت قلبه وجل فؤاده بنظرة من عينيها، نبض قلبه بعِشقها وغزا جسده وعقله وكل شيء فيه؛ وبعد أن انتهت الرقصة، طلب منها الأمير إلكادور الزواج، لكن أطلس رفض رفضًا قاطعًا، لم يؤمن أطلس يومًا بالحب، ولم يطق أن تبتعد شقيقته عنه ولو لحظة، كان حبه المرضي لها سببًا لكل هذا، وليس أطلس فقط من رفض الأمر بل إن القوانين تمنع تزاوج الأعراق!

ثم تنهد مستطردًا:

- ولكن من يلومه، كان أطلس يحب الفتاة بشكل لا يمكن وصفه!

ثم تساءل أركام:

- والأمير إلكادور؟

- إلكادور لم يستطع أن ينسى إيڤيدوكيا طرفة عين، وفي يوم خرجت إيڤيدوكيا من العاصمة، اعترض طريقها ملثمون وجنود وعلى رأسهم كان الأمير إلكادور، اختطفها إلكادور ولم يكن هناك شرف في هذا الفعل الدنيء، ثم بعدها افتعل أطلس حرب الإبادة؛ بمباركة من الملوك الثمانية، ورفع السادة كبارًا وصغارًا راية الحرب الذي أجحف الأقاليم بقيادتي أنا وأطلس، مئات العائلات، وآلاف الصفقات والتحالفات بين الممالك والأقاليم والعوائل، لم يكن أطلس يفكر في شيء سوى أن يسترد شرفه المسلوب... ولكن للأسف الشديد ماتت «إيڤيدوكيا» قبل انتهاء الحرب بأعوام، جن أطلس تمامًا، وبعد هزيمتنا في معركة «بركة الدماء» لاستعانة الأمير إلكادور بالعمالقة، تحالف أطلس مع عرق الأشاوس، وكانت المعركة الفاصلة هي معركة «الأغصان الحزينة»، ولم يشارك فيها إلكادور، اختفى تمامًا ولم يعد له وجود كأنه سراب، اقتحم أطلس المملكة باحثًا عن الأمير إلكادور، في كل بيت وفي كل حصن وفي كل زقاق، ولكنه اختفى ولم يكن له أثر، ولم ييأس أطلس أن يجد إلكادور حتى الآن ليصب عليه جام غضبه الذي تفاقم مع مرور كل تلك السنين، لم ينس أطلس ما حدث، ولن ينسى أبدًا، يقتل الرجل مئات المرات في أحلامه، يقتله آلاف المرات في خيالاته، لكن وللأسف الشديد لم يكن هذا كافيًا أبدًا!

صمت أركام ليستوعب كل ما سمعته أذناه، لقد سمع كثيرًا عن حرب الإبادة وكثيرًا عن أطلس الذي أصابه الجنون، لكنه ولأول مرة يضرب قلبه الذهول، ويصيب لسانه صمت يمتلئ بالكلمات وأسئلة يبحث عن إجابة لها، نطق بعد لحظات:

- أشعل أطلس حرب الإبادة من أجل شقيقته إيڤيدوكيا؟

- نعم، لم يحب أطلس أحدًا كما أحب إيڤيدوكيا!

نظر أركام إلى أبيه وقال:

- لم أعتقد يومًا أن الحب قد يشعل حروبًا!

- أعظم الجرائم تلك التي ترتكب باسم الحب.

ثم سأل:

- وهل الحب الذي تسبب بنبوءة أطلس المشؤومة؛ الكلمات الموعودة؟

- لا أؤمن بالنبوءات، ولكني أؤمن أن النهاية لن تكون إحدى تلك النهايات السعيدة!

- وهل هذا كله له علاقة بواقعة «سرب الغربان»؟

اربد وجه داريوس وامتعض وقال بحدة:

- أين سمعت بهذا بحق الجحائم؟

لقد سمع تلك الكلمات مرارًا وتكرارًا على ألسنة الجميع، ولكنه لم يدرك يومًا ما هي تلك الواقعة التي أسماها الجميع «بسرب الغربان»، سائلًا الجميع عن معنى تلك الكلمات ولم يتلق يومًا إجابة شافية، فسأل أركام منتظرًا الإجابة من شفتي والده قبل أن ينطق بـــها:

- تلك الواقعة هي السبب الذي نفاك أطلس من أجله، صحيح؟

صمت داريوس واعتلت وجهه أمارات الغضب، ولم يعقّب، فاستطرد أركام:

- لماذا ترفض إخباري؟

أردف داريوس بصلف وحدة ناهيًا الحديث بكل بقاياه التي لم تكتمل:

- ستعرف كل شيء يا أركام... ولكن في الوقت المناسب!

وكان هذا كافيًا ليصمت أركام ولا يتحدث في الأمر مرة أخرى، ثم اعتلى داريوس صهوة حصانه بخفة شاب في العشرين، ثم أردف:

- هيا بنا، علينا العودة إلى القلعة سريعًا، لقد أوشك الضيوف على الحضور!

تساءل أركام:

- أي ضيوف؟

- الكونت «إيرجون»؛ سيد إقليم «النداء الأخير».

وألقى إليه ابتسامة طفيفة واستطرد:

- ولن يأتي وحيدًا، سوف تأتي معه ابنته الكونتيسة «إلينورا».

قالها وشد سراجه وانطلق، ابتسم أركام واعتلى جواده ولحق بالسيد والده، وانطلق كلاهما إلى القلعة منحدرين بحذر من أعلى التل الشاهق.

بارِجة: سفينة قِتال، من سُفن الأسطول الحربي.

النعيق الثالث

«الأشاوس»

3

لقد تساءل الجميع عن الزائر الغريب.

ولم يجد أحد منهم جوابًا شافيًا لسؤالهم المـلحّ، على الأرجح لم يكن هناك داع للتكذيب، لقد رأى الجميع ما قد حدث ليلة أمس في الحانة، وتنوقلت الأخبار في كل الأرجاء والأزقة، إن الغريب لديه قوة شيطانية أو ربما سفلية لم يـجزم أحد بالأمر بعد، قال البعض إن الغريب هو أحد من أقسموا بسيوفهم للأمير «إلكادور»، وقال البعض الآخر إنه أحد رجال قبائل «الويكنيجر» التي لا تعرف الرحمة.

وهمس آخرون: «إنه من عرق الأشاوس الذين يعملون تحت راية جلادور»؛ مما جعل الشعيرات تنتصب على ساعد من تخبطت في آذانهم الكلمات، لقد سمعوا الكثير من الحكايات والأساطير؛ عن أقوام عاصروا زمن الأسياد الأوائل وعصر ما قبل الفناء العظيم، كان يمتطون قديمًا كائنًا لا يذكر إلا في الأساطير يدعى «بالـجريفن»؛ ظن البعض أن تلك لم تكن سوى حكايات تروى للأطفال الصغار لينناموا ليلًا، ولم يعتقدوا يومًا أنهم موجودون حقًّا.

كان النزل الذي قضى فيه ليلته عبارة عن غرفة صغيرة بها سرير ومرحاض؛ لا أكثر ولا أقل من هذا، كان منهكًا ليلة أمس من رحلته الطويلة؛ وغط في نوم عميق، غير عابئ بتلك الرائحة القذرة التي امتزجت برائحة الغائط والعرق وفاحت من كل ركن من أركان ذلك النزل، وغير عابئ أيضًا بتلك الجرذان التي كانت تتضاجع أسفل سريره طوال الليل.

وفي الصباح الباكر أيقظه صوت زئير البحر الهادر، كان الصوت هائلًا ينبعث من بين أمواج بحر «الرماد» الضارية؛ كغول أسطوري يئن جوعًا، مخترقًا الحوائط الحجرية ثم الآذان والقلوب في آن واحد، مزلزلًا النفوس بوقار وهيبة معهودتين على من يسكن بجوار الميناء الشرقي القديم.

تهيأ للرحيل، فلا وقت ليضيع، كانت الحانة في الصباح هادئة جدًّا، فارغة إلا من عدة كراسي لرجال فقدوا الوعي ليلة أمس، يبدو أنهم قد أسرفوا في الشراب حد البلاهة والشراهة في آن واحد، مرّ على الساقي وأعطاه عملة نقدية واحدة؛ مقابل بياته في النزل لليلة واحدة، وخرج من الحانة منحدرًا لأسفل الشارع متجهًا للإسطبل لإحضار جواده، على طرف الشارع لاحظ حارسين يقفان بغير حراك كمسمارين منتصبين في قطعة خشب، كان يشعر بشعور غريب، غير مريح ولا هو بمألوف كالعادة، وكأن هناك من يترصد به، شعر وكأن هناك أعينًا تراقبه، هنا وهناك وفي كل مكان، وبالرغم

من ذلك الشعور القوي الذي يعتريه إلا أنه تابع مسيره حتى إسطبل الخيول، وأخرج عملة أخرى معطيًا إياها لعامل الإسطبل، ثم شد حصانه من لجامه مشيًا على قدميه متحركًا شمالًا بهدوء وبخطوات لا تثير الشكوك، وبعد لحظة استوقفه صوت قوي من خلفه:

- توقف عندك أيها الغريب!

لم يدرك من ألقاها، واستدار ليرى، كان أحد الحارسين الواقفين، طويلًا وعريضًا قوي الجسد، يرتدي الدرع الذهبية الموشحة بالأسود، كان من الحرس الملكي، وكان الأمر شديد الوضوح، أردف آجينار:

- ماذا تريد؟

تحدث الحارس بلهجة خشنة:

- أنت رهن الاعتقال أيها الحثالة!

وأشار الحارس إلى صديقه فأعطى إشارة بيده، فتقدم من خلفه مجموعة من الحراس متشابهون؛ يرتدون نفس الدروع الذهبية مع نصالهم المتأهبة، اقتربوا وأحاطوه في دائرة تلألأت تحت الشمس من الدروع الذهبية للحرس الملكي، وبعد لحظات أدرك الأمر جيدًا، كان هذا فخًّا للإيقاع به، نوعًا ما، وكان يشعر بهذا منذ لحظة خروجه من الحانة... «لكن لا بأس!».

رمقهم للحظات من حوله، ثم أخرج سيفه «العويل» من غمده، صادرًا من فولاذه القاتم صليلًا مسموعًا داعب آذان الحراس واخترق مسامعهم، فتحفزت صوارمهم من أغمادها سريعًا، كان آجينار يتوسط دائرة الحراس، وبعد لحظات مرت مترقبة من الطرفين؛ رفع آجينار نصله إلى أعلى، فرجع الحراس خطوتين إلى الوراء تحسبًا، ثم على حين غِرة غمد نصله أرضًا، وانحنى على ركبتيه رافعًا يديه لأعلى استسلامًا لهم، اقترب الحراس منه في تردد ناوش صدورهم وقلوبهم؛ ظنًّا منهم أنها خدعة ما وأنه سوف ينقض عليهم كالليث الضاري يفتك بأرواحهم المثيرة للشفقة في لحظات، ولكنه لم يتحرك من موضعه، كبّلوا يديه بأصفاد حديدية تنحدر لأسفل مقيدة قدميه أيضًا، وصادر الجنود سيفه «العويل» وحصانه الجامح، ووضعوا على عينيه غشاوة ألجمت رؤيته تمامًا، وقادوه بخشونة إلى عربة الحجز، لم يكونوا متوقعين أن الأمر سيكون بتلك السهولة؛ كانوا يعتقدون بأن فردًا من الأشاوس بمئة رجل بشري كما سمعوا وكما قد قيل لهم، ولكن ما وجدوه كان عكس ذلك تمامًا!

هرولت الأحصنة وصهلت حين وقع السوط وسقط على ظهورها سقوطًا مبرحًا، فتحركت العربة فوق البلاط المحدب، لم يكن يرى شيئًا مطلقًا، ولكن كان يضرِب أذنه

صوت سنابك الخيل على البلاط، وبعد ساعة مرت سريعًا، شعر بسلاسة في حركة العربة؛ لم تعد تتعثر الخيول ولا شيء يعيق حركتها تسير مسرعة في خط مستقيم، على الأرجح قد وصل لحي القصور، حيث الطرق مرصوفة وناصعة البياض، وحيث لا عائق يعيق العربات والسائرين.

وتوقفت العربة أمام الخاصة الملكية مباشرةً، كان ألكيدس في انتظاره ولم يكن يؤمن بالخرافات قط، يتحرق شوقًا ليرى تلك القوة المزعومة، التي قد سمع الكثير عنها، لقد سمع الكثير عن الأشاوس، ألكيدس لم يشارك في حرب الإبادة ولكنه استمع الكثير من الحكايات؛ والذي كان أحد الأشاوس هم أبطالها، ومن إحدى تلك الحكايات كانت في معركة «الأغصان الحزينة»؛ حلّق أحد الأشاوس والذي أطلق عليه الجنود «ميجور ذا الوشاح الأسود»؛ يمتطي الجريفن الخاص به ذا الريش الأسود الحالك كسواد ليلة لا تحمل في سمائها قمرًا ولا نجومًا، لم ير أحد من الجنود وجهه قط، شق ميجور في تلك المعركة بنصله حناجر عشرة عمالقة بمفرده، كأنها قصة أسطورية عن بطل لا يقهر، ولكن تلك القصة كانت تلوك بها ألسنة الجنود وقصّها الملك على لسانه ذات مرة، ولكن يبقى البيان بيانًا حتى تراه العين، وتلمسه الروح، فيمسي البيان خبرًا واجب التصديق... ألكيدس لن يصدق حتى يرى بأم عينيه...

وانتظر، وكان لانتظاره نهاية.

قاد الحراس «آجينار» مجرورًا من أغلاله التي كبلت يديه وقدميه، لم يكن ليرى شيئًا من تلك العصابة التي اعتلت عينيه، قادوه بخشونة إلى أحد الزنازين الفردية، أحضر الجنود طاولة وكرسيين، وجاء الخبر إلى ألكيدس عن وصول الغريب إلى الخاصة الملكية، مقيد اليدين والقدمين ومعصوب العينين، عاجزًا لا حول له ولا قوة، ولم يتأخر ألكيدس حتى وصل إلى الزنزانة، دلف للداخل متفحصًا بعينيه المكان، وفي أحد الأركان كان جالسًا بهدوء شديد، كان يبدو كرجل عادي، لا يحمل أي قوى، وكانت خيبة أمله كبيرةً، لقد ظن أنه سوف يرى بطلًا أسطوريًّا كما تقول الحكايات، ألقى إليه نظرة، كان يبلغ في تقديره عقده الثالث، شعره أسود حالك كالحبر، بشرته بيضاء صافية وشاحبة بعض الشيء، وجسده كان مفتولًا، وتأكد أنه من الأشاوس من الوشم الموسوم على رقبته، جلس على الكرسي، وأعطى أمرًا للحراس:

- أجلسوه!

وتقدم حارسان وأجلساه على الناحية الأخرى من الطاولة؛ أمام ألكيدس، فاستطرد بعد دقيقة تأمل فيها وجهه:

- لم أؤمن يومًا بالحكايات القديمة المعبقة بالأساطير لأسباب عديدة.

بهدوئه المعهود قال آجينار:

- إلى من أتحدث؟

فاستطرد ألكيدس كأن آجينار لم ينطق حرفًا:

- يقول صاحب المعرفة في مبنى «القدماء» إن الأسياد حكمت الطبيعة لقرون عديدة قبل سيادة البشر، وقبل ظهور الأعراق عاش الكون القديم في سلام وتناغم منقطع النظير، ولم تنشأ حروب لآلاف الأعوام، وعند ارتقاء الأسياد بدأت الطبيعة تختل شيئًا فشيئًا، وعند ارتقاء آخر سيد من الأسياد؛ اختلت الطبيعة تمامًا، وأمطرت السماء شهبًا ونجومًا وكواكب، وانهارت الحضارات السالفة وانقرضت معظم الأعراق آنذاك... وحدث الفناء العظيم، ولم يتبق من الأعراق شيء سوى القليل... القليل جدًّا، مما يجعلني أتساءل حقًّا، إذا حدث كل هذا بالفعل، فكيف نجا الأشاوس من الفناء العظيم؟

فأكمل ألكيدس:

- لسبب ما لا أصدق هذا كله... أعتقد أن هذا الأمر كله محض هراء، ألا توافقني الرأي يا صديقي؟

لم يعقب آجينار والتزم صمته وهدوءه، فأردف ألكيدس مرة أخرى:

- آه، لعلنا لم نتعرف بشكل لائق، أعتذر لك!

فطفق يقدم نفسه للغريب:

- معك ألكيدس، آمر القلعة؛ ساعد الملك أطلس بن أمناديل ويده وكلمته؛ سيد البشر وسليل صاحب السيادة الأولى!

نطق آجينار:

- لعلي لا أرحب بأحد لا أراه!

ابتسم ألكيدس وقال:

- أعتذر لك يا صديقي على عدم كياستي!

وأشار إلى أحد الحراس، فتحرك نازعًا العصابة من على عيني آجينار، ثم حدق إلى ألكيدس للحظات، فاستطرد الأخير:

- هل تملك اسمًـا؟ أم أنكم لا تحملون الأسماء!

- آجينار... أدعى آجينار.

- أنت من عرق الأشاوس! صحيح؟

- بلى!

حك ألكيدس ذقنه رامقًا الوشم على رقبته، فسأل:

- ما هذا الكائن الموشوم على رقبتك؟

- إنه الجريفن!

- آه، ذلك كائنكم الأسطوري المقدس، هل رأيت واحدًا من قبل؟

- نعم!

فتابع في سؤاله:

- متى آخر مرة رأيت فيها واحدًا؟

- في حرب الإبادة؛ مات آخر ما تبقى منها!

- هل شاركت في الحرب؟

- بلى.

- على حد علمي، مذكور في اللفائف العتيقة أن عهود الأشاوس القديمة تحرم التعامل مع البشر وتمنع خوض حروبهم!

- بلى، صحيح، ولكن المجلس وافق على الحرب، ويحرم أيضًا عصيان أوامر المجلس والملك!

- وهل لديكم ملك؟

- ليس ملكًا كملوك البشر المتغطرسين، بل قائدًا لعشيرة الأشاوس بأكملها.

- كم عمرك يا آجينار؟

صمت آجينار للحظات، وابتسم باستهزاء ثم أردف بهدوء بالغ:

- على الأرجح لم أكمل القرن العاشر بعد!

صمت ألكيدس ناظرًا لآجينار ولم يعقب، ثم صقف بيديه، فأحضر أحد الحراس له كأسًا من النبيذ، ارتشف منه وأردف:

- هل تسخر مني؟

- لا.

- أخبرني يا آجينار، كيف أتأكد أنك من الأشاوس؟ هل تعرف عاقبة الكذب عند الملك؟

- لا يهمني عقاب ملكك، فك قيدي وسأؤكد لك الأمر!

صمت ألكيدس مفكرًا للحظات، وفي النهاية اتخذ قراره آمرًا الحارس:

- فك قيوده!

تحرك الحارس مقتربًا منه في تردد، فتح أقفال الأغلال وابتعد خطوتين للوراء، تحرر آجينار من قيوده واندفعت الدماء في عروقه مشعرة إياه بشيء من الانتشاء والراحة، فقال ألكيدس:

- تفضل، ها هي عيناي تريد التصديق!

رمق آجينار ألكيدس للحظات، ثم أخرج من درعه ورقة مطوية ودفع بها نحو ألكيدس، رمقها ألكيدس للحظة، وأردف:

- ما هذا؟

- هذا هو ما تطلبه!

تناولها ألكيدس، ثم تفحصها؛ كانت رسالة من الملك لشخص يدعى جلادور؛ يطلب فيها أحد الأشاوس لمهمة ما، عاجلة ولا يمكن تأخيرها، خط الرسالة بيد أطلس نفسه، تحمل ختمه الملكي أسفلها، لا يعرف ألكيدس متى أرسل الملك هذه الرسالة، ألقاها ألكيدس على الطاولة وقال:

- هذا ليس إثباتًا لأي شيء البتة!

ابتسم آجينار وقال بهدوء:

- لو كان سيفي معي لأثبت لك إثباتًا آخر!

أطلق ألكيدس ضحكة وقال:

- سوف تثبت، ولكن ليس بسيفك!

ثم انتصب من على كرسيه، ونظر للحراس وأردف:

- أحضروه!

مشوا به ممرًّا طويلًا، وخرجوا به من مبنى الزنازين إلى الساحة الواسعة التي تقع في نهايتها الحلبة، هناك وقف ألكيدس منتظرًا، كانت الحلبة يتبارز فيها الجنود والحاشية الملكية بعضهم بعضًا، وقف آجينار أمام ألكيدس، فأشار الأخير إلى مروض القصر، فدخل إلى معقله لدقيقة ثم خرج وفي يده «سميلودون»[5] هائل الحجم، قبض المدرب على رقبته بالأغلال كابحًا غرائزه المتوحشة، اقترب ألكيدس وانحنى وفتح فم السميلودون، ونظر لآجينار وأردف:

- هذا سميلودون ملكي، مدرب، يشتم رائحة الغرباء على بعد ميل، يتم ترويضه للحراسة، يفتك بالغرباء فتكًا بأنياب حادة كالسكاكين، يحضره الجنود رضيعًا من الأرضي الثلجية في أقصى «ثينيا»، ويتم ترويضه هنا!

ثم تحسس أسنانه وأردف:

- هل كنت تعلم أن للسميلودون أربعين سنًّا، دعني أوضح لك الأمر بشكل أكثر تفصيلًا.

ثم استطرد: «يستخدم السميلودون تلك الأنياب السيفية الكبيرة المدببة في الإمساك بالفريسة وقتلها وتمزيق لحمها، أما أسنان الخد التي تسمى القواطع؛ فتقوم بقطع الجلد وقطع الأوتار التي تربط عضلات لحم الفريسة بعظامها».

ثم عبث بفم السميلودون بشكلٍ أعمق فأطلق زئيرًا أبعد الجنود من ورائه خطوتين، ولكن آجينار لم يتحرك قيد أنملة، وبعدها استطرد ألكيدس:

- للأسف لا يملك هذا الكائن المتوحش أسنانًا مناسبة للمضغ، ولذلك فإنه يبلع الطعام على هيئة كتل لحم كبيرة، السميلودون كائن شرس يكره الغرباء، ويكره الكذب أيضًا!

ثم نظر للحراس وأردف:

- أدخلوه الحلبة!

قاده الجنود للحلبة بخشونة قبل أن يغلقوا بوابات الحلبة الحديدية بالأقفال، وأشار ألكيدس إلى مروض القصر، فأدخل السميلدون إلى الحلبة وفك قبضته من الغلال محررًا غريزته الفوضوية الغاشمة، وظل ألكيدس يراقب النزال في ترقب.

كان السميلودون هائل الحجم حقًّا، لونه بني مخطط بالأسود، له مخالب قاطعة وأنيابه كاسرة وحادة، أطلق زئيرًا مرعبًا، فصاح ألكيدس بعد أن أطلق ضحكة:

- احذر فإنه يشتم رائحة الخوف!

بيديه المجردتين، بلا سيف أو أي وسيلة دفاع أخرى، ركض السميلودون عليه منقضًّا بسرعة هائلة كاشفًا عن أنيابه الحادة، رجع آجينار خطوتين للوراء متأهبًا لصد انقضاض السميلودون الغاشم، وانقض عليه بقوة وشراسة، غارزًا أنيابه الحادة في ذراعه، صرخ آجينار ألمًا، وبقبضته ضرب السمليودون في عينيه، بضع ضربات متتالية وقوية كانت كافية ليفقد السميلودون تركيزه للحظات تاركًا ذراعه المصابة، وانتصب سريعًا مبتعدًا عن مرمى أنيابه الهائلة، فأطلق ألكيدس ضحكة تمتلئ بالاستهزاء.

وبسرعة فائقة خلع درع ذراعه اليمنى، ثم اليسرى، ثم صدرية الدرع، لم يفهم ألكيدس ما الذي يحاول فعله وما الذي يخطط له تحديدًا؛ كان درعه القاسي سيكون سببًا كافيًا لأن يصمد أكثر أمام ذلك الكائن الشرس، ولكن لماذا خلع درعه؟ - تساءل-، وظل يراقب الأمر ويملؤه فضولًا كفيضان جارف.

بعد أن انتهى آجينار من خلع درعه، وأصبح يواجه السميلودون بصدر عار، أخرج قارورة بها سائل يميل للون الأحمر الدموي، فتح القارورة وتجرع ما بها من سائل غريب جرعة واحدة، وارتطم أرضًا يتلوى كالثعبان، وتصاعد صراخه الذي امتزج بعواء مجهول المصدر، وباتت عضلاته تتمدد وتتضخم تحت جلده بشكل غريب أثار الريبة والذهول في قلوب الواقفين، وبعد لحظات بات جلده يتمزق ويتساقط أرضًا، يداه ثم قدماه ثم باقي جسده، وكلما تمزق يزداد صراخًا وألمًا، وفي لحظة تبدد الصراخ واستحال لعواء مرعب تهتز له الأفئدة، وتحول آجينار من هيئة تشبه البشر لشيء مختلف تمامًا، شيء رهيب لم يتوقعه أحد، لم يصدق ألكيدس ما تراه عيناه الآن، وتراجع خطوتين للوراء محملقًا بذهول وخوف هائل؛ لقد تحول آجينار «لذئب رهيب»[6] ذي لون رمادي، أنيابه عملاقة ومخالبه مشحوذة وحادة، وقفز الرعب والفزع في قلوبهم أجمعين، غير مصدقين ما تراه أعينهم.

وأطلق الذئب الرهيب عواء آخر قبل أن ينقض على السميلودون، وتخابطوا ببعضهم بعضًا في معركة غاشمة بالأنياب والمخالب، وبضربة قوية من الذئب الرهيب معززة بمخالبه الحادة أفقد السميلودون إحدى عينيه وتراجع الأخير للوراء، ثم انقض وقبض بفكيه على رقبة السميلودون، زأر السميلودون في ألم رهيب، وخفتت صرخاته عندما ارتفع صوت تهشم صادر من رقبته، وانسالت منها الدماء تجري كمجرى الأنهار، وارتطم بالأرض جثة هامدة تحت أقدام الذئب الرهيب، وانتهى النزال سريعًا، أسرع مما توقع الجميع، والنهاية لم يكن يتوقعها أحد مطلقًا!

ثم رمق الذئب الرهيب ألكيدس وعوى، واختلط العواء بصوت آجينار الذي عاد شيئًا فشيئًا، وعاد جلده الذي تساقط آنفًا، واختفت المخالب والأنياب؛ كأن شيئًا لم يكن البتة؛ عائدًا لهيئته المعهودة، وانتصب في منتصف الحلبة على الجثة الهامدة للسمليودون، عاري الصدر والجسد، ووجهه وجسده ملطخان بالدماء الحمراء، رمق ألكيدس وأردف:

- أعتقد الآن أننا سوف نتحدث بشكل أكثر جدية... يا ألكيدس!

إن الدمع دم شفاف؛ مخادع لا لون له ولا رائحة!

وهي كانت تنزف دمعًا من عينيها، أصابها الهزال العظيم؛ بعد سنين مرت عجاف جدباء، تحمل بين أحشائها حملًا تنوء به أكتاف الرجال والمحاربين والكهنة والأبطال، والملوك، بروح منهكة تسكن جسدًا منهكًا كانت تقضي الأيام... أيامًا لا تنقضي... وحزنًا آسرًا لا يكاد يرحل ولا يمل، بين أربعة حوائط ملكية كانت سجينة، كرِهت كل شيء في ذلك القصر، لم يكن قصرًا؛ بل كان قطعة من الجحيم، لم تعد روحها تتحمل أكثر من هذا، يأكل الفزع قلبها؛ فتآكل مع مرور السنين، ولم يذر سوى الفراغ البارد داخل صدرها الصغير، صدر خاو من كل شيء تقريبًا...الحب، الدفء، الأمان، ولم يكن يملؤه شيء سوى ذكريات أليمة كسكين باردة النصل؛ لا تقتل ولا تذر لها حياة!

كانت «هيميريا» زوجة الملك أطلس في منتصف عقدها الثالث، أطلق عليها الحشد منذ زمن بعيد «جميلة المدينة»، ولكن لم يكن الجمال وحده كافيًا يومًا!

بالكاد تذكر هذا اللقب الآن.

تذكرت يوم قابلت أطلس؛ كان فتى حلمت به كل فتاة في المملكة بأسرها، كان وسيمًـا ومحاربًا، في درعه الذهبية كالملائكة أو أشد جمالًا، ولدت هيميريا لعائلة عريقة جدًّا في إيڤيريا، رآها أطلس في إحدى الحفلات الملكية، كانت جميلة جدًّا، جمالًا لافتًا لا ينسى، وكانت حكيمة أيضًا وذكية، وكان والد أطلس الملك «أمناديل» لا يزال على قيد الحياة بعد؛ ورأى في هيميريا ملكة حكيمة لابنه، تختلف كثيرًا عن ابنة الإسطبل التي أرادها أطلس، «يا له من فتى أهوج»؛ هكذا قال الملك أمناديل حينها، وهكذا رأى أطلس، فتى أحمق تسوقه مشاعره إلى حيث كل شيء ضائع، كيف لأمير مثله أن يتزوج فتاة من العامة، وليس هذا فقط بل والدها يعمل في الإسطبل الملكي، وضحك حينها ضحكًا هستيريًّا يمتلئ بالاستهزاء، وعندما اختار الملك هيميريا أذعن أطلس لأمر أبيه، وبعد أيام كان حفل الزفاف، كانت هيميريا سعيدة جدًّا لحصولها على أطلس، فمن تلك الحمقاء التي لا تفرح لحصولها على ذلك الفتى التي ذابت في عشقه جل فتيات المملكة!

لا تذكر تلك الفرحة الآن، لقد نسيت ذلك الشعور تمامًا، لا تذكر كيف يبدو حتى!

كانت هيميريا ذات شعر أشقر يتلألأ تحت شعاع الشمس كالذهب الخالص، كان وجهها في الماضي ينير كتمام البدر، أما الآن فانطفأ نور وجهها كما انطفأ كل شيء فيها، تشعر بضعف يتخللها وبحزن يقبض على صدرها، لم تعد هي التي تألف منذ زمن بعيد، أصبحت مخلوقًا مختلفًا تمامًا، بروح هزيلة وجسد أشد هزلًا!

في الغرفة الملكية كانت جالسة، أمام المرآة، شاخصة في الشبح الذي أطل عليها من المرآة؛ لقد اختلفت كثيرًا عن ما تذكر، وعن أي وقت مضى، وظلت تمشط شعرها الأشقر، فراحت تتساقط خصلاتها الذهبية مع الفرشاة، كما تتساقط الأيام يومًا بعد يوم، كل ما هو جميل يفنى؛ يأكله الخوف، ويرتوي به الفزع، كل ما هو جميل يكون وليمة للظلام داخل الروح...

لا شيء باقٍ... لا شيء باق أبدًا... هكذا كانت تهمس لنفسها أمام مرآتها كل يوم في الصباح، كل يوم تذكر نفسها بأمر واحد لا مفر منه؛ أن لا شيء باقٍ!

في أحشائها مولود بعمر ثمانية أشهر، كانت تشعر وكأن هناك جبلًا ينمو بداخلها، تجرحها صلابة صخوره الحادة، ثقيلة كانت الأيام تعبر، كم تمنت لو مات ذلك المولود داخل أحشائها قبل ولادته، وبعد أن تتمنى ذلك تبكي... وتظل تبكي حتى تذبل عيناها وتغط مرغمة في نوم سيئ المعالم، غير مريح البتة، تملؤه الكوابيس والصراخ والبكاء، وأحيانًا كثيرة... يمتلئ بالغربان!

هائمة في البِقاع القصية، لم يعد لها وجود، هواء عابر، أو ربما سحابة مغادرة، ما يوجد هنا جسد لا يحمل روحًا؛ عقل مشتت لم يعد يتحمل جحيم الأفكار، انتهت من تمشيط شعرها، وانتصبت وتحركت نحو النافذة ورمقت البحر السرمدي أمام عينيها، وتأملت الطيور التي حلّقت في السماء، كم تمنت لو ذاقت ذاك الشعور... شعور الحرية، ولكن لا حرية لحبيس داخل قضبان نفسه أبدًا!

وطرق الباب، ثم دخلت وصيفة الملكة، امرأة كانت في منتصف عقدها الثاني، صهباء ذات وجه وديع الملامح، اقتربت من الملكة ثم تنحنحت قائلة:

- مولاتي!

كان الصوت كفيلًا لأن يخرج الملكة من تأملها العميق، التفت هيميريا لوصيفتها وبابتسامة تكاد تكون منطفئة أردفت:

- ماذا هناك يا روزلين؟

- طبيب القصر في الخارج يا مولاتي، ويستأذن للدخول!

ثم عادت ناظرة للبحر والسماء وأردفت متنهدة:

- لا، لست في مزاج يسمح!

قالت روزلين بنبرة يملؤها القلق:

- إنها تعليمات الملك أطلس يا مولاتي... أرجوكِ!

يكاد الاسم فقط أن يسبب لها قشعريرة وشعورًا بالغثيان لا يكاد ينتهي، فعاودت التفكير في الأمر للحظات، فقالت مجبرة:

- دعيه يتفضل يا روزلين، أنا جاهزة!

وخرجت الوصيفة لدقيقة تمددت فيها الملكة على السرير، وبعد مرور لحظات أخرى دلفت الوصيفة ومن ورائها طبيب القصر للغرفة الملكية، كان الطبيب يبلغ من عمره خمسة وستين عامًا؛ جاء للقصر طبيبًا شابًّا واعدًا أثناء حكم الملك أمناديل وخدم الملك أطلس من بعده، انحنى للملكة، ثم أردف:

- فلتحيا مولاتي الملكة؛ هيميريا الجميلة.

ابتسمت الملكة هيميريا لمقولته، وقالت:

- تفضل أيها الطبيب سوران.

قال سوران بابتسامة:

- كيف حال ذات الجمال الخلاب؛ مولاتي هيميريا؟

- لعلك أنت الوحيد الذي ترى هذا أيها الطبيب سوران!

- دائمًا ما كنت جميلة يا مولاتي... دائمًــا وأبدًا.

ثم بدأ يتفحصها كما العادة كل يوم بأمر من الملك أطلس نفسه، تحسس نبض قلبها الهادئ، وأخرج من حقيبته زجاجة بها سائل شفاف وقربها إلى أنفها لتشتمه، فنفرت حواسها وابتعدت في تقزز وقرف؛ كانت خلاصة الريحان مع الزنجبيل النفاذة، فشعرت بالطفل يضرب بأقدامه داخل أحشائها، ومن ثم فحص بطنها المنتفخ، وبعد أن انتهى، أردف:

- الطفل بحالة جيدة.

كم تمنت لو سمعت شيئًا عكس هذا تمامًا، ولكن في كل مرة يكون جوابه مكررًا لا يتغير، وصمتت وشعرت باليأس، وطفقت تفكر للحظة ناظرة للطبيب، فاستطرد:

- أما أنت يا مولاتي... فلست بصحة جيدة!

قالت الوصيفة بشيء من القلق:

- ماذا بها أيها الطبيب؟

- قلبها ليس بحالة جيدة، تحتاج إلى التغذية الجيدة، سوف أكتب لها بعض الوصفات الطبية، مع الغذاء الجيد، سوف تكون بخير.

وانتهى الطبيب وكاد يغادر، وانتهت الملكة من تفكيرها الطويل قائلة:

- سوران... لا تغادر! أريدك على انفراد.

وأشارت لوصيفتها ثم انتصبت واقفة من السرير، وبعد لحظة انسحبت وصيفة الملكة للخارج، ولم يكن في الغرفة إلا الملكة والطبيب، تلفتت حولها بجنون واندفعت نحو الباب لتتأكد أن لا أحد سوف يسمعهما، وتطلعت إلى الرواق في الخارج بحذرٍ، ثم أغلقت الباب بالقفل الذي اعتلاه، ثم التفتت إلى الطبيب وأردفت:

- اجلس أيها الطبيب!

دق القلق صدر الطبيب كناقوس وشعر بدبيب الخوف يدب في كل لحظة، جلس، فقال:

- ماذا هناك يا مولاتي؟

اندفعت الأفكار في عقلها وقالت:

- لقد وجدت الحل أيها الطبيب، وسوف تشارك فيه، ولا يوجد حل آخر!

- لا أفهم يا مولاتي، عم تتحدثين؟

- ما سوف أخبرك به ها هنا لن يخرج من تلك الغرفة أبدًا، سر سوف يدفن معي ومعك!

قال في قلق:

- بمــاذا يتعلق هذا السر الذي تريدين البوح به يا مولاتي؟

همست همسًا خافتًا: بالأمير القادم؛ ابن أطلس!

لقد اجتمع الجميع، ولم يغب أحد.

وتدفق الزائرون من البوابة الكبيرة للقلعة، وتقدمت العربات التي تجرها الأفراس، تعتليها رايات الإقليم التي رفرفت تحت وطأة الرياح، كانت الريات تحمل طائر العنقاء الملتهب شامخًا جناحيه المشتعلين، من حول العربات كان الجنود والفرسان يرتدون المعاطف الوثيرة البيضاء تحت دروعهم لتكون ردءًا لأجسادهم من الجو المتقلب والبارد القارس، وعلى رأس العربات والفرسان والجنود كان يراه من تحت خوذته ومعطفه الذي تدثر تحتهما كالدب، لم يره منذ وقت طويل جدًّا، منذ ما يزيد على عشر سنوات قبيل انتهاء حرب الإبادة؛ حينما اجتمع المجلس الملكي ليناقشوا أمور المعركة الأخيرة ضد الأمير إلكادور؛ حيث تجمع كل من أسياد الأقاليم الأربعة في اجتماع هام مقررين أمر الحرب وأيضًا صنع تحالف سوف يكون سريًّا للغاية مع عرق الأشاوس، وكان هذا الاجتماع قبل معركة «الأغصان الحزينة» حيث أطلق الملك نداءً أخيرًا للحرب في الأقاليم الأربعة، فاستجاب السير «إيرجون» لنداء الملك الأخير وشارك في تلك المعركة الغاشمة بكل رجاله وعوائل الإقليم كافة؛ كان السير إيرجون سيدًا لإقليم «أرنهام»؛ والذي تم تسميته تيمنًا باسم السيد الأول للإقليم، ولكن بعد انتهاء الحرب أطلق عليه الملك اسم «النداء الأخير»؛ وشاع بين المملكة كلها بذلك الاسم بعد الحرب.

توقفت العربات في صف واحد في منتصف الساحة الكبيرة، وثب عن صهوة حصانه الحربي برشاقة، لم يختلف كثيرًا عن الماضي، له هيبة أسد في عرينه، رجل في منتصف عقده الخامس وقور، تناثر الشيب في رأسه ولحيته، له لحية طويلة ومهذبة، يكبر داريوس بسنوات عدة، كان أحد المجلس الملكي قبل أن يتم حله، شارك في معركة الأغصان الحزينة بجسارة وقوة وشجاعة، وعندما نفى أطلس ساعده اللورد داريوس، تمرد معلنًا عن انحلال المجلس باتفاق مع كل أسياد الأقاليم الأربعة.

في صف واحد وقف داريوس في استقبال ضيوفه؛ هو وأولاده الثلاثة، من بعده وقف أركام ثم إيڤار وبعدها وقف الفتى الصغير إيدجار لتحية الزائرين، لقد رأى أركام اللورد إيرجون مرة واحدة فقط في حياته، عند زيارة لإقليمهم منذ سنوات عديدة قبل الحرب بأعوام، كان له ابنة صغيرة تدعى «لينورا»، يذكر عنها الكثير منذ صغره، ولكن لا يعرف إن رآها الآن سيتعرف عليها أم لا، وتفحص العربات بعينيه منتظرًا... ولكن لم يفلح في أن يــجد لها أثرًا... حتى الآن.

وبدأ الضيوف بالترجّل من العربات والخيول، لقد كانت رحلة طويلة، ويشعر الجميع بالإرهاق، هرع السائسون للعناية بالعربات والخيول، كاد أركام أن يفقد الأمل في هذا الأمر برمته، قبل أن يتجه أحد الحراس إلى العربة الذهبية الخاصة ويفتح بابها المزخرف بنقوش بارزة ملونة؛ وبعدها بلحظة ترجلت منها فتاة في عقدها الثاني، صهباء ذات شعر ملتهب كالنار، أنفها المدبب كسهم يصيب قلب كل من يراه، لم تكن

ترتدي فستانًا كأي كونتيسة، كانت ترتدي معطفًا جلديًّا وعلى كتفيها فرو بني لدب شرس، فوق بنطالها حزام جلدي، علق عليه سيفها الصغير مع خنجر صغير مرصع.

واقترب مع السيد والدها من الكونت داريوس، حتى وصلوا إليه، خلع إيرجون خوذته ثم ابتسم وبصمت اقترب وضم داريوس في عناق كبير، ثم صاح ببهجة:

- داريوس، كيف حالك يا صديقي القديم؟

لم يتقابلا منذ زمن طويل حقًّا، منذ المعركة الأخيرة من حرب الإبادة تقريبًا، جمعتهما صفوف جيش واحد كما كانت تجمعهما صداقة قوية جدًّا، واحترام متبادل، نطقت أعينهم كلامًا لم ينطقه اللسان بعد، فقال داريوس بابتسامته الباردة:

- أنا بخير حال، لقد مر وقت طويل.

- نعم، أطول مما ينبغي.

ثم تنهد قائلًا:

- كل شيء يأتي في وقته يا صديقي.

- نعم، كل شيء في وقته!

ثم استطرد داريوس:

- دعني أقدم لك أولادي.

ثم أشار إلى أركام:

- هذا ابني الكبير أركام، لعلك تتذكره منذ آخر زيارة لإقليمكم، أصبح فارسًا شجاعًا وسيافًا ماهرًا، يذكرني بنفسي عندما كنت صغيرًا.

- بالتأكيد أتذكر الفتى يا داريوس، الكونت الصغير، لقد كان طفلًا ذكيًّا ولامعًا، يشبهك كثيرًا؛ في ملامحك وفي شرفك وأخلاقك بالتأكيد.

أردف أركام بعد أن انحنى:

- مرحبًا بك كونت إيرجون في إقليم الأسياد!

ثم ألقى أركام للفتاة نظرة، ذلك الشعر الأصهب، وتلك الروح المتمردة التي تسكن ذلك الجسد الملائكي، استطرد مرحبًا بها:

- وأهلًا بك كونتيسة إلينورا.

قالت بابتسامة وبشيء من الخجل:

- شكرًا لك... كونت أركام!

لم تتغير كثيرًا على الأرجح؛ ليست كباقي الفتيات التي يتفاخرن بكونهن كونتيسة بتفاخر ليس في محله أبدًا، بل كانت دائمًا على طبيعتها على ما يذكر؛ فرسًا جامحًا لا حدود لجموحه وقوته وجماله، جميلة كجمال فجر تمرد على الضوء في ساعة الشروق، وظل يرمقها للحظات بإعجاب، حتى نطق السيد والده:

- وهذا هو إيڤار؛ أعظم رام قد تراه يومًا، يخرج الآن للصيد في غابة الغربان ويعود دائمًا بصيد وفير!

انحنى إيڤار أيضًا، فقال إيرجون بفخر كأنهم أولاده من صلبه:

- انظر إليهم، لقد أصبح أطفالك رجالًا أشداء.

ثم نظر إلى إيدجار الصغير الواقف جوارهم، ارتبك الفتى وثارت دقات قلبه، فأردف إيرجون مبتسمًا:

- ومتى أحضرت الفتى يا داريوس؟

ابتسم داريوس وأردف:

- منذ عشر سنوات، بعد انتهاء الحرب!

قال إيدجار:

- يقول أبي إنني أصغر محارب قد شارك في انتهاء حرب الإبادة!

ابتسم إيرجون بعد أن ربت على كتف الصغير:

- نعم بالتأكيد يا صغيري!

ثم أشار إيرجون إلى ابنته قبل أن يردف:

- هذه ابنتي إلينورا، لعلك تذكرتها الآن.

ابتسم داريوس:

- نعم بالتأكيد؛ تشبه أمها كثيرًا!

- فلترحمها الآلهة.

- تفضلوا للداخل!

وانتهت تلك التحيات، أعد داريوس مأدبة كبيرة على شرف اللورد إيرجون، وتجمع كل الزائرين والضيوف داخل القاعة الواسعة للقلعة، وأضاءت الشموع المعلقة الحوائط والأركان المظلمة، كانت القاعة غائمة من فرط الدخان وتفوح فيها رائحة اللحم المشوي والخبز الطازج، ووضعت الطاولات في كل ركن في القاعة، مملوءة بأصناف الطعام شتى، وأفخر انواع النبيذ قاطبة؛ معتقة لما يزيد على قرن كامل في سرداب القلعة، وبدأ الجميع بتناول الوليمة التي أعدت خصيصى لهم، كانت الطريق طويلة والرجال جوعى، وجلس داريوس على طاولة هو وعائلته ومن أمامه كان جالسًا اللورد إيرجون يتبادلون النظرات بصمت وبقلق لا يكاد يشعر به أحد!

سميلودون: هو نمر منقرض سيفي الأسنان، له قواطع حادة وكبيرة.

الذئب الرهيب: هو نوع منقرض من الثدييات هائلة الحجم، مرتبط بالذئب الرمادي في الوقت الحالي.

النعيف الرابع

«عالم الظل»

4

مشدوهًا كان يرمقه؛ غير مصدق ما تراه عيناه البتة!

لم يدرك «ألكيدس» حقيقة ما يراه إلا حينما نظر في عينيه؛ متوهجة كانت كشهاب ساقط من كبد السماء؛ كان مشهدًا باهرًا لم ير له مثيلًا، ولم ير ذئبًا رهيبًا من قبل قط بالتأكيد، لقد انقرض هذا النوع من الذئاب قبل وجود العِرق البشري، لكنه رآه بأم عينيه يطلق عواء مرعبًا داخل الحلبة، إن لم يكن هذا نوعًا من أوهام السحرة الذي يتعلمه الأشاوس، ستكون تلك حقيقة مرعبة لا مفر منها، حقيقة لا يستطيع عقل استيعابها، ولا يمكن رفضها بعد الآن، يحمل هذا الرجل من الأشاوس بين عروقه قوة جبارة وهائلة لم يرها من قبل، ولا يحملها الجنس البشري قاطبةً، كان غارقًا في التفكير حقًّا، فهو لم يؤمن بالخرافات يومًا، ولم يكن جبانًا ليهرب من حقيقة واضحة أمامه كالشمس في كبِد السماء، ولكنه لم يرق له أن يجلس وحيدًا مع رجل قد تحول منذ قليل لذئب رهيب بأنياب ومخالب، ولكن في النهاية اتخذ قراره الحاسم؛ آمرًا الحراس:

- اتركونا وحدنا.

وانصرف الحراس بإشارة من ألكيدس، وجلس أمامه على الطاولة في غرفة الاستقبال الملكية في القصر، وأحضر زجاجة نبيذ ثم صب لنفسه كأسًا ونظر لآجينار ثم أردف:

- هل يشرب الأشاوس النبيذ؟

ابتسم آجينار ابتسامته الهادئة وأردف:

- نعم يا ألكيدس! يشربون.

صب له كأسًا من النبيذ الأحمر الفاخر، ولكن آجينار كان يبدو مرهقًا جدًّا؛ أكثر من اللازم، يبدو أن تحوله سبب له إرهاقًا شديدًا، ينشع جسده العرق كفيضان من بين مساماته، أصبح جلده باهتًا أكثر من ذي قبل، يشعر بنعاس شديد، أزاح آجينار الشعر الغارق في العرق عن جبهته بأصابعه، كان شعرًا كثيفًا أسود كالحبر دون أن يدلي بأي كلمة، فأردف ألكيدس:

- كلي آذان مصغية، يا آجينار.

ابتلع ريقه بشيء من الصعوبة وأردف محركًا لسانه في كلل:

- ماذا تريد أن تسمع؟

- كل شيء يا صديقي.

- عن ماذا؟

ابتسم ألكيدس وارتوى من كأسه:

- عن الأشاوس، وعن الذئاب الرهيبة!

ثم استطرد سائلًا ويملؤه فضول:

- كيف تحولت لذئب رهيب يا آجينار؟ هل هو سحر من سحر الأسياد الأوائل كما تزعمون؟ أم هو خداع بصري وأوهام؟ أم ربما أنت مستذئب!

ابتسم آجينار:

- لا، لست مستذئبًا!

صاح ألكيدس:

- ماذا إذن؟ أخبرني!

ثم ضرب على رأسه متذكرًا شيئًا ما:

- لقد تذكرت، لقد شربت شيئًا ما في قارورة صغيرة؛ سائل أحمر دموي، هل هو سبب تحولك؟

- نعم، صحيح!

قال ألكيدس:

- ما هذا السائل؟

شرب آجينار من كأس النبيذ وأردف:

- إنه «الستريــجا»[7]!

تقلصت ملامحه حين سأل: «الستريــجــا؟».

- بلى.

قال ألكيدس متسائلًا:

- ماذا يعني هذا؟

- إنه شراب مقدس صنعه أسلافي منذ مئات القرون، شراب باستطاعته أن ينقلك لعالم الظل، واستدعاء أرواح الطبيعة المقدسة!

- ما هو عالم الظل؟

- إنه الوقت، ماذا تعرف عن الوقت ألكيدس؟

فكر ألكيدس للحظة، قبل أن يجيب:

- الوقت هو الماضي والحاضر والمستقبل؛ جميعها تشكل الوقت.

- نعم، في هذا العالم يسير الوقت في بشكل خطي؛ الماضي ثم الحاضر ثم المستقبل، خط واحد تسير فيه كل الأزمان، ولكن في عالم الظل شيء مختلف تمامًا؛ في عالم الظل يسير الزمان في دوائر لا نهاية لها، حيث المستقبل يكون ماضيًا للحاضر والماضي يصبح مستقبلًا للمستقبل، وتختلط الأزمان ببعضها ويكون لها وجود سرمدي لا ينتهي في حلقات من التكرار، ولا يستطيع أن ينتقل لذلك العالم إلا من كان له ظل من أرواح الطبيعة، وظلي في العالم الآخر هو الذئب الرهيب، باستطاعتي أن أستدعي هذا الظل بتجرع «الستريــجا» في أي وقت أريد، ولكن يسبب الأمر إرهاقًا كبيرًا، ويستنزف الكثير من طاقة أي جسد من الأشاوس مهما بلغت قوته!

كان الأمر معقدًا ليستوعبه عقل ألكيدس، بل أي عقل بشري آخر سوف يجد صعوبة في استيعاب ما نطق به آجينار الآن، وحاول أن يدرك ما يمكن إدراكه وأردف:

- هل جميعكم تتحولون لذئاب رهيبة؟

أجاب آجينار:

- لا، لكل فرد من الأشاوس ظِل يرافقه ويحدد نوعه من قوة حامل الظل!

ثم رمق وشمه على رقبته وأردف:

- الجريفن! هل يتحول أحدكم إلى جريفن؟

- لا، مستحيل، الجريفن كائن مقدس؛ ليس روحًا للطبيعة!

- وهل يستطيع بشري أن يذهب لعالم الظل؟

- لا، ليس للبشر ظلال!

ثم سأل مرة أخرى وما يزال فضوله جارفًا كفيضان غاشم لا يهدأ:

- وإن تناول بشري الستريجا؟

- لن يتحمل العقل البشري الستريــجا أبدًا، سيجن، سيواجه أسوأ مخاوفه على الإطلاق، عقله سيكون ساحة لحروب كثيرة سوف تشتعل بلا إرادة منه، وفي النهاية سوف يموت!

- وهل تستطيع أن ترى الماضي والمستقبل في عالم الظل؟

- ربما أرى الماضي وومضات من المستقبل القريب، ولكن لا يمكن لمخلوق مهما كانت قوته التأثير على الزمن بأي شكل من الأشكال؛ للزمن حلقات قوية لا يمكن كسرها!

صمت ألكيدس وظل يفكر للحظات رامقًا آجينار في تمعن وترقب يتخلله أفكار حلّقت من عقله كصقر جارح؛ لم يصدق كل ما قاله آجينار بالتأكيد، ولكن على الأقل لقد تأكد أنه من أحد أفراد الأشاوس المزعومين؛ تأكدًا لا ريب فيه الآن، رجل يتحول إلى ذئب رهيب هو خير دليل على أن هذا الرجل ليس بروح بشرية، أو ليس له روح على الأرجح!

ثم قال ألكيدس: «أثق الآن أنك أنهيت حكايتك، الآن فلتستمع إلى حكاية من نوع آخر، حكاية بشرية عن الحب والموت، والانتقام والغضب!».

واقترب قليلًا ثم همس: «والآن! فلتنصت لي جيدًا».

أومأ آجينار برأسه مظهرًا تفهمه، فاستطرد ألكيدس:

- لا يعرف حقيقة الأمر إلا القلائل، يقولون إن لا عائق أمام الحب، ولكن أحيانًا يكون الحب هو العائق أمام نفسه! هكذا بدأ الأمر يا آجينار... بدأ برقصة على أنغام سمفونية هادئة، بين الأمير «إلكادور» أمير مملكة أوديث أو دعنا ننطقها باللغة القديمة للأسياد؛ «آلفهايم» أرض «الإلف»[8]، وبين شقيقة أطلس؛ الأميرة إيڤيدوكيا.

شرب من كأس نبيذه وسحب نفسًا إلى رئتيه وأردف بصوت خفيض: «قبل الحرب بأعوام عديدة كانت ما تزال دعوة الملوك قائمة، أقام أطلس حفلًا ملكيًّا، جمع الممالك التسع معًا، وحضر جلادور نيابة عن عرق الأشاوس وقتها، كان القانون واضحًا ينص على عدم تزاوج الأعراق المختلفة ببعضها، وكل مولود ذو دماء مختلطة مهدور دمه، ولكن الحب أحمق؛ ويتسبب في الكثير من الحماقة!».

وظل آجينار يستمع، وصمت ألكيدس قليلًا وصب لنفسه كأسًا أخرى من النبيذ واستطرد:

- أحب إلكادور إيڤيدوكيا، وفي اجتماع الملوك انحنى أمامها طالبًا منها الزواج، كانت عيناها تلمع فرحًا كما كانت عيناه، أحبته كما أحبها، ولكن أطلس رفض رفضًا قاطعًا، وأقام الملوك التسعة اجتماعًا عاجلًا لمناقشة الأمر، حضر الجميع ذلك الاجتماع ولم يغب

أحد؛ «مالاجار»، «نيفلهايم»، «نِلكيم» وحضرت أيضًا مملكة العمالقة «يوتنهايم»، وبعد اجتماع طويل دام لأكثر من ست ساعات؛ رفض الأمر بشكل قاطع لا رجعة فيه من الممالك التسع معًا؛ فليس كل حب هو حبًّا مشروعًا في النهاية، ولكن إلكادور لم يرق له الأمر، وكان دائمًا ما يتمرد على القوانين!

تساءل آجينار:

- هل أحب إلكادور إيڤيدوكيا حقًّا؟

- حبًّا فاق قوة الملوك التسعة متجمعين!

- إذن لماذا اختطفها؟

- لا أحد يعرف ما كان يدور في ذهنه أو بما كان يفكر، كان رجلًا قويًّا ومتمردًا ؛ عندما اختطف «إلكادور» الأميرة «إيڤيدوكيا»، جن أطلس تمامًا، وأرسل مبعوثيه إلى أوديث يناشد فيها إلكادور أن يعيد الأميرة بأي شيء يطلبه، أي شيء كان، وإن كان التنازل عن العرش والسيادة، لكن وللأسف الشديد فشلت المبعوثية في التفاوض مع إلكادور، وأشعل أطلس من أجلها حرب الإبادة... حربًا أبادت عرق الإلف كاملًا.

سكت ألكيدس للحظات خيم فيها الصمت، ثم استطرد: «غزو، فتح، احتلال، سمها كما شئت، القلائل فقط يعرفون ما حدث، لقد سفكت الدماء لأيام وأسابيع وشهور، إبادة أقامها أطلس وباركها باقي الملوك، وبعد أن انتشر خبر في الأرجاء حزين عن موت إيڤيدوكيا المفجع؛ إلكادور لم يتحمل الأمر، ولم يكمل حربه ضد أطلس، واختفى تمامًا في معركته الأخيرة؛ «الأغصان الحزينة»، لم يعد له أثر، اختفى كأنه سراب، جن أطلس وأرسل وراءه أربعة آلاف متعقّب واستعان بحشد من السحرة ولكن لم يفلح أحد بتعقب أثره إلى اليوم، كأنه لم يكن موجودًا يومًا، وانتهت الحرب منذ سنين عديدة ولكن لم تنته مأساة أطلس حتى الآن!».

قال آجينار غاضبًا:

- أطلس أحمق! كيف تسوّل له نفسه أن يبيد عرقًا كاملًا؟

قال ألكيدس بعد لحظة صمت:

- لا تنس لقد شارك في الحرب الكثير من الأعراق؛ ومنهم الأشاوس!

شب غضبه واشتعل كنار في كومة قش: «لم نشارك يومًا في الإبادة؛ الإبادة حدثت بعد الحرب، لقد دعم الملوك أطلس في حربه، ولكن الإبادة يتحملها أطلس وحده!».

ثم استطرد بكلمات تخرج من تحت الضروس:

- أنتم يا معشر البشر أغبياء، حمقى، كيف سوّلت لكم أنفسكم فعل تلك الشنائع في عرق كامل، فيه أطفال ونساء وشيوخ، وكل هذا يقع تحت وطأة خطأ شخص واحد فقط؛ إلكادور!

قال ألكيدس:

- إنه الغضب يا آجينار، الغضب الدفين والحب الصادق سببان كافيان ليشعلا النار ليس في مملكة أو عرق فحسب بل في كل شيء حي على وجه تلك الأرض!

صمت آجينار وعلى وجهه أمارات الغضب فاستطرد ألكيدس:

- ما فعله أطلس كان فظيعًا، أعترف بهذا، لهذا كان عقاب القدر وخيمـًا أيضًا.

بدا آجينار أنه ينصت بتركيز، فأكمل ألكيدس:

- بعد الإبادة بأيام، تنبأ صاحب المعرفة بنبوءة لأطلس؛ نبوءة مشؤومة وكما أسمــاها صاحب المعرفة؛ الكلمات الموعودة!

تساءل آجينار بعد أن هدأ قليلًا:

- من يكون صاحب المعرفة؟

- الكاهن الأعلى في مبنى القدماء، رجل يتعدى عمره قرنًا ونصف قرن من الزمن، عيّنه الملك «هرموس الثاني»؛ جد أطلس، كان رجلًا حكيمًا جاب الأرض طلبًا للمعرفة، جاب كل الممالك التسع، تعلم المعرفة المختلفة من جل الأعراق، تعلم التنبؤ عند أبراج السحرة في «مالاجار» وتعلم السحر الأبيض في «آلفهايم»، وتعلم السحر الأسود في «نيفلهايم»، حتى إنه زار قبائل «الويكنيجار» قبل حرب الإبادة!

تساءل آجينار: «وبماذا تنبأ صاحب المعرفة؟».

أجاب ألكيدس بعد أن شرب كأس نبيذه دفعة واحدة متنهدًا؛ ساحبًا إلى رئتيه نفسًا طويلًا، ثم نظر مباشرة في عيني آجينار وبمهل قال ناطقًا الكلمات الموعودة بحذر شديد:

- «من بين الدماء النقية سوف يــحلق، ينكل بالعرش والأصفاد، في يوم مظلم ما، يرتقي القمر الأحمر وستذبل أزهار الأقحوان، وسيعزف لحن الرثاء على الحياة، وتهبط الغربان من كل مكان، تنعق بسمفونية جدباء، لا مرقص فيها ولا غناء، ويبلغ عواء الذئاب حد السماء، ولا تحاول أن تنطق بكلمات الرجاء، فالسمفونية ليس بها إلا الرثاء، ومن اللهب والرماد سيحل الفناء».

ساد صمت هادر للحظات فاستطرد ألكيدس: «تلك كانت نبوءة أطلس المشؤومة!».

سأل آجينار مستطلعًا:

- وبمــاذا تتنبأ تلك الكلمات الموعودة؟

- تتنبأ عن سقوط سيادة البشر للأرض، عن سقوط المملكة وضياع العرش الملكي على يد رجل تسير بين عروقه دماء ملكية بشرية، عندما يحين الوقت ويرتقي القمر الأحمر كبد السماء؛ هكذا قال صاحب المعرفة!

قال آجينار:

- ولكن... ليس لأطلس أولاد!

- لا تقتصر النبوءة على أبناء أطلس فحسب، بل لأي رجل يحمل دماء ملكية لسيادة البشر.

- أتقصد أن النبوءة عائدة على أحد أفراد عائلة أطلس؟

صمت ألكيدس للحظات مترددة، ثم حسم أمره ونطق:

- ليس لأطلس عائلة... بعد الآن !

ثم أكمل ألكيدس: «ونعم، ليس لأطلس أولاد كما قلت، ليس بعد على الأقل، ولكن زوجته الملكة هيميريا حبلى للمرة الثانية، المرة الأولى كانت منذ عشرة أعوام، ولكن للأسف الشديد لم ينج الطفل بعد أن وضعته، وحزنت هيميريا كثيرًا، وظلت تبكي دون انقطاع حتى ذبلت كزهرة تناست طعم الماء، وأخشى أن المولود في أحشائها ذكر... مرة أخرى!».

تساءل آجينار في شك: «ماذا حدث للمولود الأول حقًّا؛ ألكيدس؟».

تنهد ألكيدس وأردف: «ما حدث قد حدث يا آجينار، أصبح ماضيًا ولا يمكن تغييره الآن!».

صمت آجينار للحظات يفكر، ثم أردف:

- حسنًا ألكيدس، لقد أنصت بمــا فيه الكفاية، ماذا يريد مني أطلس؟

وقف ألكيدس وأردف:

- سوف تعرف قريبًا يا آجينار، سوف تقابل أطلس في أقرب وقت!

ثم صاح مناديًا الحراس، لحظات ثم دلفوا للداخل، فقال ألكيدس لآجينار:

- استرح اليوم، خذ حمامًا ساخنًا وبدل ملابسك، سوف تقابل الملك أطلس غدًا!

لم يقف آجينار، فسأل:

- أين «العويل» ألكيدس؟

- آه، أتقصد سيفك؟ لا تقلق، كل متعلقاتك بأمان، ستستردها فور مقابلة الملك!

تداخلت الأصوات ببعضها بعضًا في الساحة الواسعة، ساعات أربع كانت قد مرت منذ بدأت المأدبة ترحيبًا بالزوار، لم يعرف أحد ما سبب الزيارة، وكانت مفاجأة للجميع.

لم يكن صوتًا لعواء قطيع من الذئاب سوف يسمع فوق طقطقة النار وجلبة الأطباق والأكواب والمعالق، والهمهمات التي انسكبت من مئات الأفواه التي امتلأت بالطعام والنبيذ على حد سواء، وتجمع الأولاد الصغار في الساحة الخلفية يلعبون ويركضون هنا وهناك؛ كانت مأدبة كبيرة وحشد كبير قد تجمع حولها، ألقوا النكات وضحكوا بصوت عال وأمدوا على كل دعابة حتى كاد يقترب الفجر من الانبلاج، وشربوا النبيذ حتى ترنحت أبدانهم يمينًا وشمالًا من مغبة الخمر الذي سار بين عروقهم كالدماء.

على الرغم من جلوسها وسط هذا الحشد الهائل من البشر، إلا أن الكونتيسة «إلينورا» كانت تشعر بملل ووحدة لم تختبرها من قبل قط، من حولها الفتيات يتحدثن عن التطريز والخياطة والعزف على القيثارة والناي، أما هي فلم تكن تحب هذا كله، لم تكن إلينورا كباقي الفتيات اللاتي يحببن الخياطة أثناء الحديث عن فارس وسيم أو عن قصص تختلقها الفتيات ليجذبن لهن أنظار الفتيان؛ عن أمور ليس لها أي فائدة على الإطلاق، وشعرت بملل رهيب وخرجت من الساحة لتستنشق بعض الهواء.

كانت تحب المبارزة والسيوف الحادة الطويلة، وألــحّت على السيد والدها حتى علمها المبارزة وعلمها كيف تستل سيفًا من غمده، كانت بارعة في ذلك الأمر حتى إن براعتها فاقت براعة بعض الفرسان والمبارزين واستطاعت هزيمتهم هزيمة نكراء، ولكن السيد والدها يمنعها أحيانًا من خوض المبارزات مع الفرسان المحترفين خوفًا عليها، ودائمًا ما كان يلقي عليها تحذيرات خشنة اللهجة عن الأمر، إلا أنها كانت عنيدة كفرس جامح في البرية ولا يجرؤ أحد على ترويضه، فكانت تتسلل وتذهب لساحات المبارزة، تراقب كيف يتدربون، كيف يمسكون السيف، كيف يطيحون برأس رجل من فوق كتفيه!

وتجمع حشد من الناس عند ساحة القتال يشاهدون فارسين يتبارزان بسيوف حديدية من الفولاذ الحقيقي مشحوذ النصل، وليست سيوف التدريب المعتادة، وعندما

اقتربت منهم لتشاهد النزال، وجدت أحدهما كان فارسًا يرتدي درعًا حديدية فوق رأسه خوذة من الصلب تلمع تحت المشاعل الـمعلقة، كان يبدو أنه فارس محنك يبلغ من عمره الخمسة والثلاثين عامًا، وتفاجأت أن الفارس الآخر كان هو «أركام» الشاب، كان يرتدي سترة التدريب المبطنة وفوق السترة طبقة حديدية من الصلب، كان النزال لم يبدأ بعد؛ وظل ينتظره الجميع، وظلت إلينورا مترقبة ليبدأ النزال بينهما، لقد سمعت الكثير عن اللورد الصغير أركام؛ عن براعته في استخدام السيف، عن نبله وأخلاقه، استمعت للكثير من الحكايات حول الشاب، والآن قد جاءت الفرصة لترى هذا بأم عينيها.

ووقف قيّم السلاح «زارو» بين المتبارزين؛ في منتصف ساحة القتال، كان رجلًا قويًّا في منتصف عقده الخامس، كان مسؤولًا عن السلاح والجنود في القلعة الرمادية وأيضًا عن تدريب أركام وتعليمه أصول المبارزة، إلا أن الفتى كان موهوبًا بالفطرة، واستطاع أن يتعلم المبارزة بالسيف في وقت قصير للغاية، وبعدها أتقن النزال بالحربة والرماح والقوس والسهم، كان والده ينظر إليه نظرة تملؤها الفخر والحب؛ كان يذكره بنفسه منذ وقت طويل جدًّا مضى، ولكن بشكل أنقى وأكثر شرفًا وأكثر أخلاقًا!

واقترب قيّم السلاح من أركام وتأكد من أن سترته مغلقة جيدًا، وهمس في أذنه:

- أره كيف يكون النزال يا فتى.

ابتسم أركام ووضع خوذته فوق رأسه، ثم حمل سيفه الكبير وعلق غمده في درعه، واستعد الفارسان للنزال، كان الفارس الآخر رجلًا من إقليم النداء الأخير؛ من الحرس الشخصي للورد «إيرجون»، سمع عن أن الفتى يجيد المبارزة ونادرًا ما يهزم، فطلب نزاله، وقبل أركام دعوة النزال بثقة، كان الفارس فحلًا طويلًا وعريض الجسد، تدثر تحت الفولاذ، وأطلق شتيمة بذيئة ثم أخرج سيفه واستعد للنزال، فأشار قيّم السلاح للفارسين بإشارة من يده، وبدأ النزال بينهما.

كانت إلينورا تراقب النزال من بعيد، تنتظر، تترقب، كان الفارس حارس والدها الشخصي، -وتساءلت- ماذا سوف يفعل الفتى مع فحل قوي مثله؟ سوف تجد جوابًا لسؤالها، ولكن عليها أن تنتظر قليلًا...

ولم يطل انتظارها كثيرًا؛ سحب «أركام» سيفه من غمده ووقف مستعدًّا للقتال، وراقب النزال أيضًا كل من أخويه «إيڤار» و «إيدجار»، وظلا يرددان اسمه تشجيعًا له أمام ذلك الفارس.

اقترب الفارسان من بعضهما بعضًا، اندفع الفارس المدرع نحو أركام بخشونة وتصافح الفولاذ بالفولاذ مصدرًا صليلًا تردد صداه في أركان القلعة، وصاح الحشد

تشجيعًا؛ فريق كان يراهن على الكونت الصغير «أركام»؛ والآخر راهن على الفارس المدرع ذي السيف العملاق؛ ولكن معظمهم كانوا يراهنون على الفارس المدرع بالتأكيد؛ لفحولته ودرعه الكبيرة وسيفه المطروق من الصلب اللامع.

تفادى أركام ضربات الفارس برشاقة، كان الفارس مقيدًا بدرعه الثقيلة، أما أركام فكان يسدد له ضربات سريعة متتالية ثم يبتعد متفاديًا ضربة ثقيلة منه، واندفع أركام نحو الفارس بشجاعة وهوى على ذراعه بالجانب المسطح من النصل بضربات عدة، وعلى الرغم من أن الضربات قد آلمته إلا أنه ما زال صامدًا؛ ولم يسقط بعد.

أطلق الفارس صياحًا هادرًا وببطن قدمه ضرب أركام في صدره، كانت الضربة قوية جعلت أركام يهوي مطروحًا لمترين للوراء، وارتطم أرضًا ولم يتحرك وساد الصمت بين الحشد أجمع، وظل الجميع ينظر في ترقب، وظلت إلينورا تراقب الأمر في توتر، وبعد لحظات وقف أركام مجددًا، لم يكن يتصور أحد أنه سوف ينهض مرة أخرى بعد تلك الضربة التي تلقاها بخشونة وبقوة؛ كانت لتسقط أقوى الرجال!

خلع أركام خوذته وألقاها أرضًا، لحظات مرت التقط فيها أنفاسه واستجمع قواه وتركيزه مرة أخرى؛ وبعد لحظات اندفع نحو الفارس المدرع بخفة، وبضربات متتالية في يده أسقط من بين أنامله السيف، وبمعصم نصله ضرب الفارس في أنفه، فأدماه، وضربة أخرى بظهر نصله فوق خوذته سببت له تشتتًا وألمًا رهيبًا... حاول الفارس أن يستعيد تركيزه وبدأ يلوح بسيفه يمينًا وشمالًا بقوة غاشمة وبشكل عشوائي فج، ولكن كان أركام رشيقًا بما فيه الكفاية لتفادي الضربات الثقيلة، واستحالت المبارزة الودية لقتال حقيقي، وانطلقت من الحشد همهمات ورائحة قلق وخوف؛ ضربة واحدة من تلك الضربات الثقيلة من سيف الفارس كفيلة بأن تلقي الفتى إلى حتفه، وشعر إيڤار بقلق شديد على شقيقه، واندفع نحو قيّم السلاح «زارو» وأردف في قلق:

- زارو، عليك أن تلغي النزال فورًا!

كان الآخر يشعر بقلق دفين لم يبده لأحد، فقال:

- لا تقلق يا إيڤار، شقيقك فارس قوي، أثق أنه سوف يربح النزال!

- الفارس أخذ الأمر على عاتقه.

- كل الذين سيقاتلهم أركام لن يتهاونوا معه قيد أنملة، هذا اختبار حقيقي لقوته!

وعاد مترقبًا القتال بينهما، كان الفارس يأبى الهزيمة بأي ثمن كان، وساد صمت مترقب بين الحشد، انهمر العرق من كلا الفارسين كالشلال، وصوت صليل الصوارم لا يزال هادرًا بين مسامع الناس، ابتعد الفارس المدرع خطوتين للوراء ساحبًا إلى صدره

رطلًا من الهواء، وشعر بإنهاك رهيب، وبدوار، كان سيفه الثقيل سببًا في إرهاقه وكان أركام رشيقًا يتفادى بعض ضرباته ويصد البعض الآخر.

ولاحظ أركام إنهاك الفارس وإرهاقه الشديد، فاقتنص الفرصة واندفع مسرعًا نحوه كأسد منقض على فريسته، وبنصله ضرب الفارس على درعه ضربات متتالية وسريعة، فشل الفارس في صد ضربات أركام المتتالية السريعة، وبضربة أخيرة كانت في فخذه، وقع الفارس على ركبته وصرخ ألمًا، وبقبضته التي كانت أشد من الصلب ضرب الفارس في وجهه، وبعد لحظة هوى الفارس أرضًا مغشيًّا عليه، ولم ينهض مجددًا بعد ذلك.

وضع أركام سيفه في غمده واستحال الصمت لضجيج هائل، صاح الحشد مرددين اسم اللورد الصغير «أركام» في حماس لتغلبه على ذلك الفارس فحل القوى، وابتسمت إلينورا، يبدو أن الحكايات التي سمعتها عن اللورد الصغير لم تكن كذبة أبدًا، ثم انسحبت من الساحة الخلفية عائدة أدراجها للقلعة.

نشع أركام العرق من على جبينه والتقط أنفاسه، ثم خرج من حلبة القتال منتصرًا بين هتاف الواقفين، احتضنه زارو وقال بفخر:

- أحسنت يا فتى، كنت أثق أنك سوف تكون فارسًا لا يشق له غبار.

ابتسم أركام:

- شكرًا لك زارو.

واندفع نحوه إيڤار وتفحصه بعينيه، كان بخير إلا من كدمات أصابت وجهه ويده، فقال بقلق شديد:

- هل أنت بخير يا أركام؟

- نعم يا أخي، بخير، لا تقلق.

- سوف أستدعي الطبيب حالًا!

- لا، لا حاجة لذلك أبدًا.

كان إيڤار يشعر بقلق شديد على شقيقه، كانت الضربة التي تلقاها لتفقد أعتى الرجال توازنهم وقوتهم، ولكن شقيقه كان يقف أمامه شامخًا، بالرغم من أنه يعلم أنه يخفي ألمه؛ فليس معتادًا على الاعتراف بالألم مهما بلغ حجمه، فابتسم إيڤار وقال:

- حسنًا، هيا بنا للداخل، سوف نشرب نخب انتصارك، لقد كان نزالًا رائعًا، أحسنت.

وبادله الابتسامة: «شكرًا لك يا أخي، هيا بنا!».

فأردف مازحًا: «هيا فهناك الكثير من الفتيات في الداخل يهمسن باسم الكونت الصغير والوسيم أركام، ويتحرقن شوقًا ليرين ذلك الفارس الذي تغلب على رجل بضعف حجمه وقوته!».

أطلق أركام ضحكة وقال: «توقف عن هذا يا إيڤار، لا تبالغ».

وتابع إيڤار مزاحه: «لا أبالغ... أم إن اللورد الصغير أصبح أسيرًا الآن؟».

ضحك أركام وقال: «أسير؟! لا شيء يجعل الرجال أسرى».

- بل هناك.

- ماذا؟

- الحب... الحب يجعل حتى الملوك أسرى!

صمت أركام وتنهد وقال: «نعم، صدقت يا أخي الصغير».

وانسحب كلاهما للداخل، وشربوا أنخابًا كثيرة لا تحصى، كانت تلك الليلة التي قضوها معًا أكثر الليالي إمتاعًا في حياتهم، قبل ذلك لم يكن يوجد في القلعة الرمادية؛ إلا الجدران الرمادية.

كانت الكونتيسة إلينورا جالسة بجوار والدها، وكان أركام يجلس أمامها بجوار السيد والده وأخويه ووالدته، وظلوا يتبادلون نظرات لا تتنافر عندما تلتقي وبصمت لم يشقه كلمة بعد...

والآن لقد تأكد تأكدًا بلا ذرة من الشك؛ «لقد صار أسيرًا بجدارة!».

وقف «العقاب الملكي» في الصفوف الأولى من الجيش...

واصطبغت سماء الوادي بالوردي والذهبي وبزغت الشمس فوق جبال «غالكوم» وبدأ النور ينتشر في وادي «الضباب» وزحف الفجر واستحالت السماء السوداء إلى اللون النيلي الأزرق معلنة عن الغسق الهادئ، بينما تصاعد الضباب الأبيض الشاحب من غابة «الصقيع».

وتدفقت المياه من على منكب الجبل وتتدلى كالشريان إلى داخل الغابة، وأطلقوا على ذلك الينبوع اسم «الشريان»؛ وكان يرتوي منه الجنود ويروون أحصنتهم بعد كل معركة، ويعبر ينبوع «الشريان» إلى غابة «الصقيع»، ثم ينتهي متدفقًا إلى أراضي «ڤالكارد».

مندفعًا كان باسطًا جناحيه، بين الرماد واللهب كان يتقدم صفوف قواته بشجاعة ودون تردد أو خوف، رفرفت الرايات الملكية فوق رؤوسهم من الرياح المزمجرة كان الجو عاصفًا والرياح قوية وعاتية، تراصت صفوف قواته صفًّا بعد صف تحت راية واحدة، يرتدون زيًّا موحدًا ودروعًا موحدة؛ ذهبية مزينة بخطوط سوداء لامعة، خفقت معاطفهم مع الرياح العاتية ومن ورائهم تلوح جبال «غالكوم» الشاهقة والموشحة بالثلج الأبيض الناصع، ومن أمامهم كانت غابة «الصقيع»؛ تلك الغابة متشابكة الغصون، والتي لم يتجرأ أحد من الجيش الملكي على الدخول إليها؛ محفوفة بالظلام من كل الجوانب؛ بعد الغابة تمـتد أراضي «ڤالكارد» الحمراء التي تسكنها قبائل «الويكنيجر» السبع.

تساقط الثلج خفيفًا على نقابات الجنود وحلّقت مناقبهم السوداء ورفرفت من خلفهم في مهابة عظيمة، في مقدمة الصفوف وقف القائد «هيستوس»؛ الملقب بالـ «عقاب الملكي»؛ بين جنوده، وتدثر تحت درعه الضخمة ذات اللون الداكن، حملت درعه عند كتفه اليمنى رأسًا لطائر «العقاب» ذات لون ذهبي مصنوعة من الصلب، وفوق رأسه خوذته والتي بسط منها أجنحة لعقاب مصقولة باللون الأبيض الناصع؛ ولهذا أطلقوا عليه «العقّاب الملكي»؛ كان القائد هيستوس قائدًا لجيش أطلس لسنوات عديدة، عينه بعد حرب الإبادة مباشرة بالرغم من سنه الصغيرة، كان رجلًا شجاعًا ووفيًّا للمملكة وللملك، رجل قوي تملؤه هيبة كبيرة وقوة هائلة، كان القائد هيستوس شابًّا في منتصف عقده الثالث، خلع خوذته الحربية ذات الأجنحة فرفرف شعره الداكن الأسود الكستنائي مع الهواء، كان له لحية ثقيلة سوداء كقطعة من الليل، كان وسيمًا بقدر قوته ومهارته العسكرية التي ليس لها مثيل، هو المحارب الوحيد الذي قاد ذات القرون؛ بارِجة أطلس الملكية، في معركة «ڤالوس» البحرية.

اعتلى «العقّاب الملكي» جواده الحربي، وارتدى خوذته الذهبية ذات الأجنحة البيضاء المصقولة، وبجواره كان مساعده ونائبه في الحرب؛ «فيليوسس» ووقف أمام صفوف جنوده بشموخ وصاح:

- أيها الجنود، نحن بصدد معركة غاشمة مع قبائل الويكنيجر، معركة لا رحمة فيها ولا شفقة، إن تلك القبائل المتوحشة قد أغارت على القرى الفقيرة والضعفاء، إنهم متوحشون، برابرة، ولدوا من أرحام الشر، فلتخدم سيوفكم الحق والضعفاء.

وأخرج سيفه من غمده فأصدر صليلًا عاليًا ولمع نصله تحت شعاع الشمس الساقط، ثم صاح فيهم: «باسم الأسياد الأوائل وباسم الملك أطلس؛ استعدوا».

واعتدل بجواده ناحية غابة الصقيع، وتراصت دروعهم متجاورة بجانب بعضهم بعضًا، كان عددًا لا بأس به من الجنود لمواجهة قبائل الويكنيجر، لقد فقد الكثير من

الجنود الأوفياء المعركة الفائتة، وطلب من الملك تعزيزات، تلك القبائل تزداد قوة في كل مرة، وخاصة بعدما تجمعت قبائل الويكنيجر السبع تحت راية واحدة؛ لشخص يطلقون عليه فتاة الغابة «ميڤيا»؛ فتاة قوية تسكن غابة الصقيع، شبح، طيف لا يمكن رؤيته؛ كما سمع الحكايات!

لا أحد يعرف عن فتاة الغابة شيئًا، ولا أحد يعرف عرقها حتى؛ هل هي بشرية أم من عرق آخر، كل قبائل «الويكنيجر» يدلون لها بالاحترام الشديد ويتبعها كل محارب منهم بأعين مغمضة ونصل مشحوذ.

كانت هناك حركة غير مألوفة تصدر من غابة الصقيع؛ شعر بها الجنود، لم يكن إذعان الأغصان لحركة الرياح المألوف، بل شعروا وكأنها أذعنت لشيء آخر؛ شيء أكثر قوة وشراسة، وبدأت أوراق الشجر الصفراء تتساقط رويدًا رويدًا، واندفع من قلب الغابة زئير وعواء؛ يقترب في كل لحظة تمر.

ومن بين ظلام الغابة العاتي المحفوف بالضباب والدخان؛ خرج محاربو الويكنيجر، يرتدون على رؤوسهم جلد الذئاب والأسود والدببة، ومن بين صفوفهم الوافدة كانت تركض بجوارهم أسود بربرية، وذئاب متوحشة، ويمتطون فوق ظهور نمور عملاقة هائلة الحجم، نجحت قبائل الويكينجر بترويض حيوانات الطبيعة المفترسة لصالحها، فكان اندفاعهم وهجومهم مثيرًا للفزع، خفقت القلوب في صدور الفرسان في صفوف قوات القائد هيستوس.

فصاح فيهم بشجاعة: «اثبتوا واستلوا سيوفكم».

استل الجنود السيوف من أغمادها، وبعد لحظات أشار بيده لأعلى: «السهام».

فخرج صف من الرماة وأطلقوا وابلًا مشتعًلا من السهام نحو القبائل المندفعة، وانطلقت السهام وأنارت غسق السماء كأنها شهب ساقطة، لم يكن لقبائل الويكنيجار تكتيك ولا استراتيجية، كانت حروبهم عشوائية جدًّا، فأصابت السهام الكثير منهم، وسقطوا صرعى، ولكنهم لم يتراجعوا قيد أنملة، واندفعوا في هجوم غاشم.

وتخبط الجيشان ببعضهما بعضًا، وأعطى القائد هيستوس أمرًا بالهجوم، ركضت الذئاب والأسود وانقضت على الجنود ممزقين رؤوسهم وأحشاءهم ولحومهم الطرية بين أنيابها الحادة كنصل سيف أو أشد حدة، ولكن لم يعبأ القائد هيستوس، وانطلق فوق جواده بسيفه الكبير، كان شجاعًا وماهرًا في استخدام السيوف، لوح بسيفه من فوق جواده مخترقًا صفوفهم العشوائية، ولم يكن موضع في نصله إلا وتخضب بدماء أعدائه، وتحفز أحد محاربي الويكنجر ورفع حربة، صوبها نحوه ثم أطلقها بسلاسة

في الهواء، تفاداها العقّاب الملكي بصعوبة بالغة ولكن أسقطته أرضًا من فوق جواده بخشونة.

وبسرعة انتصب واقفًا، اندفع نحوه رجلان يرتدي أحدهما فوق رأسه جلد ذئب والآخر يعتلي رأسه فك لدب بني اللون ممسك ببلطة ذات طرف مدبب، اندفعا نحوه بقوة، صد بسيفه الكبير ضرباتهما ضربة تلو الأخرى، وفي لحظة أغمد السيف في حلق أحدهما، فانهالت الدماء الحمراء واستحال الثلج الأبيض تحت أقدامه للون الأحمر الدموي، وبخفة ضرب الآخر بالسيف فشق بطنه، وانهالت أمعاؤه من بين يديه أرضًا.

كان يتصدى لهجماتهم بشجاعة كبيرة ومهارة أكبر؛ لم تكن في معظم جنوده على الأرجح، وبعد ساعة من الموت والحرب، حمي وطيس المعركة واشتعل؛ وتدفقت القوات من غابة الصقيع كالضباب بلا نهاية.

وفي خضم المعركة انقض عليه أسد بربري هائل الحجم، له لغد كبير متدلٍّ، وأنياب عملاقة قد كشر عنها محاولًا تمزيق رقبته، أمسك هيستوس بقبضتيه فك الأسد؛ قبضة في فكه العلوي وقبضته الأخرى في فكه السفلي؛ في محاولة مستميتة لكسر فك الأسد بكلتا قبضتيه، ولكن جل محاولته باءت بالفشل؛ كان فك الأسد صلبًا كالفولاذ أو أشد صلابة من ذلك.

كان الأسد يعتليه كأنه فريسته، وحاول أن يبعد الأسد من فوقه، وبكامل قوته ضرب الأسد ضربات عدة في وجهه، فتشتتت أوصاله وجوارحه وزأر في ألم مبتعدًا خطوتين للوراء، وبسرعة بالغة وقف وتناول سيفه الملقى بجواره، رمقه الأسد بعينيه المتوهجتين للحظات وكشف عن أنيابه قبل أن ينقض عليه مجددًا، ولكن كان النصل حادًّا بما فيه الكفاية ليخترق أضلاعه البربرية القاسية مهشمًـا عظام صدره التي كانت كالصلب، قاسمًا قلبه إلى نصفين، أطلق الأسد زئيرًا هادرًا خفت حتى أصبح جثة هامدة.

بعد ساعة من القتال الغاشم تحولت الأرض من تحت أقدامه لبرك من الدماء، كان مخضبًا بدماء أعدائه من رأسه إلى أخمص قدميه، أصبح عدد جنوده قليلًا، فر بعضهم وقتل البعض الآخر، ولا يزال يتدفق رجال وذئاب وأسود من غابة الصقيع بلا انتهاء.

ليس من شيم المحاربين الاستسلام، لن يستسلم أبدًا، حتى وإن قتل في تلك المعركة، كان نصله لا يكاد يمر لحظة حتى يغمد في حلق أحدهم أو في أمعاء آخر، محارب عظيم كالقائد هيستوس بالتأكيد لن يهزم بسهولة، وأعطى أمرًا لما تبقى من الكتيبة بالتكاتف معًا وإنشاء خط دفاعي، ثم الانسحاب بعد ذلك رويدًا رويدًا حتى وصول التعزيزات والعودة مجددًا.

بدأت الكتيبة بتنفيذ أوامره، ووقف لصد الهجوم وحيدًا بينهم؛ مانحًا لهم الوقت الكافي ليتكاتفوا، تكاثر عليه رجال الويكيجر، واحد ثم اثنان ثم كانت مجموعة حوله، وفي لحظة ضرب فوق رأسه بقوة؛ ببلطة ربما، وجاءت الضربة من وراء ظهره.

كانت الضربة التي تلقاها قوية جدًّا وشعر بدوار شديد بالرغم من ارتدائه لخوذته المصقولة بالصلب، وسقط على ركبتيه أرضًا.

مشوشًا كان، وانسالت الدماء من رأسه غزيرة لا تتوقف، حاول التغلب على هذا الشعور واستجماع تركيزه، ثم النهوض مجددًا... ولكن الضربة الثانية كانت أشد قوة وأكثر صلابة... فقد وعيه وارتطم أرضًا، ولم يشعر بأي شيء بعدها!

الستريجا: هي كلمة إيطالية تعني الساحر، واستخدمها الكاتب للتعبير عن مدلول معين.

الإلف: هو كائن من الميثولوجيا النوردية والجرمانية، وهو عرق من الجن يشبه البشر ويحمل آذانًا طويلة.

النعيق الخامس

«اللفائف العتيقة»

5

أحيانًا تقول العين ما لم ينطق به اللسان بعد...

وهكذا ظلا يتبادلان النظرات، كانت أعينهما تمتلئ بالكثير من الكلمات، مرت عليهما لحظات ثقيلة كالجبال، ومن دون شعور أحد انسحب كلاهما من قاعة الوليمة؛ مبتعدَين عن جلبة الضحكات والأطباق والمعالق والنكات، ونشدا مكانًا هادئًا حيث يمكن للكلمات أن تسمع فيه، ما سوف يقال سيكون بينهما سرًّا دفينًا يجب ألا يسمعه أحد أبدًا، كانت قاعة الاستقبال هادئة بما فيه الكفاية ليتحدثا، كان الصمت يلفح كليهما في البداية؛ ولم يجد الكلام موضعه بعد.

اعتاد داريوس أن يكون قويًّا... لكنه الآن هش، يشعر بهذا!

كورقة شجر شديدة الهشاشة سوف تطير إلى القبر مع أول هبوب لريح مزمهرة، يشعر بخلل عظيم يتخلله، كما يشعر بحيرة ورعب دفين داخل روحه، وفزع أشد وطأة من الموت... تأتيه الرؤى من الماضي، رؤى ليست حسنة، ود لو نسيها ونسي معها كل شيء عن تلك الليلة المشؤومة، لا يكاد يفارق أذنيه صوت نعيق الغربان في تلك الليلة؛ ولا تزال تلك السمفونية عالقة في أذنيه وروحه، كما علقت في أذنه أصوات الرجاء طالبة الرحمة والعفو من الملك في ذلك اليوم.

طقطق لهب المشعل وهبت الريح من النافذة محركة اللهب البرتقالي المؤجج في أتنه، والشموع المعلقة على الطاولة والحوائط؛ وتمايل الضوء على وجه كليهما، وصب الكونت داريوس كأسين من النبيذ وقدم إحداهما لضيفه، ثم نطق اللورد إيرجون:

- لم أكن لأصدق الرسالة التي أرسلتها لي، وكنت سأتهم من أرسلها بالجنون لولا أن تلك الرسالة تحمل توقيعك أنت!

- أعذرك، فأنا أيضًا لا أصدق ما حدث حتى الآن، أرسلت لك الرسالة لأنني لا أدرك ماذا أفعل، مشتت، لم أكن في حياتي كاليوم، الرجل يبقى رجلًا بعد كل شيء ويجب أن يأخذ قرارًا، أكان صائبًا أم لا!

- وما هو قرارك إذن؟

- لم أحزم أمري بعد، لكن في روحي شيء يحدثني للعودة إلى أطلس.

- لقد جن أطلس بموت شقيقته يا داريوس؛ فلتلعنها الآلهة في الجحائم!

- إيڤيدوكيا لم تكن سوى ضحية لملكين؛ كلاهما يحمل من العنجهية والكبرياء ما يكفي ليشتعل العالم لهبًا ويصير رمادًا!

- إيڤيدوكيا أحبت إلكادور!

قال داريوس بانفعال:

- والحب ليس بجريمة يا إيرجون!

- أحيانًا يا صديقي يكون الحب هو أسوأ جريمة يمكنك ارتكابها!

- ما حدث ليس ذنب إيڤيدوكيا.

قال إيرجون:

- ذنب من إذن؟

- في الحرب، الذنب يحمله الجميع!

- لقد انتصرنا في الحرب.

- وكان هذا أكثر انتصار حزين قد رأيته قط.

- كيف يكون الانتصار حزينًا بحق الآلهة؟

ضحك داريوس على غير العادة وقال: الآلهة!

ثم أكمل بجدية بالغة: «دعني أحدثك عن الآلهة يا إيرجون، في ذلك اليوم يا صديقي كانت معركة حامية، كانت المرة الأولى التي أرى فيها عرق الأشاوس وجهًا لوجه، يشبهوننا كثيرًا في الهيئة، ولكن أرواحهم مختلفة تمامًا، كانوا يمتطون فوق ظهور مخلوقاتهم المقدسة؛ الجريفن، وهناك منهم من تحول لذئاب رهيبة وأسود، وتنانين، رأيت في تلك المعركة ما لم أره في حياتي كلها قط، رأيت فردًا من الأشاوس يشق بنصله حناجر عشرة من العمالقة بمفرده، واحدًا تلو الآخر... وبعد كل هذا أعطتنا الآلهة الانتصار أخيرًا».

ثم استطرد وعلى وجهه ابتسامة تملؤها السخرية:

- «ولكن كان انتصارًا فارغًا للغاية، خاليًا من أي معنى، وكأن الآلهة كانت تسخر منا، إلكادور اختفى، وإيڤيدوكيا... ماتت!».

ثم شرب من كأس نبيذه واستطرد بحزن شاخصة عيناه في الفراغ:

- ولم يبق شيء سوى أشباح القتلى، وجلد الذات والضمير!

- إنها الحرب، كان علينا خوضها بعد كل شيء.

- نعم، الحرب... والحرب لا تنتهي أبدًا.

ثم تلفت داريوس وتأكد أن باب القاعة مغلقًا بإحكام، وبعد مرور لحظة أخرج الرسالة الملكية وسلمها إلى الكونت إيرجون، دفع بها داريوس أمامه على الطاولة، وأردف:

- انظر، إنها الحرب أيضًا، ولكن من نوع آخر!

وتناولها إيرجون غير مصدقة عيناه ولا جوارحه، فتحها وقفزت عيناه على الكلمات والحروف:

- «باسم الأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء العظيم، وباسم الملكوت الذي شيدته طوال هذه السنين، أنا الملك «أطلس» ابن الملك «أماناديل» ملك البشر وملك إيڤيريا بأقاليمها الأربعة، سليل العائلة الملكية والسيادة الأولى للبشر، أحدثك يا داريوس يا صديقي القديم، أيقنت دومًا أنك رجل صدق وأمانة ولهذا أحتاجك بجواري في تلك السويعات، إن الأمر يتكرر مجددًا ولا أستطيع الهروب منه، منذ ما يزيد على عشرة أعوام، يملؤني الخوف والرعب والفزع؛ إن «هيميريا» زوجتي حبلى منذ ما يزيد عن ثمـانية أشهر، وأشك أن المولود في أحشائها ذكر، إنه الظلام، إنه قادم بلا عنان، تغني الغربان في أحلامي أغنية عن طعم الرماد، وتطاردني الكوابيس كمن يركض بغير حراك، في كابوسي أرى الكثير من الغربان، تتغنى الغربان باسمي في سمفونية لم أر لها مثيلًا، أركض في غابة الظلام ثم أسقط أرضًا، ضعيفًا، مذلولًا، أستمع لكلمات الرجاء التي تنبعث من ثنايا الظلام، أعرف أصواتهم جميعهم بحق الجحائم والأسياد؛ يتوسلون إلي لأرحمهم، ثم تنهش أسراب الغربان في رأسي بلا مقاومة مني، أستيقظ كل يوم فزعًا، ويتكرر الأمر في اليوم التالي في سرمدية يملؤها الجفاء والفتور، إنها اللعنة يا داريوس، تسكن عقلي وصدري يا صديقي القديم، وليس خطابي لك خطاب الملك لساعده السابق، بل إلى صديق مقرب وأخ وفيّ، أترجاك يا داريوس عد... عد يا صديقي القديم فأنا في أمس الحاجة إليك، إلى رجل صادق وصديق حقيقي يقف بجواري لمواجهة كل هذا الظلام، ولعلك لم تنس الكلمات الموعودة كما لم تغادر عقلي قط:

«من بين الدماء النقية سوف يـحلق، ينكل بالعرش والأصفاد، في يوم مظلم ما، يرتقي القمر الأحمر وستذبل أزهار الأقحوان، وسيعزف لحن الرثاء على الحياة، وتهبط الغربان من كل مكان، تنعق بسمفونية جدباء، لا مرقص فيها ولا غناء، ويبلغ عواء

الذئاب حد السماء، ولا تحاول أن تنطق بكلمات الرجاء، فالسمفونية ليس بها إلا الرثاء، ومن اللهب والرماد سيحل الفناء».

عندما انتهى من قراءة الرسالة اعتلت على وجهه نظرة من الذهول؛ محملقًا في الورقة يتأمل كل ركن فيها وكل حرف وكل كلمة بتأن وهدوء، مرارًا وتكرارًا؛ بلا كلل، تصبب جسده عرقًا من كل مكان، ابتلع ريقه ووضع رسالة أطلس على الطاولة ثم قال:

- هذا مستحيل، فلترحمنا الآلهة.

تجرع من كأسه واستطرد بعصبية:

- هميريا حبلى يا داريوس، ما حدث منذ عشر سنوات يتكرر مجددًا بحق الجحائم!

قال داريوس:

- يقول في رسالته إن المولود ذكر، وتطارده الغربان في أحلامه!

- هل عرف أحد سر واقعة «سرب الغربان» بعد؟

- لا، ليس بعد، ولن يعرفها أحد الآن، كنت أفكر أن أخبر أركام بالحقيقة، ولكن الفتى لا يزال صغيرًا على كل هذا، وغير مستعد ليعرف الحقيقة كاملة!

- من الأفضل أن يذهب السر معنا إلى القبر يا داريوس!

- السر مفشًى لا محالة، ولكن يجب أن يحدث هذا في الوقت المناسب فحسب!

تناول إيرجون كأسه، ثم سأل:

- وما الذي تنوي فعله؟

- لم أحزم أمري بعد.

قال إيرجون بقلق:

- سفرك إلى العاصمة سيكون أمرًا خطيرًا عليك وعلى عائلتك يا داريوس!

- إذا كان المولود في أحشاء الملكة ذكرًا، فيجب أن أكون موجودًا هناك لا محالة يا صديقي، يجب على أحد ما أن يكبح جموح أطلس وجنونه.

- منذ عشر سنوات عندما حاولت كبح جنونه نفاك، لقد اختلف أطلس بعد الإبادة يا داريوس، لم يعد أطلس الذي نعرفه بعد الآن!

ثم سكت قليلًا متذكرًا شيئًا ما: «عندما نفاك أطلس، عقد اجتماعًا ملكيًّا ليتم اختيار يد الملك الجديد، رفض جميع أسياد الأقاليم الأربعة الأمر، وقررنا جميعنًا أن نحل المجلس المصغر من العاصمة، وعيّن أطلس ساعدًا جديدًا له، على ما سمعت اسمه؛ ألكيدس!».

- نعم، أعرف الرجل، تقابلنا عدة مرات.

- ولكن صدقني أطلس لا يحتاج ألفًا من ألكيدس، يحتاجك أنت فقط.

- ولهذا علي العودة يا إيرجون، أنا فقط من بإمكاني أن أوقف هذا الجنون!

- أعلم أنه لا يمكن لأحد أن يوقفك عن تنفيذ قرارك، ولكن أناشدك قبل أن تسافر أن تقرأ «اللفائف العتيقة» لصاحب المعرفة الأول؛ «هاين الثاني»، وأعلم جيدًا أنك سوف تجد ضالتك فيها، ما وجدته كان عجيبًا لم يصدقه عقلي حتى الآن، وسأترك لك الأمر لتكتشفه بمفردك!

وسكت الكلام، وصمتا، ونظر اللورد إيرجون لداريوس بصمت يحمل الكلمات، كان اللورد إيرجون يعرف داريوس جيدًا، رجل أمانة وشرف، ولن يترك أطلس يواجه هذا وحيدًا، بالرغم من الذي حدث آنفًا من زمن بعيد، أطلس رجل يملؤه الكبرياء وجنون العظمة، ولكنه كان يحب داريوس كأخ له أو أكثر من هذا؛ كأنهم يحملون بين عروقهم دماء واحدة، وكأن الآلهة شطرت قلبًا واحدًا في رجلين، والقلب متقلب في النهاية!

ولهذا لا محالة داريوس سوف يعود إلى العاصمة... حتى وإن كان الأمر خَطِرًا، وسيودي بحياته إلى الهلاك المحتم، وببالغ الأسف ضميره وشرفه يمنعانه أن يغض الطرف عن العودة، ولكنه يأمل أن يجد صديقه القديم، وليس هذا المتعجرف المتلئ بالجنون.

علي كل حال كان أطلس نائمـًا...

على الرغم من شعوره بالإرهاق كان نائمًـا نومًا عميقًا...

لا بد أن النوم كان يشعره بالارتياح، ولكنه لم يكن مرتاحًا أبدًا، بل كان أبعد ما يكون عن الراحة، كان متعرقًا يلهث كغزال وقع فريسة بين مخالب أسد ضاري الأنياب، قلبه الخافق في صدره يكاد ينفجر... قريبًا سوف يستيقظ، هو يدرك هذا جيدًا، على الرغم من أنه لم يعد يعرف الفرق بين الحقيقة والخيال، وبين الحلم والواقع، لم يعد في أحلامه خيال... ولا في حقيقته واقع، اختلط واقعه بأحلامه،

وحقيقته بخياله، ولم يعد يدرك فرقًا بينها بعد الآن؛ كلاهما يحمل طابعًا مشوهًا يكاد يفتك بكل ما تبقى من عقله، وبكل ما تبقى من روحه؛ تلك التي لم تكن سوى بقايا، بقايا روح هالكة لم تعد تعرف طريقًا للخلاص أبدًا، زعزعة رياح واحدة... وستكون روحه هباء منثورًا، جملة في فعل ماض ليس لها أي فائدة.

فتح جفناه لاهثًا إلى صدره رطلًا من الهواء، متعرقة كانت أوصاله، تملؤه أمارات الإرهاق والفزع، استيقظ مفزوعًا وانتصب مترنحًا في كل اتجاه؛ بالكاد توازنت قدماه وعقله، ما رآه في الملكوت كان رهيبًا... فكرة لا تكاد تحتمل!

عقله البشري لا يكاد يتحملها، تزحزحت قدماه على الأرض بثقل شديد، كأنه يحمل فوق كتفيه طنًّا من اليأس وطنًّا آخر من الفزع، وصوت الغربان لا يكاد يفارق أذنيه.

نعيق! نعيق!

يسمعه من كل اتجاه! متهدجة أنفاسه، أوصاله تتصبب عرقًا كفيضان، داخل رأسه يسكن غراب أسود ينخر في عقله، ويصيبه بصداع لا أمل في رحيله.

جلس على عرشه وطلب كأسًا من النبيذ لعل الطنين في رأسه يهدأ... ثم أشار لفرقة الأوركسترا أن تعزف له سمفونية هادئة... لعل الغربان التي في عقله تكف عن النعيق، عزفت موسيقى هادئة وحزينة، وبعد لحظات دخلت هيميريا إلى قاعة العرش، ورمقت أطلس؛ لم ترَ هيميريا أطلس قط على هذه الحالة المرعبة والميؤوس منها حتى في وطيس الحرب المشتعلة لم يكن بتلك الحال المزرية البتة.

جالسًا كان على عرشه هائمًا في الفضاء محملقًا في اللاشيء... يبدو أنه يفكر في شيء ما، شيء أسوأ من الحرب على الأرجح -وتساءلت- ما هو الشيء الأسوأ من الحرب؟

سألت ولم تجد جوابًا!

وضعت يدها على وجنته بحنان؛ كان يبدو مرهقًا إلى حد كبير؛ وجهه شاحب، ينشع عرقًا باردًا، ملامحه ذابلة كأنه لم يذق طعم النوم منذ ألف عام، وسألته بحنان:

- ماذا بك يا أطلس؟

في عينيه كانت المأساة، عميقة كانت مأساته بلا أدنى شك...

ولكن هل تغير المأساة قلوب الرجال؟

إنه يبكي في الليل، لقد سمعته، ولكنه كان يحافظ على مظهر الصلابة والقسوة، ولكن في الحقيقة، لقد أفقدته الغربان صوابه؛ وعلى الرغم من كل هذا رأت في عينيه دموعًا حبيسة يكبح لجامها جواد الكبرياء الذي يصعب ترويضه، ونظرت إلى عينيه

الذابلتين، عيناه لم تكن عين الرجل الذي عرفته منذ سنين، هذا لم يكن أطلس، أطلس لم يكن ليبكي، كان شجاعًا، لا يهزمه شيء قط... خاض المعارك والحروب وقاد الأساطيل والجيوش ولم تهزم روحه بعد كل الذي مر به.

تساءلت: فمـا الذي يهزم روح الرجال والملوك؟

لا يهزم المرء إلا من نفسه أحيانًا، من ذكرياته، من قلبه وروحه!

وهكذا كانت الإجابة مقنعة لها تمامًا.

على الرغم من كل الذي حدث لا تزال تحبه، حبًّا صادقًا لا رياء فيه، ولكن لا يرهق القلب والروح حقًّا إلا حب صادق يسري بين العروق، امتلأت عيناها بالدموع على حالته التي يرثي لها، ثم نظر لها أطلس وأردف:

- في رأسي تعشش الغربان يا هيميريا، تنعق، تحلق... تغني!

شخص أطلس في تمثال إيڤيدوكيا للحظات وقال:

- في كل ليلة تأتيني إيڤيدوكيا، وتظل تنظر إلي صامتة لا تتحدث، نظراتها تمتلئ باللوم وكأنها تقول لي: «فليحترق قلبك رمادًا؛ كما أحرقت قلبي»... كانت تحبه يا هيميريا، كانت واقعة في غرامه، ولكني لم يكن لدي خيار، إنها القوانين!

قالت هيميريا باكيةً:

- إيڤيدوكيا ماتت يا أطلس!

صرخ أطلس بصوت جلجل أركان القاعة: «لا!».

قفز قلبها ورجعت خطوتين للوراء خوفًا من زئير أطلس، ثم هدأت نبراته وقال بهذيان:

- إيڤيدوكيا لم تمت بعد، إنها تعيش بداخلي، تحدثني، تأتيني في الليل عندما أغمض عيني، تضمني إلى صدرها... إيڤيدوكيا لم تمت يا هيميريا!

بكت وانهمرت الدموع من عينيها ساخنة على وجنتها، واقتربت منه وضمته إلى صدرها، كان يحتاج إلى عناق طويل يخفف عنه وطأة كوابيسه العاتية، وقالت:

- اهدأ يا أطلس!

أردف بعد لحظات وفي نبراته اليأس:

- يملؤني الخوف والفزع يا هيميريا!

- لماذا؟

فقد السيطرة على نفسه، وانهمرت دموعه ساخنة على وجنته كشهب ساقطة، وصرخ:

- أخشى أن أفقد ابنًا آخر!

ثم استطرد بعدما وضع يده على بطنها:

- أنت حبلى يا هيميريا، في أحشائك ذكر، وقلبي لن يتحمل فراقًا آخر.

مسحت دموعها المتدلية ثم قالت:

- داريوس لم يرسل إليك أي رسائل؟

- لا، ليس بعد يا هيميريا!

وبعد لحظات دخل الحاجب وقطع ساحة العرش بخطوات سريعة، ثم انحنى للملك قاطعًا حديثهما:

- أعتذر يا مولاي عن المقاطعة، لكن ألكيدس في الخارج ويستأذن للدخول ويقول لجنابك إن الأمر لا يحتمل التأخير!

هدأ قليلًا، ثم مسح دموعه الساقطة من عينيه، واستعاد لجام نفسه ومشاعره، وقال:

- دعه يدخل!

ثم استطرد لهيميريا: «اذهبي الآن يا هيميريا».

انسحبت هيميريا من قاعة العرش، ودخل ألكيدس، انحنى للملك ثم قال:

- فليحيا مولاي الملك؛ أطلس.

- تحدث يا ألكيدس.

- الغريب هو رجل من الأشاوس يا مولاي، لقد تأكدت من هذا بنفسي.

حاز ألكيدس انتباه الملك، ثم طفق أطلس يسأل:

- كيف تأكدت من هذا؟

- شيء لن تصدقه إلا إن رأيته بعينيك يا مولاي!

- هل تناول الستريــجا؟

حملق ألكيدس في وجه الملك للحظة، ثم أردف في تعجب:

- أتعرف عن أمر الستريــجا؟

وقف أطلس من على عرشه واقترب من ألكيدس وأردف:

- لقد حاربت بجانبهم في معركة «الأغصان الحزينة»!

- وهل رأيت مخلوقاتهم المقدسة؟

- نعم؛ الجريفن، كائن يمتلئ بالهيبة والقوة والعظمة، لم أر كائنًا في جموحه!

- كم أتحرق شوقًا لأرى واحدًا!

- مات آخر ما تبقى منها في المعركة.

- هذا أمر مؤسف.

- نعم!

ثم جلس على عرشة مجددًا وأردف:

- والآن، أحضر الغريب إلى هنا ألكيدس، في أسرع وقت.

- أمرك يا مولاي.

ثم استطرد في تردد: «ولكن قبل أمر الأشاوس... هناك أمر طارئ!».

- ماذا هناك؟ تحدث!

صمت قليلًا في تردد، ثم أردف:

- لقد تم أسر «العقّاب الملكي»؛ القائد هيستوس من عشائر الويكنجر.

اعتلت على وجه الملك نظرة متجهمة وقال بكلمات غاضبة اندفعت من تحت الضروس:

- ما الذي تقوله؟ كيف؟

- لقد أصيب في المعركة، أرسل لي مساعده «فيليوسس» خطابًا بعد المعركة الأخيرة.

- ماذا يقول فيه؟

- يقول إنه جمع الكتائب المتبقية وتمركز في «وادي الضباب» وأنشأ معسكرًا هناك، منتظرًا الإمدادات العسكرية.

- أرسل له الإمدادات التي يطلبها في أسرع وقت، وأرسل له خطابًا باسمي، أخبره فيه بأن يستعد للمفاوضة مع أمير القبائل في سبيل تحرير القائد هيستوس من أسره بأي ثمن كان!

قال ألكيدس: «أمرك يا مولاي» .

ثم بعد ذلك انحنى وغادر منسحبًا من قاعة العرش؛ سوف يرسل خطابًا رسميًّا باسم الملك إلى «فليوسس» مساعد القائد هيستوس، ثم يكون اللقاء بين الملك وآجينار حتميًّا بلا أي احتمالات أخرى ولا تأخير.

في اليوم التالي بعد الوليمة...

هبط القمر وزحف الفجر على الحقول والغابات وأشرقت الشمس فوق سحب ملبدة في كبد السماء، وتساقط مطر خفيف مع رياح باردة، ليلة أمس كانت الفوضى عارمة؛ ضاربة أطنابها في القلعة وفي عقول الرجال كذلك، كان يومًا ممتلئًا بالبهجة والضحك والموسيقى والأغاني والمبارزات والرقص وشرب النبيذ بالتأكيد، لا يأتي يوم كهذا في «إقليم الأسياد» إلا كل ألف عام، في الصباح كان الجو باردًا، ولم يكن أركام معتادًا على شرب النبيذ ولهذا شعر بصداع من بقايا كحول لا يزال يسري في عروقه من ليلة أمس الغاشمة، فقرر أن يذهب لنزهة فوق حصانه لأعلى التل ليستنشق بعض الهواء، أو ربما جولة في «غابة الغربان» ستكون كافية لتغيير مزاجه المتعكر.

ووقف عند إسطبل الخيول، جهز جواده «ليل»؛ حصل أركام عليه منذ كان طفلًا، وكان الجواد لا يزال مهرًا صغيرًا عندما اشتراه له السيد والده من جزيرة «ثينيا»، وكبرا معًا، وأطلق عليه اسم «ليل» للونه الأسود اللامع والحالك كالليل، وكان له غرة بيضاء ناصعة في مقدمة رأسه مما زاد من بهائه وجماله اللافت، شد أركام السرج على ظهر حصانه وثبته، وقبل أن يثب ليعتلي صهوته سمع صوتًا من ورائه يحدثه:

- جواد رائع!

التفت أركام لمصدر الصوت، فوجد الكونتيسة «إلينورا» واقفة بشعرها الأصهب الملتهب كالنار المتأججة في أتونها، شعر بالدفء بالرغم من البرد القارس، وشعر بارتباك شديد أيضًا... كيف لفارس مغوار مثله أن يرتبك أمام فتاة؟

وابتلع ريقه، واستجمع شجاعته، وشد حصانه من لجامه واقترب منها، ثم أردف بابتسامة:

- أعرفك بــجوادي؛ «ليل».

ملّست على شعره الأسود الحالك والذي انساب من بين يديها كالحرير، ثم قالت:

- يبدو جوادًا أصيلًا.

- نعم، إنه آخر سلالة نقية من «نلكيم»[9].

- نلكيم؟ هل خرجت من إيڤيريا من قبل قط؟

- نعم، هناك في «ثينيا» أقصى الشرق، حيث تتجمع أعراق الممالك التسعة للتجارة في كل شيء، الخيول، والمحاصيل، وربما العبيد، والسيوف وأعمال الحدادة أيضًا!

ثم قالت: «بالمناسبة، كان نزالًا رائعًا ليلة أمس، لورد أركام».

- شكرًا لك كونتيسة إلينورا.

- كنت بارعًا وهزمت الفارس شر هزيمة!

- كان الفارس قويًّا في النهاية وخصمًا شريفًا.

- لو أتيحت له الفرصة لقتلك لفعلها بلا أدنى تردد، عن أي شرف تتحدث؟ ولحسن الحظ أنك كنت بارعًا كفاية ولقنته درسًا قاسيًا ليلة أمس، لقد سمعت الكثير عنك، إنك فارس شجاع، شريف كما سمعت، مثل السيد والدك.

ارتبك أركام ثم قال: «الشرف والشجاعة هي صفات يتسم بها أي فارس نبيل!».

- لا تكن ساذجًا أيها اللورد، النبل والشرف هي صفات نادرًا ما تجدها في الرجال، حتى بين الملوك.

- نعم، لعل ما تقولينه صحيح.

ثم ابتسمت وقالت:

- ما شاهدته البارحة كان مذهلًا، لم أر فارسًا في براعتك!

- شكرًا لك.

- أنا أتحداك!

كان الأمر مباغتًا له، نظر لها للحظات بصمت قبل أن يقول:

- ماذا؟

- أتحداك في مبارزة بالسيف أيها الكونت الصغير.

ابتسم ثم قال:

- هل تعرفين أي شيء عن القتال بالسيف أصلًا؟

وابتسمت ونظرت في عينيه بتحد ثم قالت:

- لا تقلق، سأتهاون معك قليلًا!

دائمًا ما كانت جامحة لا يكبحها قيد، وهذا ما أحبه فيها، كانت مختلفة عن البقية، فرس أصيل بين مجموعة من الأفراس الهجينة، وقبل تحديها، ووقفا الاثنان في حلبة القتال، وفي الأعلى كان الكونت داريوس يراقب القتال من وراء نافذته العالية في القلعة.

وبدأت المبارزة بينهما...

سحب كلاهما الصوارم من أغمادها، كان سيفها صغيرًا جدًّا بالمقارنة مع سيف أركام العملاق، ونظر في عينيها فوجدها تنظر له بتحد متأهبة للهجوم، وتأهب هو للدفاع؛ اندفعت نحوه بخفة وتحمل بين أناملها سيفها الصغير المدبب، استطاع «أركام» أن يتفادى ضرباتها السريعة المتتالية بسيفها الصغير، كان يتهاون معها ولم يسدد لها ضربة واحدة، تصببت الكونتيسة عرقًا من جبينها وشعرت بالإرهاق بعد دقائق معدودة من النزال، وفي لحظة سدد أركام لها ضربة دفاعية قوية أطاحت من يديها السيف، ورفع النصل في وجهها وعلى وجهه ابتسامة النصر، وبعدها أدخل سيفه إلى غمده مجددًا، ثم نظر لها وأردف:

- أنت بارعة أيتها الكونتيسة، لكن ينقصك القوة، وسيف أكبر من هذا لتفوزي في مبارزة!

مسحت العرق المتصبب وقالت:

- هذا السيف كان تذكارًا؛ لأمي قبل موتها!

صمت أركام، ثم عاد يقول معتذرًا:

- أنا أعتذر... فلترحمها الآلهة!

قالت بعدما وضعت سيفها في غمده: «عندما كنت صغيرة، كنت أراقب الفرسان في حلبات القتال بشغف مترقبة، أحببت المبارزة والسيوف، وطلبت من والدي سيفًا للنزال

الحر، لكنه رفض آنذاك، فظللت طوال الليل أبكي، وفي اليوم التالي أمرت أمي الحداد أن يصنع لي هذا السيف خصيصى، كنت صغيرة حينها وكان السيف مناسبًا».

نبراتها كانت تحمل شيئًا من الحزن الخفي، صمت قليلًا، ثم نظر لها وقال:

- أما الآن فأصبحت كبيرة كفاية لتحملي سيفًا حقيقيًّا، دعي هذا الأمر لي!

قالت بسرور:

- حقًّا؟

- نعم، بالتأكيد!

ابتسمت وقالت: «لكن لا تدع أبي يعرف شيئًا عن هذا الأمر، اتفقنا؟!».

- اتفقنا، لا تقلقي، سيظل الأمر سرًّا بيننا.

وغادرت الحلبة، لكنها لم تغادر روحه قط، كيف للربيع الصافي أن يأسر الشتاء الغاشم في زجاجة؟! ووجد الإجابة عندما وجد نفسه أسيرًا بالفعل... وظل يرمقها حتى دلفت إلى القلعة، ووثب فوق جواده بمهارة قبل أن يشد على لجامه وينطلق سريعًا إلى الغابة.

حمل مشعلًا ونزل سلالم السرداب الحجرية بحذر شديد خشية أن يتعثر في هذا الظلام الدامس، كان لا بد أن يبدد تلك العتمة الموحشة بطريقة ما؛ في نهاية السرداب انتصب باب خشبي مغلق وعلى جانبيه أتن مطفأة منذ وقت طويل جدًّا، اقترب منها وقرب إليها شعلة النار؛ فتبددت ظلمة السرداب عندما انبعث الضوء هادرًا في قلب الظلام، ثم من بعد ذلك أخرج مفتاحًا وفتح الباب على مصراعيه، كان المكان مكتومًا والهواء ثقيلًا يمتلئ بالغبار، لا بد أن المكان لم يزره أحد منذ فترة طويلة جدًّا.

كان الظلام دامسًا ولم ير شيئًا داخل الغرفة قط، وتعبّق المكان بضباب خفيف وضوء خافت تسرب من النوافذ العالية، وحجب من الغبار العاتي الذي اخترق أنفه بلا استئذان، اقترب بحذر وأشعل بقايا الشمع الجاف المتروك منذ فترة طويلة على المنضدة وعلى الرفوف، وانعكس الضوء ليضيء المكان ويكشف عن الرفوف الشاهقة التي بدت كأنها معلقة في أعلى السماء، وفي قلب الرفوف أكوام من الكتب المائلة وفاضت وازدحمت على المقاعد والطاولة وتناثرت أرضًا كقطع البلور المكسور، كان الغبار يكسو أغلفة الكتب وبين الصفحات عششت خيوط العنكبوت، وعلى الأرض كانت الأوراق مبعثرة في كل مكان حتى إنها لم تترك موضع وطأة قدم إلا وغطته.

في منتصف المكتبة كانت هناك رفوف خصصها داريوس لتحمل «اللفائف العتيقة» التي كتبها صاحب المعرفة الأول «هاين الثاني»؛ أول صاحب معرفة في مبنى القدماء، والتي لا يتجرأ أن يقترب منها أحد إلا بإذنه أو بأمر مباشر منه فقط؛ احتفظ أصحاب المعرفة في مبنى القدماء بالنسخ الأصلية من «اللفائف العتيقة» ووضعوا في كل من الأقاليم الأربعة نسخة كتبها أصحاب المعرفة على مر الزمان بأيديهم وأرواحهم؛ تلك اللفائف التي كانت تتحدث عن الأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء العظيم، وعن الأعراق التي عاشت قبل السيادة البشرية وارتقاء الأسياد، وتتحدث أيضًا عن ملك السيادة الأولى للبشر؛ جد أطلس الأعظم «إيغور»، وعن تاريخ إيڤيريا العتيق، ومباركة «ڤالكين» الهائل لصاحب السيادة الأولى؛ الملك إيغور لعبوره بحر «الرماد» دون أن يغرق بين أمواجه العاتية التي ترتفع كالأطواد العظيمة؛ شاهقة كالشمّ من الجبال الراسية.

رمق أكوام الكتب الملقاة في كل مكان، في الأركان وعلى الرفوف يغطيها غبار الزمان والوقت، لا يذكر آخر مرة دخل هذا المكان؛ ربما منذ عشر سنوات؛ منذ نفاه أطلس من العاصمة على الأرجح، سحب كتابًا من أحد الرفوف، فأثار عاصفة من الغبار حوله، بيده المجردة مسحه من الغبار، كان الكتاب لا يحمل عنوانًا محددًا، لكن داريوس يدري جيدًا عن ماذا يتحدث الكتاب؛ كان الكتاب مغلفًا بجلد طبيعي، خشن الملمس يبث في أجساد لامسيه القشعريرة، جلس على الطاولة بعد أن أزاح ركام الكتب عليها وريش الكتابة وقناني الحبر الفارغة الموجودة في كل مكان، وفتح الكتاب؛ كانت الصفحات ذهبية ولمعت لمعانًا خافتًا تحت ضوء المشاعل الضئيل، كان يعرف أي الصفحات ينشد تحديدًا، وفرت الصفحات من بين أنامله حتى توقف وتمعن في الكلمات؛ كانت اللغة القديمة للأسياد، يعرف تلك اللغة جيدًا وينطقها جيدًا كما كل أسياد الأقاليم، ويقرؤها جيدًا جدًّا أيضًا، وقفزت عيناه على الكلمات والحروف:

«عندما عبر الملك إيغور بحر الرماد، عمدت إليه «مينرڤا» إلهة الحكمة ومرشدة البشرية إلى السيادة، وأطلقت على مملكة البشر لقب «ڤولاهاينس»؛ وتلك الكلمة في لغة الأسياد القديمة تعني «الهبة»، شكرها الملك إيغور وأمر بتشييد مبنى شاهق استغرق بناؤه خمسين عامًا لتعظيم الآلهة وأطلق عليه الشعب «آڤيراد» وتعني «مقر الحكمـاء»، كنت مستشارًا للملك منذ وقت طويل جدًّا؛ منذ العبور الأول، وكنت أول صاحب معرفة في مقر الحكمـاء قاطبةً، وفي مملكة البشرية بأكملها، أجدادنا الأوائل كانوا يسكنون أرض «أوركيڤ» القديمة وتعني «الأصل» قبل العبور العظيم للملك إيغور، الآن وبعد مرور مائتي عام على ظهور العرق البشري ازدهرت «ڤولاهاينس» وحازت احترام باقي الممالك الثماني، وأصبحت أقوى الممالك التسع، وكانت السيادة للبشر كما وعدت مينرڤا الملك «إيغور» تمامًا، منذ أيام كان ملك عرق الأشاوس؛ المدعو

«جلادور» في زيارة للملك

«إيغور» وأعطاه هدية غريبة؛ سائلًا ما لا أعرف ماهيته، لونه أحمر دموي، قال جلادور إنه سائل سحري صنعه أسلافه ليستمدوا منه القوة وسرعة الشفاء، قبِل إيغور الهدية من الملك جلادور، حذره المجلس الملكي مرارًا أن يغض الطرف عن شرب هذا السائل الغريب، لكنه كان عنيدًا كالصخر، وصلبًا أكثر من الفولاذ نفسه، كان ينشد الكمال البشري، ولكن للأسف الشديد الكمال لم يخلق للبشر؛ تجرع إيغور السائل، وانقلبت أحواله رأسًا على عقب بعد ذلك بمدة ليست بطويلة، لم يعد يميز ملكوته من الحقيقة، نادرًا ما يغط في النوم، يرى أشياء لا يراها أحد غيره، في أحلامه يبدو أنه يركض من شيء ما غير معلوم، ببالغ الأسى لقد توفي الملك إيغور ليلة أمس مصروعًا بشيء يجهله الجميع، وشرعت في كتابة تلك الكلمات فورًا بعد موته، ويملؤني أسى شديد وحزن يعتري القلب والروح والفؤاد، غدًا ستكون الجنازة، وبعد غد سيكون تنصيب الملك الجديد «ثيودين»؛ الأول من اسمه، ابن الأميرة «ليليث»، وابن ملك السيادة الأول «إيغور»، والآن ينتهي الحكم الأول كما تنتهي كلماتي الآن، محرم على أحد أن يقرأ تلك المذكرات إلا الملوك؛ أحفاد السيد الأول للبشرية، وأصحاب السيادة الأربعة، ومن تجري في عروقه دماء السيادة الأزلية؛ المستشار الأول لملك وصاحب المعرفة الأوحد في المملكة؛ هاين الثاني».

وقف داريوس على سطح الصمت متأملًا، واخترق شيء ما أضلاعه ثم قلبه، خاطفًا أنفاسه عن رئتيه، مترنحًا عقله في متاهات التفكير، لا بد من تفسير ما لهذا الجنون الطاغي، وسحب نفسًا عميقًا معبقًا بالغبار إلى صدره، ومسح العرق المتدلي من جبينه، كان يشعر بارتباك عظيم لم يشعر به من قبل قط، لم يقرأ ذلك الجزء من اللفائف العتيقة من قبل، أو على الأقل لم يلاحظ الترابط القوي بين ملك السيادة الأول وبين حفيده، وظل يبحث عن شيء أكثر ترابطًا ووضوحًا، لكن يبدو أن المذكرة كانت منقحة وأزيل منها الكثير من الصفحات على مر كل تلك السنين!

وأغلق الكتاب وأغلق معه عينيه، كان يشعر بصداع ينخر في عقله وسؤال يطن في رأسه لم يجد له جوابًا؛ ممّ كان يفر الملك إيغور في أحلامه؟ هل كان يفر من الغربان أيضًا؟

وكان وقع الفكرة عليه مرعبًا، وأثار القشعريرة في جسده، ثم بعد لحظات مرت لم يشعر بعبورها غارقًا في جحيم أفكاره من رأسه إلى أخمص قدميه، شعر بحركة مريبة تحوم من حوله، وسمع من ورائه صوت جلبة وسقوط رفوف من الكتب المعلقة أرضًا، حمل شمعه سريعًا واقترب من مصدر الضجيج، وعندما اقترب وجد إيدجار مطروحًا أرضًا وفوقه كومة من الكتب الثقيلة التي صرعته كغريم لها، اقترب منه سريعًا وأزاح من فوقه الكتب التي كانت ثقيلة كالحجارة، ثم أردف في قلق:

- إيدجار! هل أنت بخير؟

وقف الفتى وتفحصه أبوه جيدًا بعينيه وروحه، ثم أردف:

- نعم يا أبي بخير؟

سأل السيد والده بعبوس: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

- رأيت ضوءًا ينبعث من السرداب.

وظل يرمق الرفوف والأركان بعينين محملقتين يملؤهما الذهول ثم سأل:

- ما هذا المكان؟

كان داريوس يحب إيدجار بشكل لا يوصف، أكثر من إخوته الاثنين ربما، ابتسم له وأردف:

- ليس عليك معرفة كل شيء.

- وما كل تلك الكتب؟ أيمكنني استعارة واحد؟

ابتسم أبوه ابتسامته الهادئة وأردف:

- وهل قرأت كتابًا من قبل يا فتى؟

- لا، لكن تحكي لي أمي القصص قبل النوم.

- هذا جيد.

- لا ليس جيدًا على الإطلاق!

- لماذا؟

فقال محتجًّا: «هي لا تعرف قصصًا عن الأسياد لترويها لي».

- وهل تريد قصصًا عن الأسياد؟

- نعم.

- وماذا تريد أن تعرف؟

ابتسم وقال بسرور: «كل شيء!».

قال له أبوه: «حسنًا، تعال ورائي».

اتجه أبوه إلى المكتب، وكان إيدجار ملتصقًا في ذيل أبيه، تناول داريوس مذكرات الكاهن «هاين الثاني» ثم وضعها على رفها المعهود بين رفوف «اللفائف العتيقة» المقدسة، ثم جلس وبدأ يروي له ما يريد:

- قبل الفناء العظيم عاش الأسياد على وجه تلك الأرض بانسجام مطلق، كانوا يشبهون البشر في الهيئة، ولكن كانت أحجامهم ضخمة جدًّا وأرواحهم ليست بشرية، حتى إن طول سيد من الأسياد يتعدى الفرسخ، كانوا يحكمون الأرض والطبيعة قبل وجود الأعراق المتعددة، وكان يعيش بجوارهم عرق الأشاوس، كانوا يسكنون واديًا يدعى «وادي الوفرة» كان في وادي الوفرة شجرة عظيمة مقدسة كانت تمدهم بالثمار والطعام وينابيع الماء والبحيرات العذبة التي لا تنتهي، كان بينهم وبين الغيلان في النصف المظلم من الأرض حروب ونزاعات عديدة، كانت الغيلان فوضوية وقوية، ولكن الأشاوس كانوا خالدين لا يموتون إلا بطريقة واحدة فقط؛ وهو فولاذ «الأرك» وهو فولاذ منقرض كان يستخدمه الأشاوس قديمًا، وكلمة «أرك» باللغة القديمة ولغة الأشاوس الأصلية تعني «مبارك»، كان هذا الفولاذ مقدسًا ومباركًا حقًّا كما يزعمون، كما أن حجارة الأرك لديهم مباركة وصلبة وبنى بها الأسياد قلعتهم الحصينة على مر كل تلك العصور؛ حتى إنها صمدت أثناء الفناء العظيم، والتي تسمى بقلعة «عدن»، تقول الحكايات إن في عروقهم تسير دماء الأسياد الأصيلة، وأنهم عرق الأسياد الأول والممتد، ولهذا كانت أعمارهم طويلة جدًّا ولا يخترق جلودهم فولاذ إلا فولاذ «الأرك» المنقرض، ولكن بعد مرور آلاف السنين بدأت النهاية الحتمية لكل شيء وهي «الموت»، اندلعت حرب عظيمة بين الأسياد لا أحد يعرف سببها مما أدى إلى اختلال الطبيعة وحدوث الفناء العظيم؛ انهارت الشهب من السماء وسقطت الكواكب والنجوم وانطفأ نور الشمس لثلاثين عامًا حينها.

سأل إيدجار: «وهل انقرض الأشاوس بعد الفناء العظيم؟!».

أجابه: «معظم العرق قد فني بعد الفناء العظيم، الملوك وكائناتهم المقدسة جميعًا، ولكن القليل منهم من تمكن من النجاة ووجود مأوى أثناء حدوث الفناء».

- وهل رأيت واحدًا من عِرق الأشاوس من قبل؟

- نعم، لقد شاركتهم الحرب الأخيرة.

ثم سأل بفضوله الجارف:

- وماذا حدث بعد الفناء العظيم يا أبي؟

- بعد فناء كل الأسياد، اختفى شعاع الشمس لثلاثين عامًا عن الأرض، وظلت الأمطار تتساقط لثلاثين عامًا أخرى مكونة بحر «الرماد» العظيم، وبعد مرور مئة عام أخرى تهيأت الأرض لأعراق عديدة ومختلفة، وكانت أول الممالك هي مملكة عِرق «الإلف» التي أطلقوا عليها اسم مملكة «آلفهايم» قديمًا أو «أوديث» كما أحب أن يسميها الناس لاحقًا، ثم بعدها تكونت مملكة «نلكيم» وهي مملكة الغابات المزدهرة، ويسكنها حوريات الغابة، ومملكة العمالقة «يوتنهايم»، ثم باقي الممالك الثماني، وبعد ازدهار الممالك الثماني، قبل ثلاثة آلاف عام من الآن بدأ عرق البشرية بالظهور، سكن البشر الأوائل في أرض الأصل التي أطلقوا عليها قديمًا «أوركيف»، لم يعبر أحد بحر «الرماد» قط قبل ثلاثة آلاف عام، ولم يجرؤ أحد من الممالك الثماني وأعراقها أن يفعل، بحر الرماد هو الذي يربط الممالك التسع ببعضها؛ كأنه جسر تمامًا، ولم ينجح أحد من كل هذه الأعراق أن يعبر بين أمواجه، جميعهم غرقوا، الملوك والسحرة والمشعوذين؛ جميعهم باتوا في قلب البحر صرعى، وكانت هناك أسطورة عن السيد الأعظم الذي سوف يسود كل الأعراق، والتي سوف تتهيأ له الأرض لسيادة الممالك الثماني كلها، إنه المختار ذو النسل النقي والدماء الأزلية الذي يحمل في عروقه دماء الأسياد الأصيلة، جهز الملك «إيغور» أسطولًا رهيبًا وبدأ يبحر في بحر الرماد الهائج والثائر الذي كان صوت أمواجه كزئير الوحوش كفيلًا بأن يرهب أرواح وقلوب السامعين، تقول الأساطير إن هناك عاصفة لا تأتي إلا عندما يتجلى الإله «ڤالكين الهائل» إله بحر «الرماد» وهي عاصفة «الندب الأحمر»، وتلك العاصفة عندما تهب تتساقط من السماء أمطار حمراء كالدماء وبرق أحمر يخترق الصدور والقلوب، وقتها سمح «ڤالكين الهائل» لملك السيادة الأول «إيغور» أن يعبر بين الأمواج الغاشمة والحادة لأنه كان المختار صاحب الدماء النقية، من اختارته الأسياد ليسود الأرض وتكون له السيادة في الممالك الثماني، وبعد عبور الملك إيغور ووصوله إلى الشاطئ الأسود، خاض حربًا هناك، وخسر ثم انسحب وراء التلال، وهناك ظهرت الإلهة «مينيرڤا» وسلمته السيادة ونفخت في بوق عظيم سمعه كل سكان الممالك الثماني في آن واحد، وانتقلت السيادة إلى البشر في ذلك اليوم، وعاد الملك إلى معركته، وفاز بالحرب، وأقام المملكة؛ وتم تقسيم المملكة إلى أربعة أقاليم، وفي كل إقليم سيد يحمل دماء السيادة بين عروقه.

تساءل إيدجار:

- أي إن أسياد الأقاليم والملك أجدادهم واحدة؟

- نعم، كان جدي الأكبر يدعى «هيمدايل» وهو أول من تولى سيادة الإقليم وهو من أطلق عليه الاسم تيمنًا بمقبرة الأسياد التي تقع بعد غابة الغربان، ثم مر الزمان حتى جاءت السيادة إلى أبي ثم إليّ.

- وهل رأيت أعراق الممالك الثماني من قبل؟

- نعم؛ في جزيرة ثينيا أقصى الشرق، يتجمع فيها كل أعراق القارة للتجارة، وفي اجتماعات الملوك قديمًـا.

ثم وقف داريوس من مقعده، ونظر لإيدجار ثم أردف:

- كفى قصصًا لليوم أيها الصغير.

ابتسم الفتى وقال: «شكرًا لك يا أبي كانت قصة رائعة!»

- هيا غادر الآن يا صغيري، واستدع إليّ أركام في غرفة الاستقبال، سأكون في انتظاره هناك.

أذعن الفتى لأمر السيد والده فورًا، وانسحب من السرداب صاعدًا السلالم في حذر، أطفأ داريوس الشموع المشتعلة والمشاعل المعلقة، وألقى نظره أخيرة على «اللفائف العتيقة» قبل أن يغلق باب السرداب مجددًا بقفله، واتجه إلى غرفة الاستقبال، كان أركام ينتظره هناك، وقف لأبيه احترامًا وأردف:

- تحت أمرك يا أبي.

ابتسم له داريوس وأردف:

- اجلس يا أركام.

جلس الفتى وصب السيد والده كأسين من النبيذ وقرب إليه إحدى الكأسين وقال:

- لقد صرت رجلًا الآن، اشرب.

قال أركام بابتسامة: «شكرًا لك!».

ثم استطرد بعد أن وجد ملابس والده معبقة بغبار خمن مصدره:

- هل كنت في المكتبة القديمة؟

- نعم.

- ماذا كنت تفعل هناك فالمكان يعج بفوضى عارمة.

- كنت ألقي نظرة قبل السفر.

توقف الكأس عند شفتي أركام:

- السفر؟

- نعم، سأسافر إلى العاصمة قريبًا جدًّا.

صمت أركام ولم يعقّب، فاستطرد داريوس:

- لقد كان نزالًا رائعًا ليلة أمس، لقد سمعت عن الأمر.

- شكرًا لك، كان الفارس شجاعًا وبارزَ بقوة.

- ولكني لا أتحدث عن الفارس أيها الشاب!

احمر وجه أركام خجلًا، وأردف بعد أن ابتلع ريقه: «عن أي نزال تتحدث إذن؟».

ابتسم داريوس ثم أردف: «هل تظنني أعمى يا فتى!».

ابتسم أركام فاستطرد والده مجددًا:

- أنت تذكرني بنفسي عندما كنت صغيرًا، ما رأيك في الكونتيسة الصغيرة؟

- إن الكونتيسة إلينورا فتاة جميلة.

- نعم، إنها كذلك، ولكن أخبرني... هل تكن لها المشاعر؟

- قليلًا!

- لا تبدد عمرك في التردد، قبل سفري إلى العاصمة على أحد أن يكون سيدًا لهذا الإقليم، وسيكون هذا الشخص هو أنت، أنت فارس شجاع وشريف وعادل ونبيل، وفوق ذلك كله تفوق أشقائك في الحكمة والعمر، ولهذا أريدك أن تتزوج قبل رحيلي.

- أتزوج؟! – قال الفتى متفاجئًا.

- نعم، الكونتيسة إلينورا ستكون مناسبة لك على ما أعتقد، هي أيضًا تكن لك المشاعر، أثق بهذا، رأيت ذلك في عينيها ليلة أمس على الوليمة، ما رأيك؟

كان أركام يشعر بالارتباك ولكن بعد لحظة استجمع تفكيره وأردف:

- نعم، موافق يا أبي.

- حسنًا؛ ستتم مراسم الزواج قبل رحيلي إلى العاصمة.

ثم تجرع من كأس النبيذ وعلى وجهه ابتسامة فخر بابنه، وسكت كلاهما، الكونتيسة إلينورا فتاة جميلة حقًّا، جامحة وقوية كما يحب أركام تمامًا، هي لن ترفض الأمر بالتأكيد، فاللورد الصغير أركام فتى شجاع وشريف وفارس قوي وفوق ذلك كله كانت تُكِن له المشاعر حقًّا، سيكون عرضًا يصعب رفضه بكل تأكيد.

نلكيم هي مملكة الغابات المزدهرة، ويسكنها حوريات الغابة.

النعيق السادس

«تذكار من الأسياد»

6

كان يرتدي مِعطفًا مصنوعًا من المخمل الأرجواني الثقيل ومزينًا بخطوط فضية أنيقة، لم يحصل آجينار على سيفه «العويل» بعد، يجب أن يقابل الملك أولًا ثم بعد ذلك سوف يسترد كل متعلقاته الخاصة، لم يكن يدرك كم من الوقت قد غط في النوم حقًّا، كل ما يدركه أنه كان نومًا عميقًا لم يذقه منذ فترة طويلة، كان السرير الملكي وثيرًا، وغطاؤه حريريًّا مشعرًا إياه براحة نادرًا ما شعر بها، وانتشاء غمر جسده المنهك، وربما كان هذا الإرهاق تأثير الستــريجا على جسده.

كان «ألكيدس» مستشار الملك يتقدم «آجينار» متجهًا به إلى قاعة العرش ليقابل الملك، عبر به ممر الأشجار قبل أن ينحرف يسارًا ويمر بالبحيرة الشمالية ثم استقلا عربة ملكية صعدت بهم منحدرًا غاشمًا، وفي نهاية المنحدر كان القصر الملكي ذو القبة الشاهقة، دخل ألكيدس ومن ورائه آجينار، وتسرب من وراء الباب الملكي صوت لموسيقى هادئة تنبعث من قاعة العرش، وفتح الباب ودخل كلاهما قاعة العرش، وقف آجينار ورمق التمثال الحجري الهائل لــ«إيڤيدوكيا»؛ شقيقة أطلس، مطموسة كانت الملامح الحجرية، ثم مشى وراء ألكيدس حتى دنَوا من العرش، كان أطلس جالسًا على عرشه وفي يده كأس من النبيذ كالعادة، يستمع لسمفونية حزينة تعزفها الأوركسترا في الجوار، وانعكس الضوء الأحمر للزجاج الدموي على وجوه كل الواقفين في الساحة.

«معركة الأغصان الحزينة»؛ تلك كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها آجينار أطلس، وبعد مرور كل هذا الوقت أصبح مختلفًا تمامًا، لحيته انتشر فيها الشيب كالنار في الهشيم، ملامحه كانت ذابلة وحزينة، يبدو أنه قد بكى كثيرًا في تلك الأيام التي ولّت، على جفنه الأيسر رقعة ذهبية غطت عينه التي فقأها سهم غاشم في المعركة الأخيرة؛ كان يذكر تلك المعركة بكل تفاصيلها، يومها كانت الحرب قد اشتد وطيسها، كانت العمالقة تمزق لحم الجنوج بأنيابها، تناول الستريــجا وقتها وتحول لذئب رهيب، وعندما انتهى مفعول الستريــجا وعاد جسده إلى هيئته المعهودة، كان منهكًا للغاية، ولم يشعر بشيء وفقد وعيه، حمله أحد الفرسان فوق جواده الحربي وابتعد به بعيدًا عن المعركة، منقذًا حياته التي اقتربت من شفير الهلاك المحتم، وعندما أفاق وفتح جفنيه ليرى من أنقذ حياته... لم تصدق عيناه ما قد رأته حينها؛ كان الملك القديم داريوس من أنقذ حياته، كان يعتقد أن البشر مجرد حمقى، ولكن كان هذا البشري مختلفًا تمامًا عن كل الذين قابلهم من قبل.

بعد مرور لحظات انحنى ألكيدس للملك ولكن آجينار لم يتحرك من مكانه، فأردف ألكيدس:

- فليحيا الملك أطلس.

لم يعقّب الملك، وظل يرمق آجينار للحظات حتى استطرد ألكيدس:

- أقدم اليك «آجينار» يا جلالة الملك، أرسله «جلادور»؛ ملك عرق الأشاوس.

وظل الملك ينظر إليه للحظات رامقًا الوشم على رقبته، ثم أردف:

- سمعت عنك الكثير من الحكايات يا آجينار، إنك أبرع مقتفٍ للآثار على وجه الممالك التسع قاطبةً، وإنك أيضًا أبرع من اصطاد الوحوش الشرسة، والحيوانات الضارية، فشخص في مثل أوصافك هو الشخص المناسب للمهمة التي سأكلفك بها، هل أنت مستعد لهذا؟

أردف آجينار:

- وما المهمة التي تطلبها جلالة الملك؟

وقف أطلس من على عرشه واتجه إلى تمثال شقيقته إيڤيدوكيا وأردف:

- هل شاركت في حرب الإبادة يا آجينار؟

- نعم، شاركت في المعركة الأخيرة.

أردف الملك: «إذن أخبرني... هل تؤمن بالقدر؟».

رن السؤال في أذنه ولكنه حافظ على صمته ولم يعقّب، فاستطرد أطلس: «دعني أخبرك حكاية عن القدر يا آجينار، فالقدر أحجيات لا يستطيع مخلوق مهما بلغ علمه أو قوته أن يفهمها أبدًا، قبل الحرب بأعوام عديدة وقبل موت أبي؛ الملك أمناديل، بوقت طويل، وقعت في الحب، وكانت الفتاة من الرقيق، كانت من أسرى أراضي «ڤالكارد» الحمراء بعد غارة «معقل النار»، على ما أتذكر كانت الفتاة تدعى «كاسندرا» وكانت تعمل في الإسطبل الملكي، كانت فتاة جميلة وبسيطة من العامة، لا تحمل دماء ملكية ولم تكن عائلتها ذات منصب، ولكنه الحب يأتي بغير استئذان محطمًا كل القواعد ومتمردًا على كل القوانين، كنا نتقابل معًا خلسة كلما سنحت الفرصة لذلك، دون علم أي مخلوق، وعندما اكتشف أبي جريمة عشقي الوقحة عاقبني عقابًا شديدًا».

ثم أكمل ساخرًا بابتسامة سخرية: «كيف لي أن أعشق أسيرة استرققتها في إحدى الغارات، فتاة عادية وبسيطة، وليست كونتيسة عظيمة تنفث النيران من فمها».

ثم عاد مستطردًا بجدية بالغة: «تلك كانت جريمتي الكبرى يا آجينار، لقد أجرم كلانا حقًّا؛ جريمتي أنني وقعت في الحب وجريمتها أن عائلتها لم تكن ذات منصب،

ناشدت شقيقتي إيڤيدوكيا أبي أن يرأف بي وأن يرأف بقلبي العاشق، لطم أبي شقيقتي إيڤيدوكيا بقسوةٍ، ثم متجردًا من كل الرحمة والشفقة أمر الجنود أن يقطع رأس الفتاة وأبيها وأن يعلقهمـا على الخوازيق، وأجبرني على أن أنظر إلى رأسها المبتورة لساعات عديدة تنسال منها بقايا الدماء المتخثرة، كنت خائفًا، أرتعد، أبكي، احتضنتني إيڤيدوكيا يومها إلى صدرها بقوة، يومها فقدت الحب، وكرهت كل ما هو متعلق به!».

ثم أطلق ضحكة مجفلة واستطرد: «ثم بعد ردح طويل من الزمن يأتي الحب مجددًا ليدمر ما تبقى من روحي كأنها رماد تذروه الرياح، أحب الأمير «إلكادور» شقيقتي «إيڤيدوكيا»، أعرف الحب جيدًا، إنه مخادع، يخترق الروح والجسد ويستولي على العقل والفؤاد، لقد أخذ الحب كل ما أملك، كل من أحببت، وأكثر من أحببت هي شقيقتي إيڤيدوكيا، عندما اختطفها إلكادور أرسلت إليه بعثة للتفاوض، كنت سأتنازل عن العرش الملكي والسيادة البشرية إن طلب لأستعيد شقيقتي، لكنه رفض كل شيء، ولكن الحب دائمًا يعارض القانون والقواعد!».

أردف آجينار بوجه ممتقع:

- بالرغم من كل الذي فعله إلكادور من جرائم إلا أنه لا يسوّل ما فعلته في الحرب من إبادة في حق عرق كامل.

قال أطلس: «نعم أعرف هذا جيدًا يا آجينار، لكن في الحرب لا شيء يسمى بجريمة، عندما أشعلت فتيل الحرب أشعلتها لأجل شقيقتي إيڤيدوكيا، وبعد المعركة الأخيرة اختفى إلكادور تمامًا، فتشت كل بيت وكل حصن، لم أذر زقاقًا إلا وفتشته، كل حانة وكل سرداب وكل جحر، فتشت كل شبر في المملكة بأسرها، وأرسلت وراءه مئات من متعقبي الآثار وآلاف من السحرة والمشعوذين، ولكن فشل الجميع في إيـجاد اللعين!» .

صمت للحظة ثم أردف: «وتلك هي مهمتك!».

سأل آجينار:

- أي مهمة؟

- جد لي إلكادور!

أردف آجينار: «ربما ليس على قيد الحياة بعد كل هذا الوقت!».

- لا، إنه على قيد الحياة، أشعر بهذا جيدًا!

- حسنًا، ولكن عليك أن تعلم أولًا أن مهام التعقب تأخذ وقتًا طويلًا، ربما أيام أو أسابيع وأحيانًا شهور، وأحيانًا أخرى أعوام ودهور!

- نعم، معك كل الوقت الذي تريده، حتى وإن جاء أجلي أولًا، جد إلكادور واقتله، تلك هي مهمتك يا آجينار، أعرف أن الأشاوس عندما يوكل لهم مهمة ينفذونها مهما كانت مستحيلة، ومهما مر الوقت عليها!

- سوف أحتاج إلى علامة.

- نعم، أعلم ذلك.

ثم أشار إلى ألكيدس، فغاب للحظات ثم جاء وفي يده صندوق؛ كان الصندوق صغيرًا ذهبي اللون مرقعًا بالنقوش البارزة، تناوله الملك من ألكيدس ثم سلمه إلى آجينار بنفسه واستطرد: «ها هي علامتك التي تحتاج!».

أماط آجينار غطاء الصندوق فوجد بقايا ليد مبتورة تيبست أطرافها وتحللت عظامها واستحال معظمها لغبار ستذروه الريح إن هبت، فأكمل أطلس:

- كنا في معركة «بركة الدماء» وتقابلنا أنا وإلكادور في المعركة وتنازلنا نزالًا طويلًا غاشمًا دام لساعات طويلة، كنت وقتها أملك القوة الكافية لمواجهته، كان خصمًا صعبًا جدًّا، وفي النهاية هذا ما استطعت الحصول عليه؛ يد لعينة بدلًا من رأس، وأقسمت أنني سوف أحتفظ بتلك اليد لأحرقها مع باقي جسده... في يوم ما.

ثم أكمل: «أعرف أنها بقايا من ماض لم يعبر بعد، آمل أن تكون كافية!».

قال آجينار بعد أن أغلق الصندوق:

- نعم، سوف تفي بالغرض.

ثم التفت إلى ألكيدس وأردف: «ردوا إليه كل متعلقاته المسلوبة، ومعها كل ما يحتاج في رحلته من عتاد، ذهب، فولاذ، أي شيء يطلب نفذوه فورًا!».

انحنى ألكيدس للملك وأردف: «كما تأمر يا جلالة الملك».

متحجرة كانت أوصاله، لا يكاد يفتح جفنيه إلا ويشعر بدوار عظيم يغشاه من رأسه حتى أخمص قدميه، يؤلمه رأسه ويشعر بصداع مهول يأكل دماغه كغول جائع، مشتت، يشعر بالارتباك والقلق، كانت الضربة التي تلقاها فوق رأسه قوية جدًّا ولم يشعر بأي شيء بعدها؛ فاقدًا الوعي تائهًا في اللاشيء، فتح جفنيه في محاولة مستميتة

لاستعادة وعيه المسلوب منه عنوة، والسيطرة على لجام أطرافه المتحجرة؛ ولكن لم تستجب له أطرافه بكل الأسف؛ كانت حجرية ومتصلبة ولا يكاد يشعر بها؛ يداه وقدماه وصدره، وجفونه كانت ثقيلة كجبال «غالكوم» الهائلة، ولا يستطيع تحريكها قيد أنملة واحدة.

كان جليًّا له بكل تأكيد أنه مكبل، من يديه وقدميه ورقبته أيضًا، لم يذروا مكانًا ينشد الحركة منه إلا وكان مكبلًا بالحبال، استجمع قواه المبعثرة وفتح جفنيه في ألم شديد، كان كل شيء يبدو مذبذبًا في عينيه؛ يتقافز غير ساكن في موضعه، كان عقله مشوشًا يحمل طنينًا كطنين الناقوس حين يدق، وسكن كل شيء بعد دقائق حاول جاهدًا أن يستعيد تركيزه، وبدأ يستعيد وعيه رويدًا رويدًا، وبدأت تسكن في عينه الأشياء وتتراءى له بوضوح جلي.

«ڤالكارد» أو الأراضي الحمراء؛ هكذا أطلقت عليها قبائل «الويكنيجر» السبع، سكنت قبائل الويكنيجر في جبال شاهقة تتخلل سهول واسعة خضراء خصبة وجميلة؛ جبال شاهقة تناطح السحاب موصولة بجسور خشبية معلقة بين كل جبل وآخر، في أحضان الجبال الحمراء كانت المنازل ترتفع منها كأنها تطفو إلى القبة الزرقاء وصولًا لحدود السماء الهائلة.

أفاق القائد «هيستوس» من قيلولته الإجبارية، كان مقيدًا داخل زنزانة ذات قضبان صنعت من الصلب والفولاذ، غارقًا بدمائه كان كما كان غارقًا في عرقه الساخن، ويملؤه الطين والتعب والإرهاق، كان حلقه متحجرًا ويشعر بعطش شديد.

فتح باب الزنزانة ودخلت فتاة واقتربت بخطوات لها وقع مثير، كانت تبدو وكأنها في منتصف عقدها الثاني، شعرها كالحرير ناعم يتفلت من بين أنامل الرياح حين تهب، ولون عينيها كلون شعرها متوهج في الليل ويشع نورًا في النهار، جميلة كانت، حملت في وجهها أنفًا مدببًا كصقر ويخترق حاجبها الأيمن قرط لمع متوهجًا عندما انعكس عليه نار اللهب الأحمر، كانت ترتدي رداءً من الجلد الخشن معلقًا على ظهرها سيفان، وقوس وبجواره صرة من السهام، كانت تبدو محاربة قوية جدًّا وجامحة، نطق القائد هيستوس بتعب وإرهاق:

- من أنتِ؟ وأين أنا؟

لم تعقّب الفتاة على أي من أسئلته التي ألقاها، وأخرجت قربة تمتلئ بالماء وقربتها من فمه، تناولها ولثمها بشفتيه ولسانه، كان يشعر بعطش شديد وظل يشرب الماء حتى امتلأت معدته، وعندما انتهى سحب نفسًا طويلًا إلى صدره وكأن الحياة قد عادت إلى جسده بعدما غادرت، فقال لها: «شكرًا لكِ».

نظرت له الفتاة وأردفت:

- على الرحب والسعة، أنت محارب شجاع، لقد رأيتك تصارع أسدًا بربريًّا بمفردك بينما كان جنودك يلوذون بالفرار، لو شئت لقتلتك، ولكنك حزت احترامي.

- أنت التي ضربتني من الخلف إذن؟

- نعم، ولحسن حظك أنني لم أسحق عظام صدرك بنصل سيفي!

قال القائد هيستوس بنظرة تحد في عينيه:

- ولحسن حظك أيضًا إن حدث هذا فسيحدث من وراء ظهري، وإلا لن نكون في خضم هذا الحوار الآن، لأن الموتى لا يتحدثون؛ ولا يحكون الحكايات!

ثم سأل: «لماذا لم تقتليني حين أتيحت لك الفرصة كما تقولين؟».

- لن يفيد قتلك في شيء، أنت قائد جيش أطلس الجسور «العقّاب الملكي» كما سمعت، وقائد فيالق الجناح الذهبي والحرس الملكي، شاركت في الحرب الأخيرة؛ «حرب الإبادة» ضد مملكة آلفهايم، ستكون حياتك ذات قيمة أكثر من موتك في النهاية بكل تأكيد.

ثم رمقها للحظات وابتسم وأردف:

- لقد عرفت من أنت الآن، أنت «ميڤيا» فتاة الغابة كما يلقبونكِ، لقد سمعت عنك الكثير من الحكايات.

- أيًّا كان ما سمعته فلن يكون نصف الحقيقة، صدقني!

صمت قليلًا، كان يشعر بعدم الارتياح، كان قيده يحبس الدماء في عروقه، يتصبب عرقًا من كل مكان شاعرًا بتعب وإرهاق عظيمين، فأردف في كلل:

- وما الذي تنشدونه من أسري؟

- ستعرف قريبًا، عندما تقابل أمير القبائل.

- أمير القبائل؟

- نعم، يريد الحديث معك، ثم سوف يقرر أمرك فيما بعد.

ثم اقتربت منه وأرخت حبال قيده قليلًا، فجرت الدماء في عروقه كفيضان شاعرًا بانتشاء وقشعريرة انتابت روحه، ثم غادرت الزنزانة وأغلق الباب الفولاذي مرة أخرى، لم يكن يعرف ما سوف يحدث، لقد سمع كثيرًا عن «ميڤيا»؛ فتاة الغابة كما لقبها

الجنود، الكثير من الحكايات التي قد سمعها، ولا يوقن شيئًا من الحقيقة، ولكن جل ما كان يوقنه الآن أنه واقع في ورطة كبيرة بلا أدنى شك!

عندما عرض عليها السيد والدها أمر الزواج من الكونت «أركام»، شعرت بسرور دب في أوصالها وعظامها وروحها، وسرت سعادة مجهولة المصدر بين عروقها، هي لن تجد رجلًا وفارسًا مثل الكونت «أركام» رجل نبيل وشريف وفارس قوي، وتم التحضير لمراسم الزفاف سريعًا، وأقيمت منصة عالية وقوية في الساحة أمام أسوار القلعة العالية، وانتشر الخبر في كل ركن من أركان الإقليم انتشار النار في الهشيم، داخل القلعة وفي منتصف القاعة تلذذت المائدة بلحم وعل مطهو بالتوابل والقرفة الحارة، وبكل أنواع العصائر والخمور، وانتشرت البهجة والسرور بين الأركان الكئيبة، وبدأت المراسم بعد الظهر واستمرت حتى الغسق، وفاحت في البهو رائحة اللحم المشوي للوعل بالعسل المخلوط بالزنجبيل ومعه البط والدجاج، وعزفت موسيقى الناي والقيثارة حتى الليل ورقصت عازفات الناي حتى انهمر العرق منهن كالشلال وأصابهن النصب والتعب، وأكل الناس وشربوا وعربدوا وألقوا النكات حتى شبعت أرواحهم وامتلأت بطونهم وأفئدتهم.

في القاعة الواسعة للقلعة وضعت مائدة كبيرة جلس عليها الكونت «داريوس» وزوجته إيلين وبجواره «إيرجون» وابنته إلينورا، وتعالت الموسيقى وكان الجميع يرقص على أنغامها، اقترب أركام من الكونيتسة وأردف:

- هل تسمحين لي برقصة أيتها الكونتيسة؟

ابتسمت وناولته يدها بسرور، ورقصا في الساحة معًا على أنغام الموسيقى الهادئة مع الراقصين وجلس جميع اللوردات والمدعوين على الطاولات يشاهدون الراقصين بابتسامة على شفاههم، لاحظت إيلين وجه داريوس المربد والعابث، وبعد لحظات انسحب من القاعة دون ملاحظة من أحد؛ كأن شيئًا ما قد طرأ، شعر بضيق في صدره ربما، فقامت وراءه، دخل لغرفة الاستقبال فتبعته، وأردفت:

- ماذا حدث يا عزيزي؟

بابتسامة باردة يبعد بها أي شك كان في قلبها قال:

- لا شيء، شعرت بصداع، ووددت لو ابتعدت عن الضجيج لدقائق!

كانت تعرفه جيدًا حين يكذب، فهو لا يتقن الكذب أبدًا، اقتربت منه ووضعت يدها على وجنته وقالت بحنان:

- ما الذي يشغل بالك؟

ابتسم لها وقبّل يدها، وأردف:

- سينتهي الزفاف وسأعود للعاصمة في أسرع وقت ممكن، ويملؤني خوف!

قالت بتعجب: «خوف! أي خوف؟».

- ذلك الفتى يذكرني بنفسي عندما كنت في مثل سنه، أخشى أن يكون مصيره كمصيري في النهاية، وإني سأترك له حملًا ثقيلًا ينوء به كتفاه قبل رحيلي!

انقبض قلبها وانكمشت ملامحها وسألت في شك:

- سوف تسافر إلى العاصمة وتعود سريعًا، صحيح؟

نظر إليها للحظات قبل أن يقول:

- لا أعرف، ولكن جل ما أعرفه الآن أن أطلس في ورطة كبيرة، ولا أعرف كيف سأخرجه منها، وكم من الوقت سأحتاج لفعل هذا، تــحاك له المكائد في البلاط ليل نهار!

قالت بانفعال وعصبية:

- فليذهب أطلس إلى الجحائم السبع، جحيمًــا يتلوه جحيم، إنه يستحق كل ما أصابه، وما شأنك أنت به، لقد نفاك منذ زمن بعيد، هل نسيت؟

- لا، لم أنس!

ثم صمت قليلًا واقترب منها وقال بصوت خفيض:

- أحدهم يدس الستريــجا لأطلس.

هدأت قليلًا وصمتت للحظة وأردفت: «أحدهم! أتقصد من البلاط الملكي؟».

- نعم، الستريجا كفيلة بأن تفقد أطلس عقله تمامًا، أطلس أصبح مهووسًا بالكلمات الموعودة؛ عن نبوءة صاحب المعرفة المشؤومة، تطارده الغربان في أحلامه كل ليلة، يجب أن أكون بجواره لأن زوجته ستلد قريبًا، وإن وضعت الملكة ذكرًا مجددًا ستكون ورطة كبيرة، وسيعم الخراب ولكن ليس على أطلس فحسب بل على الجميع؛ ملك مجنون ليس له معنى سوى مملكة محطمة؛ ساقطة من أعلى السماء كنجم هاو لا مصير له إلا الانطفاء!

- وكيف عرفت بهذا الشأن؟

- مذكرات من اللفائف العتيقة، كتبها صاحب المعرفة الأول المدعو «هاين الثاني»، دون فيها مقتطفات من حياة الملك إيغور، يقول إن الملك إيغور تناول سائلًا غريبًا أعطاه إياه ملك الأشاوس «جلادور»، وعندما تجرع منه انقلبت حياته رأسًا على عقب، كان يتصرف بغرابة مؤخرًا؛ كان غريبًا للأطوار على حد القول، ومات مصروعًا بشيء خفي في عقله، جهله الجميع، وبعد أن بحثت عن الأمر وجدت شيئًا لا أكاد أصدقه حتى الآن، سلسلة من الملوك الأوائل بعد الملك إيغور اتهمهم الناس بالجنون وكانت آخر حياتهم تمتلئ بتصرفات غريبة الأطوار؛ لا يفعلها ملوك قط، وماتوا جميعهم صرعى بخيالاتهم، يحاول أحدهم إسقاط سيادة العرق البشري، وإن كان هناك احتمال ولو بسيطًا جدًّا أن أطلس يتجرع الستريــجا دون علمه، سيزداد جنونه أكثر فأكثر؛ أضعافًا مضاعفة، وعلى أحد إن يكبح هذا الجنون العاتي، ويكشف أمر تلك المؤامرات المحاكة.

بكت وانهالت الدموع من عينيها كنهر جارٍ وأردفت بصوت يمتلئ بشجن وحزن:

- «ولماذا يكون أنت؟».

رمقها للحظة قبل أن يقترب منها ويحيطها بذراعيه ويضمها إلى صدره:

- « لا أحد غيري يمكنه أن يفعل!».

كانت الحفلة صاخبةً، كل الإقليم قد حضر ولم يغب أحد، يوم بلا نهاية ومراسم استمتع بها الجميع، ووقف جمع غفير أمام المنصة المشيدة، وبدأت مراسم الإشهار والتوثيق، وحضر ناسك من نسّاك «المعبد القديم» القابع أقصى الشمال، كان الناسك رجلًا هرمًا بلغ الثمانين من عمره، كان يرتدي رداء ذا نقبة طويلة ذهبية اللون ويمسك في يده «عصا المعرفة»؛ ما يجعله ناسكًا من الرتبة الأعلى في معابد القدماء، وقال بصوت عالٍ سمعه الجميع بعد أن ران الصمت في أركان القاعة احترامًا له وانخفضت الهمهمات رويدًا رويدًا حتى خفت الصوت تمامًا في المكان:

- «باسم الأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء العظيم؛ وبأرواح الملوك الحائمة في الوجود السرمدي، وباسم الملك الأعظم أطلس بن أمناديل الأول من اسمه».

ثم وضع الناسك يد الزوجين في رباط واحد، ونظر إلى الكونتيسة إلينورا وأردف:

- هل تقبلين الكونت «أركام» بن داريوس أن يكون زوجًا لك وأبًا بعد أبيك وصديقًا وفيًّا وأبًا لأطفالكِ، وأن تشاركيه حياته كلها، يملك رقبتك وطاعتك وحبك ووفاءك، يملك روحك وعقلك وكل ذرة فيكِ، هل تقبلين؟

نظرت الكونتيسة إلينورا إلى «أركام» وابتسمت في خجل وقالت: «نعم، أقبل، أعطيه نفسي وروحي وعقلي وكل ذرة في فؤادي، وأن يكون صدري له مسكنًا آمنًا، وأنا له لآخر رمق في حياتي».

ثم نظر الكاهن إلى أركام وأردف: «هل تقبل الكونتيسة إلينورا إن تكون زوجتك، أن تقسم قسمًا بأسماء الأسياد أن تكون لها أبًا ثانيًا وصديقًا وفيًّا وأبًا جيدًا لأولادك، وأن تحميها من المخاطر وأن يكون لها وفاؤك وقلبك وروحك وعقلك وكل ذرة فيك، هل تقبل؟».

ابتسم ونظر لها وقال: «نعم، أقسم أن أعطيها نفسي وروحي وعقلي وكل ذرة في فؤادي، وأن يكون صدري لها مسكنًا آمنًا لآخر رمق في حياتي».

ثم سحب الناسك الرباط وحرر أيديهما، وقال:

- «باسم الأسياد الأوائل وعهود ما قبل الفناء؛ فلتكونا زوجًا وزوجة صالحين».

في هذه الأثناء ابتعد الفتى عن ضجيج الحفل والزفاف، لقد أخذ قرارًا منذ مدة طويلة ولا رجعة فيه الآن، وحمل مِشعلًا وخرج به من القلعة على حين غرة من أبيه وأشقائه متجهًا نحو غابة الغربان، كانت الشمس تنحدر على وشك الغروب ودقائق وسوف يسدل الظلام راياته رافعًا دعوى الحرب على الضوء، جهز نفسه للانطلاق حاملًا في جنبه سيف التدريب، وفوق ظهره حقيبة سوف يحمل فيها تذكارًا من الأسياد يتباهى به أمام الفتية.

يشعر بحماس شديد عندما يتعلق الأمر بمقبرة الأسياد، وكان الأمر يشكل له لغزًا حقيقيًّا، كيف كانت الأسياد وكيف تعايشت، ويأمل أن يجد إجابات شافية لأسئلته السرمدية التي لا تنتهي عندما يصل إلى هناك، وحمل مشعله ودخل غابة الغربان، كان الليل قد جن وانتشر الظلام في كل مكان وفي كل ركن من غابة الغربان، وتسلل ضوء القمر بين أوراق الشجر المسدولة، وترك بقايا الضوء الساقط لمسته الأخيرة التي لم تنر له الطريق بل زادت الطين بلة، ودب في قلبه الرعب والفزع.

وتحرك بحذر بين الغصون المتدلية من الأشجار وأخفض المشعل قليلًا كي لا يتعثر في حجر أو غصن متشعب من الأرض، كان يشعر بالخوف ويرتجف قلبه؛ هائجًا يتقافز من صدره، ولكنه كان يعرف طريقه جيدًا فكان يتحرك بسرعة أجفلت الغربان التي حطت فوق الأغصان، وكانت الغربان تنعق واقفة على غصون الأشجار، وكلما نعقت الغربان انتفضت الدماء في عروقه خوفًا من شيء مجهول، ربما كان الظلام، أو صوت الغربان الذي يصدر من كل مكان، أيًّا كان؛ فلا سبيل للرجوع الآن.

بعد مرور ساعة...

في الإقليم انتشر الضجيج، جلس أركام بجوار عروسه الكونتيسة إلينورا، وجلس المدعوون على طاولات الطعام يأكلون ويشربون وينشدون الأغاني، كان داريوس يجلس بجوار اللورد إيرجون على الطاولة، اقترب منه إيڤار، وكان على وجهه أمارات القلق، فأردف بصدر يناوشه الخوف:

- أبي!

التفت إليه داريوس وأردف: «ماذا هناك؟».

- لا أجد إيدجار في أي مكان!

- لعله يلعب في زمرة الأولاد خارج القلعة.

- لا، لقد بحثت عنه في كل مكان، لم أجده.

وقف الكونت داريوس قلقًا، وأمر إيڤار أن يبحث في غرف القلعة كاملة، وخرج يبحث عنه بين زمرة الصغار في الخارج، وبعد دقائق بحث فيها إيڤار عن شقيقه في كل ركن في القلعة، الغرف والسراديب، وبحث أيضًا في المكتبة القديمة، ولكن لا أثر له أبدًا، وبدأ القلق يتسرب إلى قلوبهم جميعًا وانتشر الخبر في آذان كل الحاضرين، اقترب أركام من السيد والده وأردف:

- لعلي أعرف أين ذهب.

- أين؟

- ذهب إلى مقبرة الأسياد؛ أثق بهذا.

عندما سمعت والدته إيلين الخبر، ظلت تبكي وغشى صدرها قلق تليد وخيالات في عقلها؛ عن وحوش وغيلان تفترس فلذة كبدها في الظلام، وقالت في فزع لابنها الكبير:

- «جد شقيقك يا أركام».

تخثرت ضحكات الرجال وتوقفت الموسيقى والعازفات عن الرقص، وتوقف الناس عن الطعام والشراب، وخرج داريوس على رأس مجموعة من الرجال يبحثون عنه في غابة الغربان، وظل الرجال يصيحون صياحًا أجفل أسراب الغربان الغافلة:

- «إيدجار! إيدجار أين أنت؟».

ولكن لم يكن هناك أي استجابة لصياحهم الهادر في قلب الغابة، قفز أركام فوق صهوة حصانه «ليل» سريعًا وشد سراجه وانطلق يسابق الريح، دخل غابة الغربان ويعرف جيدًا اين سوف يجد شقيقه إيدجار بالضبط، كان الهواء البارد يلفح وجهه مشعرًا إياه بالخدر على وجنتيه، لم يكن المشعل الذي يحمله ليضيء شيئًا في هذه العتمة العاتية.

«لا ضوء سوف يضيء هذا الظلام كله!»

بالرغم من أن جواده «ليل» كاد أن يتعثر في ظلام الغابة مرارًا لكن «أركام»، لم يعبأ لهذا أبدًا وشد على لجام حصانه بقوة أكثر وانطلق مسرعًا يسابق الظلام والرياح والغربان في سباق محسوم النتائج.

في هذه الأثناء كان إيدجار يركض متهدجة أنفاسه بلا أمل في الوقوف، مِشعله كاد ينطفئ، ويلاحقه سرب جافل من الغربان، يشعر بأن هناك من يتربص به، يراقبه، آلاف العيون ومئات النظرات، وسمع عواء قطيع من الذئاب وراءه وشعر أن الذئاب تركض خلفه وتكاد تفتك به فتكًا، وانطفأ مشعله وعم الظلام كل شيء في لحظات قليلة مرة فقد فيها أعصابه ولجام مشاعره المتخبطة، حجبت الأشجار نور القمر المنسدل من السماء، وانعدمت رؤيته تمامًا، ارتعش صدره وقلبه عندما سمع عزيف الرياح الذي امتزج بنعيق الغربان وعواء الذئاب في آن واحد.

وجرى مندفعًا في قلب الظلام الهادر، لا يرى شيئًا سوى العتمة الهائلة التي غشت كل شيء حوله، كانت الأشجار واقفة بغير حراك كأشباح مرصوصة بجوار بعضها بعضًا، تثير الرعب والفزع في نفس الفتى، شق الطريق بحذر عبر دغل كثيف، واخترق صفًّا من الأشجار المرصوصة ليقابل منحنًى شديد الانحدار على حين غرة؛ يمتلئ بالحجارة والحصى والجذور المتوارية التي تجعل المرء يتعثر فيها خلسة، وتعثرت قدمه في جذر صلب متشابك وفقد توازنه وسقط، وتدحرج على المنحدر بقوة محاولًا أن يوقف هذا السقوط السرمدي وأن يتوازن، ولكن لم يكن يملك القوة الكافية ليوقف سقوطه منحِدرًا إلى أسفل بغير إرادة منه، وعندما بلغ أسفل المنحدر أخيرًا، شعر بألم في جسده، وكدمات عدة شعر بها في رأسه وقدمه ورقبته، كانت الرؤية مشوشة قليلًا في عينيه، ولكن عندما استجمع قواه وبدأ يرى بوضوح؛ حملقت عيناه في ذهول دون أن تجفل هنية أو لحظة مما قد رآه في تلك اللحظة، وقفز قلبه حتى كاد أن يكسر أضلاعه ويفر مما شعر به في هذا الحين، وتصلبت أوصاله وانتشرت في جسده قشعريرة لا إرادية ولا نهائية، واعتراه شعور بالفرح والسرور والهيبة في آن واحد.

اختلطت السماء بالأخضر والأحمر والبنفسج في مزيج للشفق خلب لبه وسحر عيونه وقلبه وروحه، كان افتتانه بالأسياد يكاد يكون مرضيًا بما يراه الآن، كان يعتقد أن

«مقبرة الأسياد» سوف تكون مثيرة للانبهار أو باثّة في نفسه الرعب والفزع، لكن كان اعتقاده خاطئًا بالمرة... لقد كانت جميلة، أجمل ما قد يراه يومًا، وسرى في عروقه شعور بالهيبة هز أوصاله وروحه، كانت العظام كالعقيق الأسود وبدت كأنها تتوهج بألوان الشفق في السماء، واستجمع شجاعته وبدأ يقترب أكثر، على الجبل الشاهق كان هيكل عظمي لسيد من الأسياد، عملاق جدًّا طوله يتعدى الفرسخ كما أخبره أبوه من قبل، هال عينيه السيف الهائل الذي اخترق صدره محطمًا العظام الهائلة لقفصه الصدري، يقال في الأساطير إنه يدعى «ڤلهار» وهو آخر سيد من الأسياد قد عاش على الأرض، كان طول السيف المنغرز في عظامه يتعدى النصف فرسخ، وانتشرت العظام الهائلة في كل مكان من حوله، وأمسك عظمة من تحت أقدامه، كانت سميكة جدًّا وصلبة كالفولاذ ولكن أخف بكثير، يربو عمرها على أكثر من عشرة آلاف عام، كانت الهياكل العظمية هائلة الحجم مرصوصة بجوار بعضها بعضًا؛ متناثرة على الجبال الشاهقة أمام عينيه، كان حجمه ضئيلًا جدًّا عندما قارن نفسه بحجم سيد من الأسياد؛ وكأنه مجرد حشرة صغيرة جدًّا لن ترى بالعين المجردة، وعلى الرغم من مرور كل هذا الوقت لم تتحلل العظام، بل كان الأمر كأن الأسياد قد ماتوا في الأمس القريب، أقرب مما كان يظن أحد.

وعندما اقترب كانت هناك عظام هائلة لوحوش كاسرة عديدة، ووقف مذهولًا أمام فك لأسد عملاق جدًّا، أسنانه مدببة وحادة تلمع كالألماس في جنح الظلام، وقف أمام فكه المفغور عاجزًا عن النطق والحركة والتفكير، ورمق عظامًا لماموث منقرض، وتملكته الهيبة من رأسه إلى أخمص قدميه حين نظر لعيني الماموث الخاويتين الفارغتين وشعر ببرد سرى في جسده اخترق أضلاعه وروحه كسكاكين حادة.

وحين تملكته الشجاعة أخيرًا واقترب من الهيكل العظمي لـ «ڤلهار»، عيناه لم تستوعب ما تراه بعد، وعقله لم يتصور كيف كانوا بعد، عندما نظر لأعلى في محاولة منه لأن يبلغ أعلى نقطة يمكن أن ينظر إليها في جسد «ڤلهار» شعر بدوار رهيب، وبعد أن تحرك من مكانه مقتربًا من العظام الهائلة أكثر، سمع همسًا في أذنيه، نظر خلفه في فزع، فلم يجد أحدًا، وتردد الهمس في أذنه مجددًا وظل يلتفت يمينًا وشمالًا وفي كل اتجاه باحثًا عن مصدر الهمس فلم يجد له مصدرًا، وركض خوفًا لكن الهمس لم يغب عن أذنيه ولو لحظة، صرخ خوفًا وهو يركض، لم يكن يفهم من تلك الكلمات التي يهمس له بها شيئًا، ولكن كان الصوت في أذنيه كفحيح الأفاعي يثير في قلبه الرعب والفزع، وظل يركض ناظرًا خلفه في قلق وتردد، كأن أحدًا ما كان يلاحقه بضراوة صياد غاشم.

وتعثر مجددًا في إحدى العظام وارتطم أرضًا، وازداد الهمس في أذنه، وعرف مصدر الهمس أخيرًا حين التفت، كان الهمس يأتي من بين أنامل «ڤلهار» العظمية، استجمع

شجاعته واقترب، وكلما اقترب أكثر زاد الهمس أكثر فأكثر، وحين وصل إلى المكان المنشود؛ كانت أنامله هائلة الحجم تقبض على شيء ما، صعد على كف يده واقترب، كان في المنتصف يقبع صندوق، وكان هو مصدر الهمس المرعب، تحركت قدماه بخوف تصطك له ركبتاه وأسنانه رعبًا، وحين وصل إلى الصندوق، كان لونه ذهبيًّا منقوشًا عليه تمائم ورموز بارزة من عهود قديمة وسالفة، يبدو أن
«ڤلهار» كان يقبض على الصندوق في يده بشده قبل موته تمامًا، أو أنه كان يحميه من شيء ما أو ربما كان هذا شيئًا من قبيل الصدفة البحتة.

وفكر في إماطة غطاء الصندوق، ولكن شعوره بالخوف جعله يتردد ويفكر في الأمر مرارًا وتكرارًا للحظات، ولكن في النهاية أخذ قراره بفتح الصندوق المجهول، كان يكتنف ذلك الصندوق هالة من الغموض، وتوقف الصوت عن الهمس حين أماط الغطاء...

ما وجده لم يكن ليتوقعه أحد قط، كان حجرًا بيضاوي الشكل، يشع نورًا أرجوانيًّا هائلًا موضوعًا على نمرقة من الحرير في قلب الصندوق، وشعت التمائم والرموز القديمة على الصندوق بنور ذهبي وسمع لمرة أخيرة همسًا يحدثه، ولكن تلك المرة كانت الكلمات مفهومة جدًّا لأذنيه: «احمل القدر».

وحمل الحجر بين يديه؛ كان ملمسه ناعمًا جدًّا كالحرير، كالفولاذ في صلابته، لم يعرف ما هذا تحديدًا، ولكنه سرق روحه وسلب منه عقله بفرط جماله، وظل يرمق الحجر ناسيًا الظلام والذئاب والغربان وكل شيء آخر.

وخفتت الأضواء شيئًا فشيئًا، حتى تلاشت تمامًا، وتبدد الهمس كأنه لم يكن؛ ورجع كل شيء كما كان، كان الحجر لامعًا يحمل لونًا كالعقيق الأسود، كان هذا حين سمع صهيلًا لجواد ميزته أذناه جيدًا، وحين التفت وجد شقيقه «أركام» قد تعثر جواده «ليل» وسقط كلاهما من أعلى المنحدر، وضع إيدجار الحجر في حقيبته سريعًا، وركض نحو أخيه المطروح أرضًا، وصرخ في خوف:

- أركام! هل أنت بخير؟

تأوه أخوه للحظة، لكن بعد هنيهة لملم فيها تركيزه المشرذم؛ الذي تبعثر في كل مكان، وفتح عينيه ثم انتصب عندما سمع صوت إيدجار، ونظر له وضمه بقوة وقال:

- أخي! أنت بخير.

حين ضمه أركام، شعر بالأمان أخيرًا، وشد على رقبة أخيه بعناق كبير، فاستطرد أركام:

- لماذا فعلت هذا يا أخي؟

قال إيدجار بأسف شديد:

- أعتذر لك يا أخي، اعتراني الفضول وكنت أريد أن أرى عظام الأسياد.

- من حسن حظك أنك لم تقابل قطيعًا من الذئاب، أو أيًّا من الوحوش الكاسرة.

نظر إيدجار إلى جواد شقيقه وأردف: هل «ليل» بخير؟

تفحص أركام جواده «ليل» بعينيه، فلم تكن هناك إصابات، ثم نظر إلى العظام الهائلة والشفق الذي يسلب الأرواح والعقول، وأردف: «هل أعجبتك المقبرة؟».

قال بسرور شديد:

- لم أر أجمل منها في حياتي.

- إنه مكان مقدس، هنا كانت الحرب الأخيرة بين الأسياد، وبعدها حدث الفناء العظيم!

ثم قفز على صهوة جواده بخفة وأردف:

- هيا خذ تذكارك لنعود، يبحث عنك الجميع في غابة الغربان!

ابتسم إيدجار ثم أردف: «لقد أخذت ما يكفي».

- حسنًا، هيا بنا.

ثم مد إيدجار يده فشده أركام وأجلسه على ظهر الجواد؛ من ورائه، ثم شد على لجامه وانطلق عائدًا إلى القلعة، عبر غابة الغربان برفق حتى لا يسقط أخوه مغبة الطريق الوعر، واستغرق في طريق العودة ساعة واحدة، وعندما بلغ القلعة عاد الرجال حين اطمأنت قلوبهم، وعانقه السيد والده عناقًا طويلًا وقويًّا يكاد أن يفتك بعظام الصغير، بحث عنه في كل شبر في غابة الغربان، وخشي أن يفقده للأبد، داعب وجنته وخصلات من شعره كانت متدلية، وركضت عليه إيلين وضمته إلى صدرها باكية في خوف، وتفحصت كل جزء فيه بعينيها ويديها وروحها، فلم تجد إلا بضع كدمات في وجهه وقدمه ورقبته، واستدعت طبيب القلعة وضمد الكدمات بالعسل المخلوط بالزنجبيل، واطمأنت قلوبهم جميعًا حين أخبرهم الطبيب أنه سوف يكون بخير في الغد القريب.

النعيف السابع

«لقاء في السرداب»

7

بانهمــاك كان يشعر، ولا يسعه شيء سوى التفكير، كان نومه في الليل خليطًا من الكوابيس ونفحات من الماضي التي لم يــخلُ وقعها من نعيق الغربان وصوت رفرفة أجنحتها التي تبعث على الجنون، وشعر بانقباض في صدره وضيق تخلل عظامه كافح للسيطرة على عِنانه، سفره إلى العاصمة سيشكل خطرًا كبيرًا عليه وعلى عائلته بالتأكيد، ولكن الخراب لا فرار منه ولا مناص، قادم لا محالة، ولا وقت ليلوذ بالفرار من قراراته وماضيه في آن واحد، ولا وقت ليفكر مجددًا؛ حسم الأمر الآن، يجب عليه أن يسافر إلى العاصمة في أسرع وقت ممكن، لا وقت ليضيع، بجانب أن الملكة «هيميريا» اقتربت من أن تضع مولودها ويجب أن يكون حاضرًا، شقت الأفكار عقله كسيف قاطع، سيعم الخراب على الجميع إن لم يكبح هذا الجنون العاتي بنفسه، وفوق كل هذا يحتاجه أطلس أكثر من أي وقت مضى، إن كان هناك احتمال ولو ضئيلًا بأن أحدًا ما من البلاط الملكي يدس لأطلس «الستريــجا» في شرابه أو طعامه؛ ستحل كارثة لا أمل في التصدي لها ولا للسيطرة على عنان نتائجها، هناك خائن في البلاط الملكي، هو متأكد من هذا الآن، وعليه أن يعود للعاصمة ليكشف الستار عن هذا الخائن، سيمنعه ضميره من أن يغض الطرف عن الأمر، وحتى بالرغم من الغربان التي تعشش بين أركان ماضيه وذكرياته، سيعود بالرغم من كل شيء.

لاحقًا، وبعد أيام من الزفاف، كان الفتى «إيدجار» في غرفته ككل يوم تقريبًا، لا يكاد يخرج منها إلا ليأكل ويتغوط ثم يعود مجددًا ويغلق عليه الباب بإحكام شديد ثم يسدل ستائر النوافذ مانعًا الضوء عن الدخول، ثم يخرج حقيبته بعد أن يتلفت يمينًا ويسارًا ليتفحص تذكاره دون تطفل من أحد، وكأنه يحمل بين أضلاعه سرًّا رهيبًا، ولا يجب على أحد أن ينبش سره الدفين داخل صدره، كل يوم يحدثه الهمس في أذنه باستمرار؛ وبلا توقف: «احمل القدر».

ولا يتوقف الصوت عن الهمس حتى يحمل إيدجار الحجر بين يديه ويشع نورًا سريعًا كان يخبو عندما يطرق الباب، أو تحدث جلبة، كانت اللغة التي يتحدث بها الفحيح لغة لا تفهمها أذناه، وتوقع أنها لغة قديمة وعتيقة، وعلى الأرجح هي لغة الأسياد، ولكن عندما كان ينصت لها كان يفهم ما تعنيه الكلمات تمامًا، كأن شيئًا يتحدث إلى روحه، وظل يفكر في معنًى لكل هذا حتى أعلنت دقة قوية على الباب استدعاء السيد والده له في الحال مع أشقائه الاثنين.

ووضع الحجر في حقيبته مجددًا ثم خبأه في خزانة ملابسه خوفًا من أن يكشف سره أحد، وعندما بلغ الغرفة التي تجمع فيها السيد والده وأشقاؤه ألقى عليهم تحية

وجلس، ولم يدرك لماذا جمعهم السيد والدهم الآن في هذا الوقت المبكر من اليوم، ولكن يبدو أن أمرًا جللًا قد حدث، ويــجب أن يحضره الجميع، جلسوا جميعًا أمام أبيهم على الطاولة، نظر إليهم جميعًا، كانت أنفاسهم مسموعةً؛ وقلوبهم تدق في صدورهم وتبث في أجسادهم قلقًا يسير بين عروقهم كالدماء، تنحنح السيد والدهم قبل أن يشق عصا الصمت:

- لقد أدركتم جميعًا أمر الرسول الملكي، منذ زمن بعيد كنا أنا وأطلس إخوة، أعرف أنكم جميعًا سمعتم الكثير من الحكايات التي تجمعني وأطلس معًا، وأن تلك الحكايات يكتنفها الكثير من الغموض كما كان يكتنفكم فضول المعرفة كل هذا الوقت الذي مر، ولكن أحيانًا تصبح المعرفة لعنة يجب الهرب منها.

ثم صمت قليلًا واستطرد: «سوف أسافر إلى عاصمة إيڤيريا غدًا، الملك يحتاج إلى المساعدة!».

تبادل الإخوة الثلاثة النظرات لبعضهم بعضًا؛ نظرات شك وحيرة يملؤها وجوم وامتعاض كبير مما قد سمعته آذانهم الآن، وشعروا جميعهم بخوف دب في أطرافهم وعزم على الفتك بأرواحهم، قال إيڤار بامتعاض وعدم رضا:

- سفرك إلى العاصمة يا أبي سيشكل خطرًا كبيرًا على حياتك، إن الملك أطلس كما سمعنا جميعًا قد أصاب عقله الجنون بعد حرب الإبادة، ليس أطلس الصديق والأخ الذي تحسبه أنت بعد الآن.

نظر له السيد والده للحظات وأردف:

- لا أحد يعرف أطلس كما أعرفه أنا، ولا أحد يحــق له أن يصدر الأحكام.

ثم سأل الفتى إيدجار الصغير: «ومتى سوف تعود من العاصمة يا أبي؟».

- سأعود في أقرب وقت ممكن، هناك مشكلة في البلاط الملكي ولا أدري كم من الوقت سأحتاج لحل تلك المشكلة.

قال أركام: «إن كان الأمر مشكلة في البلاط الملكي هي مشكلة عويصة كما تقول يا أبي، ستحل بدونك، لقد تم نفيك لعشر سنوات كاملة بعيدًا عن العاصمة، ولقد سمعت أن يد الملك الجديدة رجل يدعى «ألكيدس»، سيتدبر أمره الآن كما تدبر الأمر لعشر سنين سالفة مرت بلا مشكلات!».

- ليست المشكلة من النوع الذي يحتاج إلى يد للملك!

- أي نوع من المشكلات إذن؟

- التي تحتاج لصديق!

- كان هذا منذ زمن بعيد يا أبي، أطلس الآن لم يعد الصديق الذي تألفه!

- ربما تغير أطلس، نعم، ولكني ثابت لم أتغير!

وعندما يئس منه أولاده آثروا الصمت، لا أمل في إقناعه بإلغاء فكرة العودة تمامًا، يعرفون أباهم جيدًا، فهو لا يرجع في قرار قد اتخذه سلفًا أيًّا كانت العواقب أو الخيارات المتاحة، وعليه قد كان صمتهم المليء بالامتعاض وعدم الرضا، فاستطرد أبوهم:

- هل تعرفون شيئًا عن «الستريــجا»؟

صمت الجميع ورمق بعضهم بعضًا بتعجب، لم يفهم الجميع ما قاله أبوهم، ولفح الصمت ألسنتهم جميعًا، وظل إيدجار الصغير غارقًا في أفكاره يبحث عن معنًى للكلمة التي طرحها السيد والده، حتى همس الصوت في أذنه مجددًا، همسًا لم يدركه أحد من الجالسين، همس في أذنيه بفحيح بث القشعريرة في جسده: «ڤالهاجرس».

وبعد لحظة ردد إيدجار وراء الصوت الهامس بصوت سمعه إخوته وأبوه: «ڤالهاجرس».

نظر له إخوته باندهاش ورنت الكلمة في آذانهم جميعًا، حملقت عينا السيد والده بذهول حتى قال كاسرًا طوق الصمت:

- ماذا قلت يا إيدجار؟

- ڤالهاجرس!

سأل بذهول: «أين سمعت بهذا الاسم؟».

لم يعرف كيف يجيب عن السؤال، ولم يعقّب فاستطرد السيد والده:

- هذا الاسم لا يعرفه إلا أصحاب المعرفة والمطلعون على اللفائف العتيقة والذين يستطيعون قراءة لغة الأسياد القديمة، فمن أين سمعت عن هذا الاسم؟

سأل إيڤار: «من هو ڤالهاجرس يا أبي؟».

- «ڤالهاجرس»؛ هو أول ملك لعرق الأشاوس، كان ملكًا عظيمًا كما تقول اللفائف العتيقة، كان عرق الأشاوس أول عرق تعايش مع الأسياد، وأعطاهم الأسياد هبات كثيرة واعدة، كالعمر الطويل وقدرات خاصة لم تكن في جل الأعراق الأخرى، واستطاع «ڤالهاجرس» أن يصنع سائلًا يعطي للأشاوس قوة رهيبة ليست في مخلوق وتنقلهم

لعالم آخر غير هذا يسمى عالم الظل، حيث باستطاعتهم أن يستدعوا ظلالهم، وتعطيهم قدرة شفاء هائلة جدًّا وسريعة، وأطلق على هذا الشراب اسم؛ «الستريــجا»، وبلغة الأسياد القديمة تعني «السائل السحري».

- ماذا سيحدث إذا تناول العرق البشري الستريــجا يا أبي؟

- صنعت الستريــجا لتلائم أجساد وأرواح الأشاوس فقط، وإن تناولها بشري ستكون تلك نهايته الحتمية لا محالة، لن يتحملها العقل البشري الهش، وسيجن من يتجرعها في النهاية، ستعبث في عقله، وستطارده أسوأ مخاوفه في أحلامه ويقظته.

ثم استطرد: «كما حدث مع الملك إيغور الأول، زاره ملك الأشاوس حينها والذي كان يدعى «جلادور» وأعطاه السائل كهدية له، تجرعه الملك إيغور بالرغم من جم التحذيرات التي تلقاها من مستشاريه، ثم عبثت «الستريــجا» بعقله حتى جن جنونه في النهاية، ومات صريعًا داخل أحد كوابيسه التي لم يتحملها عقله!».

صمت أركام للحظات استوعب فيها كلمات السيد والده، ثم أردف بذهول متفاجئًا مندفعًا من وقع الأفكار في رأسه: «هل يتــجرع أطلس الستريــجا؟».

كان داريوس يثق في ذكاء أركام، وكان يعرف أنه سوف يصل إلى الحقيقة سريعًا، فأردف:

- أطلس لا يتجرع الستريــجا، بل تدس له من خائن في البلاط!

وأرخى ظهره على كرسيه وأردف: «ولهذا لن يستطيع حل تلك المشكلة أحد سواي، أعرف أطلس جيدًا، ويــجب كشف الخائن في أسرع وقت ممكن».

قال إيڤار بعد أن فكر قليلًا: «إذا كان تناول الستريــجا لا يتحمله العقل البشري، وتطارده أسوأ المخاوف في عقله الباطن والأحلام واليقظة، إذن لماذا أطلس يخشى الغربان؟».

قال داريوس بجدية وحزم:

- لقد أخبرتكم بما يكفي، لكي لا ينخر التساؤل عقولكم عند مغادرتي، أحيانًا تصبح المعرفة لعنة، ربما سوف تعرفون كل شيء في وقته المناسب.

وصمتوا وسكت الكلام بينهم، انتصب أبوهم وهمّ بالنداء على قيم السلاح في القلعة، فتقدم ممسكًا في يده ثلاثة صوارم تقبع داخل أغمادها، انحنى ووضع الصوارم على الطاولة وأردف: «كما تأمر يا سيدي، كل شيء بات جاهزًا الآن!».

أومأ داريوس برأسه وعلى وجهه ابتسامة فانسحب قيّم السلاح وغادر، ورمق ثلاثتهم الصوارم على الطاولة، حمل أحد الصوارم في يده وجرده من غمده فأصدر صليلًا هادرًا أذهل أسماعهم جميعًا، توهج النصل بلمعان باهت، كان لونه يميل للأسود الغامق المنطفئ؛ كالعقيق الأسود تمامًا، كان النصل عريضًا جدًّا وطويلًا، وكان السيد والدهم يحمله بخفة وبيد واحدة، ما أثار الذهول والتساؤل بداخلهم في آن واحد، فقال داريوس مطفئًا التساؤل الذي هب كالنار في عقولهم:

- تلك السيوف صنعت من فولاذ «الأرك» المقدس، قبل آلاف السنين، وفي عصر الأسياد الأوائل سقط شهاب مشتعل من كبد السماء، كان حجمه هائلًا أضاء عتمة الليل بنور فاق نور الشمس، كان معدنه أصلب من الفولاذ وأخف من الريشة، استخدمه الأشاوس قديمًا في بناء قلعتهم «عدن»، وبعض السيوف والدروع التي تعد عدًّا على الأصابع، على كل نصل من هؤلاء حفر اسم كل واحد منكم باللغة القديمة للأسياد التي طرقت بالتمائم السحرية، كل نصل يحمله سيد منكم!

حمل سيفًا آخر من على الطاولة، كان أكبرها حجمًا وأكثرها حدة، ثم نظر إلى أركام وأردف:

- هذا السيف شاركت به في حرب الإبادة، أصلب من الفولاذ وأخف من ريشة، أطلقت عليه الحكايات اسم «الهلاك الأسود»، للون فولاذه القاتم، وهو لسيد الإقليم من بعدي؛ لك أنت يا أركام.

اقترب أركام وانحنى للسيد والده على ركبته وتناول من يده السيف، وسل النصل من غمده، كان خفيفًا جدًّا كما قال له السيد تمامًا، وكان اسمه محفورًا في الفولاذ باللغة القديمة للأسياد، ورمقه بشدة، كان له رونق وجمال باهر، لم ير نصلًا مثله قط في حياته، فقال بامتنان شديد:

- شكرًا لك أبي.

وتناول كل من إيدجار وإيڤار نصليهن من الطاولة، كانوا يشعرون بسعادة غامرة، غمرت قلوبهم وأفئدتهم، تلك كانت المرة الأولى التي يحمل فيها الفتى إيدجار نصلًا حقيقيًّا من الفولاذ المشحوذ، كان يحمله بكلتا يديه، يكاد أن يسقط النصل من بين يديه؛ ثقيلًا كان على ذراعيه النحيلتين كالبوص، ولكن بعد محاولات عديدة رفعه أخيرًا لأعلى باتزان وخفة، ثم قال السيد والدهم:

- سوف أغادر غدًا صباحًا، وبيننا قسم مقدس قد أقسمتموه لي بأسماء الأسياد، أتذكرونه؟

قال ثلاثتهم معًا: «لن تطأ أقدامنا أرض العاصمة ما حيينا أبدًا حتى الممات، هذا قسم نقسمه لك بأسماء الأسياد الأوائل وعهود ما قبل الفناء!».

استرد آجينار كل متعلقاته المسلوبة من ألكيدس قبل انطلاقه من العاصمة؛ سيفه «العويل» أولًا، ثم درعه ذات الملمس الخشن المصنوعة من جلد التنانين، وما تبقى من «الستريــجا» والتي لم يتبق منها الكثير على أية حال، وخرج فوق جواده منحدرًا شمالًا نحو نهر «المثلث» ليبدأ رحلة بحثه عن الأمير المفقود؛ «إلكادور»، ربما تأخذ تلك الطريدة شهورًا وربما أعوام لإيجادها، دائمًا ما كان ماهرًا في تعقّب الآثار وصيد الجوائز، ولكن إلكادور ليس طريدة عادية أبدًا، هو يعلم هذا جيدًا، وربما تمر دهور حتى يصل إلى طريدته.

عبر تلال «آشاي» المتموجة بالأخضر البهيج، مرورًا بمزارع مدرجة وقرى صغيرة امتلأت بضجيج العابرين نهارًا وصوت صرصور الحقل ليلًا، وعندما حل عليه الليل وغابت الشمس وخبا الضوء رويدًا رويدًا وعم الظلام الأرجاء، خيم أعلى التل بجوار شلال أزرق عالٍ، واصطاد غزالًا شرد من قطيعه، وأشعل نارًا بعد أن سلخ جلده عن عظامه، وتناول اللحم المشوي على النار حتى شبع وامتلأت معدته، وقضى الليل بصف نومٍ، ونصف أعين مغمضة، ونصله منتبه لأي خطر مُــحدق.

وعندما استيقظ صباحًا تهيأ لمتابعة رحلته الطويلة، وتناول ما تبقى من طريدة ليلة أمس، وشرب من الشلال الأزرق حتى ارتوى، واعتلى جواده الجامح وتحرك منحدرًا شرقًا ناحية غابة «الفضة» الملكية.

وتحرك عابرًا ممر الأفاعي بحذر شديد؛ كانت أرض الممر معوجة غير مستقيمة؛ تتلوى تحت قدميه كأفعى سامة، وعن يمينه تقع أطلال مدينة «النسيان» المهجورة، والتي هجرها أهلها زعمًا منهم أنه وعندما يطرق الليل أبوابه يسمعون نحيبًا لأموات ملعونة سفكت دماؤهم على هذه الأرض، كانت فروع الأشجار تلتف حول المباني بكثرة؛ تستحوذ عليها من كل جانب، ونمت الأعشاب بكثافة حتى غطت الجدران والأبواب والنوافذ، يقال إن تلك المدينة تركت مهجورة لأكثر من مائتي عام.

عبر مدينة النسيان المهجورة منحدرًا إلى غابة «الفضة» الملكية، كانت الأشجار ذات فروع ضخمة جدًّا يتدلى منها فاكهة «التفاح» الفضي، وكانت هذه الفاكهة من أندر الفاكهة في المملكة بأسرها؛ لا تنمو إلا في غابة «الفضة» الملكية، ولا يأكلها سوى الملك والأمراء والعوائل العريقة في «إيڤيريا» وعمدت أوراقها الخضراء بأن ترسم ظلالًا على أرض الغابة عندما انهمر عليها ضوء الشمس عند الغسق، ومر به قطيع من الغزلان

والظباء ذات القرون هائلة الحجم، كان المنظر ساحرًا في الغابة الواسعة ذات الأشجار المهيبة والأواق الخضراء البهيجة، وأبطأ حركته ثم وثب عن ظهر جواده بخفة ورشاقة، وشد اللجام مشيًا على قدميه برفق وهدوء، ونشد الراحة قليلًا، وكان لا يزال يشعر بالإرهاق بعد يوم طويل من الركوب على ظهر جواده، ولكن إرهاقه قد تحول إلى شغف عندما تمشى في الغابة واستنشق بعض الهواء الملكي النقي، وشاهد أسراب الطيور وقطعان الأوعال تهيم من كل مكان حوله، وتحرك غامرًا نفسه داخل أغوار الغابة.

وعندما رحل الغسق وهبطت الشمس، سطعت نجوم وكواكب عدة في السماء بألوان شفق خلابة، حينئذ تلاشى الإرهاق شيئًا فشيئًا، لنصف قمر قد تحرك خلال أغوار غابة «الفضة»، وخاض في نهر واسع هادئ، وعندما بلغ أقصى النهر، مشى طريقًا مستقيمًا كالسهم نهايته كانت مخرجًا من الغابة.

خرج إلى السّهل فاقدًا نفسه في الأخضر الشاسع، وابتلعه الأخضر البهيج، وضرب وجهه وصدره هواء نقي بارد؛ معبق برائحة التربة والعشب، وشعر بالسلام والسكينة في المروج الخضراء الواسعة، واعتلى جواده وانطلق به في السهول الواسعة؛ كأنه كان في سباق مع الريح المزمجرة، استنشق بقوة الهواء العابر وملأ به صدره ورئتيه وروحه، وشعر بانتشاء وحرية؛ لم يشعر بها منذ فترة طويلة جدًّا.

وتابع رحلته ليومين متتاليين فوق ظهر جواده عابرًا السهول الخضراء غير عابئ بالرياح العاتية التي كانت تبطش به، وفي اليوم الثالث بدأ الضباب بالانتشار على مدى بصره وبدأ يزداد رويدًا رويدًا مع رياح عاصفة وشروق بارد للشمس التي اختبأت وراء السحب الملبدة، واستحالت السهول الخضراء بأرض جدباء يكسوها طبقة من الثلج الخفيف.

وعندما اقترب أكثر أدرك أنه قد بلغ أخيرًا «وادي الضباب»، كانت جبال «غالكوم» تتوشح بالثلج الأبيض الناصع، خفق معطفه وحلّق خلفه من الهواء العاصف، وشرب هو وجواده من ينبوع «الشريان»؛ من أعلى منكب الجبل، وانحدر برفق من المنحدر الشاهق للجبل، متبعًا ينبوع الشريان لأسفل، ممسكًا في يده لجام جواده، آخذًا حذره الشديد كي لا يتعثر جواده في حجر.

وبلغ أخيرًا نهاية المنحدر الجبلي، ميزت عيناه الدخان المتصاعد من على بعد ميل، وعندما اقترب وأدرك أنه كان معسكرًا للجيش؛ حاملًا رايات الملك أطلس ورفرفت الرايات وحلّقت خافقة مع الرياح الغابرة.

وتحركت صفوف الجنود بأمر صادح من القادة، وراقب آجينار الوضع من مسافة تكاد أن تكون قريبة، وأتاحت له الرؤية الواضحة وكشفت له المعسكر بالكامل؛ انتشرت خيم الجنود على مسافات قريبة من بعضها وبجوار كل خيمة حفرة من اللهب

التي تم إخماد شعلتها بالتراب والماء؛ في الليل يصبح البرد قارسًا، فيعيدون إشعالها بالحطب الذي احتطبه الجنود في صباح اليوم من فروع الأشجار القريبة من الغابة، واصطاد الجوّالون وعلًا ذا فراء أبيض حيث موطن قطعانه تقع أعلى جبال «غالكوم» الثلجية، نزع الجنود قرنيه العملاقين المدببين كالسكاكين، وسلخ جندي آخر جلده الأبيض كالثلج وتم إرساله لتتم دباغته؛ ليتدثر -لاحقًا- من أسفله جسدًا لجندي تصر أسنانه وعظامه من البرد القارس، وعلّق ما تبقى من جسده تمهيدًا لتقطيعه إربًا، وتوزيعه على جنود المعسكر.

على بعد ميل كانت تقع غابة «الصقيع»، فتحرك على ظهر جواده شمالًا متجهًا نحو الغابة، كانت الغابة يلفها الصمت والضباب الأبيض العاتي، كانت الأغصان متشابكة وبارزة، وكانت الأشواك الحادة تنبت من فروع الأشجار ومن الأرض ومن كل مكان، ودلف بحذر إلى الغابة وابتلعه الضباب العاتي.

كان الصمت هادرًا داخل الغابة، لا صوت يسمع إلا صوت الرياح، ولا طير يحط على الأغصان ذات الأشواك، شعر بدبيب خفيف يدب من خلفه وشعر جواده بالخوف والهلع ورفع قائمتيه إلى أعلى فزعًا، حاول آجينار تهدئة جواده الهائج، وربت على رأسه وجسده، هدأ الجواد ومعه هدأ كل شيء آخر، وعاد عزيف الرياح بالغناء مجددًا.

وشد لجام حصانه وتابع سيره بهدوء سابرًا أغوار غابة الصقيع، وبين حجب الضباب العاتي وقف شيء ما، لم يستطع آجينار أن يحدد ما هو تحديدًا، كان الضباب يغلفه من كل جانب، حتى اقترب قليلًا وتبينت له الرؤية رويدًا رويدًا، كان ذئبًا رماديًّا مكشرًا عن أنياب حادة وقاطعة يقترب منه بخطوات هادئة وضيقة، كاد آجينار أن يسحب «العويل» من غمده، ولكن استوقفه السكين الذي وضع على رقبته بغتة منه، داعب شعرها ذو اللون البني الهائم وجهه حين هبت الرياح، ابتسم آجينار وقال:

- كيف حالك يا «ميڤيا»؟

اقترب الذئب الرمادي من آجينار بفكه المفغور كاشفًا عن أنياب لمعت في جنح الظلام كالفولاذ الحاد، وتصلّب الذئب عن الحركة في اللحظات الأخيرة عندما أعطت له «ميڤيا» إشارة بالتوقف، ثم قالت لآجينار:

- مرحبًا بك يا أخي العزيز... بعد مرور كل هذا الوقت!

أيام ثلاثة مرت منذ خروجه من الإقليم على رأس العربة الملكية، كانت الرحلة طويلة جدًّا وبلا توقف، أرسل الرسول الملكي رسالة للملك قبل انطلاقه من الإقليم عن عودة

الكونت «داريوس» معه إلى العاصمة، وانتشر الخبر في كل ركن من أركان العاصمة والأقاليم الأربعة كافة؛ عن عودة يد الملك المنفي لمنصبه المعهود، جهل الجميع سبب نفيه منذ سنين عديدة كما جهلوا سبب عودته مجددًا أيضًا، وعندما تنوقلت الأخبار بين ألسنة الناس، دب السرور والفرح في قلوب الجميع بعودة «داريوس؛ رجل الشرف الملكي» كما كانوا يلقبونه عندما كان حاملًا لمنصب ساعد الملك ويده اليمنى، وظل الشعب يلقبه بهذا اللقب حتى بعد أن تم نفيه وسلب منه كل المناصب والألقاب، أحبه الشعب وأحبه القادة والأميرالات لشرفه وعدله، ليس هناك رجل أو فارس في إيڤيريا قاطبة لم يسمع الحكايات عن رجل الشرف والأمانة؛ ذي المنصب الذهبي الأعلى، يد الملك التي بترها الملك بقرار أهوج ليس في محله أبدًا؛ «داريوس».

كان ما يزال على متن جواده حين دخلت العربة الملكية البوابات الجنوبية للعاصمة، ارتفعت أصوات الترحيب بحرارة، وحياه الناس بتحيات عديدة وصاخبة، وألقوا عليه الورود والزينة، وارتفعت موسيقى وألقى الناس الأغاني التي تحكى عن البطل الأسطوري الذي ربح الحرب وذبح العمالقة بسيفه الذي يتحاكى عنه الرحالة ومنشدو الحكايات والذي أطلق عليه البعض في الحكايات اسم «الهلاك الأسود»؛ للونه الأسود القاتم من فولاذ «الأرك» المقدس، انتشرت الحكايات في كل ركن من أركان المملكة بعد حرب الإبادة مباشرةً، على ألسنة الناس ومنشدي الحكايات؛ عن قاتل العمالقة والوحوش الضارية، مخترقًا صفوف العدو ومستعيدًا شرف أطلس المسلوب من الأمير إلكادور؛ «داريوس» ابن «فاندرال» وحفيد «هيمدايل» الأول والعظيم؛ أول سيد لإقليم الأسياد، وقائد الجيش لصاحب السيادة البشرية الملك «إيغور»؛ العابر من بحر الرماد، عبر داريوس البوابة الشاهقة وسط احتفاء كبير من شعب إيڤيريا بعودته، وعند بلوغهم حي القصور تزينت الشوارع خصيصى له، واستقبله عالي القوم في حي القصور كما استقبله العامة باحتفاء وحب وتحيات بالألسن والأيدي معًا.

حين دخل الخاصة الملكية شعر بإرهاق وجوع شديدين، كان ما يزال على متن حصانه الأصهب، في تلك اللحظة لم يكن يحلم بشيء سوى طبق من لحم وعل مشوي طري، وفراش وثير يتمدد عليه ليبدد تعب تلك الرحلة الطويلة التي أنهكت قواه، ولكن للأسف الشديد لم يكن هناك الوقت الكافي لكل تلك الرفاهية، لم يعد إلى العاصمة ليأكل وينام، ومر بالساحة الواسعة التي أطلق عليها الناس ساحة
«الرؤوس المعلقة»؛ لسبب يعرفه داريوس جيدًا، وظل يرمق الساحة بصمت بالغ؛ تتقلب في رأسه صفحات ذكرياته ككِتاب، وفي النهاية تأتي الصفحات الأخيرة من الكتاب بليل لا ينتهي، وظلام لا يتبدد، ونعيق غربان يختلط بسمفونية ملعونة ولا يكفان كلاهما عن كسر سكون الليل.

واستيقظ داريوس من الظلام الذي بدد الضوء للحظات التي تأمل فيها الساحة حين اقترب منه ساعد الملك الذي عينه أطلس بعد أن تم نفيه؛ «ألكيدس»، لقد رأى داريوس الرجل عدة مرات قبل أن يتم نفيه، كان يعمل في البلاط الملكي كوزير للخزينة وقتها، ولكن الآن أصبح يد الملك وكلمته، اقترب من داريوس ثم أحنى رأسه احترامًا وقال:

- مرحبًا بك كونت داريوس.

نظر له داريوس بنظرة باردة كالثلج، ولم يعقّب؛ منتظرًا أن يعرّف المتحدث عن نفسه، فاستطرد ألكيدس: «أدعى ألكيدس، مستشار البلاط الملكي، ويد الملك وساعده».

مد داريوس يده وقال بنبرات هادئة جدًّا: «مرحبًا بك ألكيدس».

تناول ألكيدس يده بحفاوة وأردف:

- إنه لشرف عظيم أن أقابلك كونت داريوس.

- الشرف لي ألكيدس!

- جلالة الملك بانتظارك منذ وقت طويل.

قال داريوس بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة صارمة: «فلينتظر إذن!» .

- لقد انتظر كثيرًا، أكثر من اللازم.

حرك داريوس رأسه بشيء من الأسى والحزن العظيم: «هيا بنا».

ومشيا معًا بمحاذاة البحيرة الشمالية، نظر ألكيدس إلى داريوس وأردف:

- لم يتغير شيء البتة منذ رحيلك كونت داريوس.

نظر الكونت داريوس إلى ألكيدس بصمت للحظات وأردف: «لقد تغير كل شيء يا ألكيدس، لقد تركت البلاط الملكي منذ عشر سنوات، الحوائط ما تزال هي الحوائط، أما كل شيء آخر لم يبق كما تركته أبدًا!».

ثم سأل: «هل ما تزال دعوى الملوك قائمة؟».

- لم يجتمع الملوك التسعة في «إيڤيريا» منذ اجتماعهم الأخير؛ الذي أقيم منذ عشر سنوات، وكانت آخر حفلة قد أقيمت للممالك باسم الملك أطلس، هي حفلة؛ «الرقصة الأخيرة» التي رأى فيها الأمير إلكادور إيڤيدوكيا شقيقة أطلس.

- هل جاء جلادور إلى هنا منذ نهاية الحرب؟

- لا، ملك عرق الأشاوس لم يأت للمملكة منذ انتهاء الحرب.

- ولم يأت فرد من الأشاوس للملك طوال تلك المدة؟

صمت ألكيدس قليلًا وقال بفضول: «نعم، كيف عرفت؟ إنه آجينار؛ أحد الأشاوس الذين ارسلهم جلادور لأطلس!».

- ألا تعرف ما السبب؟

- عندما يئس الملك في إيــجاد إلكادور، أرسل رسالة لجلادور يطلب فيها فردًا من الأشاوس؛ وأرسل جلادور المدعو بآجينار ليقتفي أثره.

صمت داريوس وقال بحزن بليغ: «بعد كل هذا الوقت!».

ثم همس: «فلترحمنا الآلهة!».

وظل يفكر بعمق بالغ، حتى بلغ القصر الملكي، ودخل ألكيدس إلى الملك، كان أطلس جالسًا على عرشه وبجواره زوجته هيميريا، وصل الخبر للملك عن وصول داريوس منذ ساعة من الزمن، ولكن مرت تلك الساعة كأنها دهور مديدة، أو زمن سرمدي توقف عن العبور، وقفز قلبه من صدره عندما اقترب ألكيدس، انحنى ثم أردف:

- فليحيا الملك أطلس.

نظر أطلس لزوجته هيميريا، ثم التفت إلى ألكيدس حين انتصب على عرشه وأردف:

- أين هو يا ألكيدس؟

ابتسم ألكيدس: «الكونت داريوس في الخارج يا مولاي ويستأذن في الدخول».

- دعه يدخل حالًا. قالها أطلس بلهفة.

وخرج ألكيدس للحظة ثم عاد ودلف للداخل ومن خلفه كان داريوس الذي تفحص كل ركن من أركان قاعة العرش بعينيه، ونظر للتمثال الحجري الهائل في مقدمة القاعة، - يا رباه! - ثم رمق وجه إيڤيدوكيا مطموسة كانت الملامح الحجرية - وتساءل- كم من الوقت مر هنا؟ هل هي عشرة أعوام كما مرت بالخارج؟

انبعث من الزجاج المعلّق ضوء أحمر دموي على ساحة العرش، وتأجج اللهب وطقطق في أتنه وسرجه، واقترب داريوس، وظل يرمقه أطلس بإمعان وبصمت بالغ هز صدره وقلبه حتى دنا رويدًا رويدًا، وتقابلت العينان والأرواح ولم تتنافر، وحين بلغ داريوس دائرة العرش، ظل كلاهما يتبادلان نظرات صامتة للحظات طويلة، حتى انحنى داريوس أمام الملك أطلس ويقول:

- فليحيا صاحب السيادة؛ الملك «أطلس» ابن الملك «أمناديل» الأول من اسمه وحفيد صاحب السيادة الأول الملك «إيغور»؛ صاحب العبور العظيم.

بقدمين بالكاد تتزحزحان تحرك من على عرشه، وبصعوبة بالغة اقترب أطلس من داريوس، وظل يرمقه بعينين تمتلئان بالكلمات والدموع على حد سواء، واكتفى بالصمت وكأن لسانه قد أصابه الشلل؛ فلم يعد يستطع أن يتحدث بعد الآن، فتح أطلس ذراعيه وتكللت عيناه بالدموع؛ تكاد أن تنهمر في أي لحظة، وضم داريوس بعناق طويل جدًّا وقوي؛ يكاد أن يسحق فيه عظامه، ثم نظر في عينيه، كانت عينا أطلس تتوسلان بالرحمة والمغفرة بصمت لم يدركه أحد سوى داريوس نفسه، وظل أطلس يرمقه حتى نطق أخيرًا:

- لم رحلت عليك اللعنة؟!

نظر داريوس في عيني أطلس، كان يذكر المعركة التي فقد فيها إحدى عينيه بالتأكيد، في معركة «بركة الدماء»؛ يذكر هذا جيدًا كأنه حدث البارحة، عندما تواجه أطلس وإلكادور في معركة فردية؛ نزال دام لساعات طويلة، لم يحصل فيها أطلس إلا على يد إلكادور، كان أطلس بدرعه الذهبية وفوق خوذته قرنان ذهبيان تملؤهما الهيبة، وبرمحه الطويل كاد أن يخترق صدر إلكادور؛ ولكن حال بينهما سهم أهوج اخترق الهواء بسلاسة قبل أن يتلف عين أطلس اليسرى، وتلك الإصابة أتاحت الفرصة لإلكادور بأن يهرب بعيدًا؛ رجل بيد واحدة لن يبلي جيدًا في نزال بالسيف.

وتذكر كل هذا عندما رأى رقعة العين التي اعتلت عين أطلس، فقال:

- رحلت امتثالًا لأوامرك؛ جلالتك.

وضع يده على كتف دار يوس وأردف:

- عليك اللعنة يا داريوس! منذ متى وأنت تمتثل لأوامري الحمقاء؟

- على أوامر الملك أن تنفذ، حتى وإن كانت حمقاء!

أطلق أطلس ضحكة رجت أرجاء القاعة وأردف: «لهذا أحببتك أيها اللعين، لا يهمك أنني الملك قط، تنظر في عيني دائمًـا وتخبرني بالحقيقة كما هي؛ بكل بشاعة كانت».

- الحقيقة تظل هي الحقيقة جلالتك.

واقتربت الملكة هيميريا، فأحنى داريوس رقبته احترامًا وأردف:

- فلتحيا هيميريا؛ ملكة إيڤيريا الجميلة.

قالت بابتسامة: «فلتحيا كونت داريوس، لقد مر وقت طويل، تغمرني السعادة بعودتك إلى مكانك القديم وموطنك الحقيقي».

- شكرًا لك يا مولاتي.

ثم جلس أطلس على عرشه وأردف: «مرحبًا بعودتك يا صديقي القديم».

- جئت ملبيًا دعوتك جلالة الملك.

- ما زال مكانك شاغرًا كما هو؛ يد الملك وكلمته.

نظر داريوس إلى ألكيدس في الجوار، ولم ينطق الأخير، فاستطرد أطلس:

- ستعود الأمور إلى نصابها القديم، أنت يد لي وألكيدس وزير للمالية ومستشار في المجلس الملكي أيضًا.

حينها انحنى ألكيدس امتثالًا لأوامر الملك أطلس، وخلع تاج يد الملك ومستشاره الأول من فوق رأسه؛ وغادر منسحبًا من القاعة الملكية بهدوء، لم يكن داريوس يريد استبدال أحد وأخذ مكانه، ولكن كان هذا مكانه المناسب من البداية، وكان داريوس –دائمًا– يدًا للملك وصديقًا وفيًّا له، وعادت الأمور إلى نصابها الطبيعي؛ منذ أكثر من عشرة أعوام خلت.

وبعد مرور دقائق شعرت الملكة بتوعك شديد، واستدعى لها أطلس الطبيب سوران على الفور، وانسحبت الملكة من قاعة العرش من فرط ألمها وتحاملت على وصيفتها حتى بلغت غرفتها، كان أطلس وداريوس يعلمان جيدًا أنها آلام الوضع، وتبادلا نظرات يملؤها قلق دفين.

ثم أردف الملك: «لعلك تلقيت رسالتي لك».

- نعم جلالتك.

- ستلد هيميريا بعد أيام.

- نعم، ستلد الملكة قريبًا جدًّا.

صمت الملك قليلًا ثم عاد يقول:

- إذا كان المولود ذكرًا...

قاطعه داريوس بحدة: «سيعيش، إذا كان المولود ذكرًا سيعيش!».

قال أطلس بغضب شديد: «عليك اللعنة يا داريوس، هل نسيت الكلمات الموعودة؟».

- لا وجود للكلمات الموعودة يا أطلس إلا في عقلك، فأنا لا أؤمن بالنبوءات!

- لا تخطئ النبوءات أبدًا، هل رأيت نبوءة لصاحب المعرفة كانت كاذبة قط؟

لم يعقّب داريوس وآثر الصمت، فأكمل أطلس: «أصلي للآلهة منذ أن حملت هيميريا أن يكون المولود فتاة، هل تظن أن قلبي لا يحترق منذ عشر سنوات؟ - منذ حادثة سرب الغربان - لعشر سنوات أسراب الغربان تطاردني في أحلامي، أسمع نعيقها في أذني طوال الوقت، وأسمع صوت رفرفة أجنحتها التي تتطاير في سقف قصري ليل نهار؛ تنتظر موتي، هل تظن أنني سعيد باللعنة التي أصابتني يا داريوس؟!

كان يتحدث بهذيان شديد، وأشفق عليه داريوس ثم اقترب منه، وربت على كتفه وأردف:

- سيكون المولود فتاة، أعدك بذلك!

- لا أحد يضمن القدر يا داريوس، ولا حتى أنت، ولكني لا أريد أن أخسر ابنًا آخر، كنت أحبه بشدة، أحببته أكثر من أي شيء آخر، ولكنه القدر يا داريوس، قد أخذ مني كل من أحببت، ابني، شقيقتي، ثم في نهاية الأمر... أنت!

- أنا هنا يا أطلس، بجوارك!

- سترحل، كما رحل عني الجميع.

- لن أرحل، فأنا الآن يد الملك وكلمته.

أمر أطلس أن يتم تجهيز الجناح الغربي للقصر من أجل داريوس، كانت الرحلة طويلة ومنهكة للقوى، وشعر بالإرهاق الشديد، كما كان يشعر بالجوع أيضًا، سيقوم أطلس بإقامة مأدبة على شرف عودة يد الملك إلى نِصابها الحقيقي، ولكن سيترك أمر المأدبة الآن لحين ولادة الملكة، وداريوس لا يهمه أمر المأدبة التي سوف تقام على شرف عودته قط، لقد عاد إلى العاصمة لهدف محدد سوف يبلغه ثم يعود في أسرع وقت ممكن لإقليم الأسياد ولعائلته؛ موطنه الحقيقي.

كان منهك القوى، وعندما جن الليل عليه تناول الطعام وغط في نوم عميق لا مناص منه، فالأيام القادمة هو يعلم جيدًا أن لا نوم فيها يأتي!

بعد منتصف الليل، وعندما غط الجميع في نوم عميق، تسللت بخفة على أطراف أصابعها حتى لا يشعر بها أحد، وتسللت من غرفتها إلى سرداب القصر وأمرت الجنود بالتنحي عن الحراسة الليلية، وتناولت مشعلًا في يدها ونزلت سلالم السرداب بحذر

شديد، كان السرداب مليئًا ببراميل النبيذ ومؤن الطعام المخزنة، ولكن لم يكن هذا ما كانت ترنو إليه أبدًا.

كانت الفتاة تقف في جنح الظلام، في نهاية السرداب، وحيدةً، يغشاها الظلام المجحف؛ هناك حيث كانت تنتظر الملكة، واقتربت الفتاة من الملكة هيميريا وناولتها قارورة؛ بداخلها سائل أحمر دموي؛ يشبه الدماء تمامًا، تناولتها هيميريا وأردفت بابتسامة على وجهها:

- «شكرًا لك يا لاجرثا!».

النعيق الثامن

«غربان في الغابة الملكية»

8

عبأ الضباب الشاحب عبابه بين أركان غابة الصقيع كافة، واخترق صوت الرياح المزمــجرة لثام الصمت الهادر، وظل يتساقط من أعلى السماء ثلج أبيض ناصع خفيف الوطأة، وكان البرد قارسًا جدًّا وتدثرت «ميڤيا» تحت فرو دب ذي لون بني وثير. جلد التنين الذي يرتديه «آجينار» كان سميكًا للغاية وذا حراشف خشنة وحادة؛ ولن يخترق الصقيع جلد تنين أبدًا؛ لا يخترق شيء جلد التنانين؛ سوى شيء مقدس للغاية؛ تعويذة قوية أو تميمة سماوية أو أخيرًا فولاذ «الأرك» الذي انقرض منذ آلاف السنين.

جلس آجينار على جذع شجرة مبتور وربط جواده من لجامه بغصن متشعب، أخرج العويل من غمده واضعًا إياه على ركبته؛ وبحجر خشن وصلب تناوله من الأرض أسفل قدميه، وظل يشحذ به سيفه حتى تفتت الحجر بين يديه واستحال غبارًا ذرت به الرياح، كانت شقيقته «ميڤيا» تقف أمامه وبجوارها ينتصب ذئبها الشرس؛ كاشفًا عن أنيابه القاطعة كالفولاذ، لا يكاد أن يستسيغ آجينار حتى الآن؛ متحفزة كانت أطرافه للانقضاض عليه في أي لحظة مقبلة، منتصبة أذناه يشعر بخطر محدق وقريب؛ منتظرًا كان إشارة من صاحبته؛ فتاة الغابة «ميڤيا» للانقضاض بأنياب حادة ومخالب مشحوذة متأهبة كالصوارم، لم يكن آجينار يشعر بذرة من الخوف في دمائه، لقد واجه ما هو أسوأ وأكثر شراسة من ذئب ضار، ولم يكن لقطيع من الذئاب أن يشعره بالخوف قيد أنملة واحدة، نظر آجينار إلى «ميڤيا» وعندما التقت النظرات لم يترد رنين الاصطدام، وضرب آذانهم الصمت مع حفيف الأشجار المتشابكة ممزوجًا بعويل الرياح المخيف.

«معركة الأغصان الحزينة»؛ تلك كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها «آجينار» شقيقته «ميڤيا»؛ منذ أكثر من عشرة أعوام تقريبًا، في حرب الإبادة كانت تمتطي الجريفن المقدس؛ وتشق بنصلها حلوق مئات من جنود «إلكادور»، حتى اخترق صدره رمح أطلق من منجنيق يحمل قوسًا ذا نشابة؛ صنع خصيصى لصيد الجرفين في الهواء، عبر السهم العملاق في الهواء بسلاسة مخترقًا صدره قاسمًا قلبه إلى نصفين حين اخترق أضلاعه، وتداعى من أعلى السماء ساقطًا بخشونة، صريعًا؛ لافظًا آخر أنفاسه بين يديها، وظلت تبكي، لأول مرة يراها آجينار تبكي وتصرخ غضبًا على السماء، وكانت تلك المرة الأخيرة أيضًا التي قد رآها فيها، واختفت تمامًا بعد انتهاء الحرب!

وظل يرمقها للحظات حائرة لم يعرف ما قد يقول فيها؛ لقد صنعت عشر أعوام فيها ما لم تصنعه مائة عام كاملة، أزالت وشم الأشاوس من على رقبتها، وتخلت عن القوانين التي كانت تحترمها بشدة، كانت كما يتذكرها جيدًا فتاة رقيقة جدًّا، لا تحب

القتل أو سفك الدماء، وعارضت المجلس الأعلى عن الخوض في حرب البشر، ولكن المجلس الأعلى أقر بخوض الحرب مع البشر ضد الأمير إلكادور رغم ذلك، وشارك الأشاوس في تلك الحرب نزولًا على قرار الملك والمجلس الأعلى، ومحرم على الأشاوس كسر أوامر الملك أو المجلس الأعلى على حد سواء، ولكن ما يراه أمام ناظريه الآن كان مختلفًا تمامًا، لم تكن تلك «ميڤيا» شقيقته التي كان يعرفها؛ باتت الآن شيئًا مختلفًا لا يكاد يعرف عنه شيئًا قط.

أردفت «ميڤيا» بعد مرور لحظات رمقها فيها شقيقها:

- ما الذي تفعله هنا يا آجينار؟

أجاب آجينار بعد أن تناول حجرًا آخر من الأرض وأكمل شحذ سيفه:

- موكل بمهمة.

- طريدة؟

- نعم!

ثم سألت «ميڤيا»:

- من هو طريدتك؟

توقف عن شحذ سيفه للحظة، ثم نظر لها بصمت للحظات أخرى بعدها أردف:

- الأمير إلكادور.

صمتت قليلًا حتى استوعب عقلها ما سمعته الآن، ثم قالت بشيء من الغضب مشتعلة كاللهب: «بحق الأسياد! ما الذي تقوله؟».

- كما سمعت يا ميڤيا!

هدأ لهيب غضبها العاتي، ثم قالت بذهول غير مصدقة: «إلكادور؟ مجددًا!».

- مهمتي تقتصر على إيجاد الأمير إلكادور، وإحضاره لأطلس على قيد الحياة، أو على الأحرى جسدًا برأس مبتور!

- ولكن هل إلكادور على قيد الحياة؟

- لا أعرف، ولهذا جئت إليك يا ميڤيا.

ربتت «ميڤيا» على رأس ذئبها مداعبة إياه، فاسترخى قليلًا ومالت أذناه المنتصبتان قليلًا، ثم قالت:

- معك علامة؟

- بلى؛ معي علامة!

- أعطني إياها.

وضع آجينار «العويل» في غمده وانتصب وتحرك نحو جواده المربوط من لجامِهِ، بجانب السرج كانت حقيبته معلقة، مد يده بداخلها وأخرج منها صندوقًا صغيرًا، وتقدم نحو «ميڤيا» مناولًا إياها الصندوق الخشبي، وعندما تناولته أماطت الغطاء فوجدت في الصندوق بقايا يد مبتورة، تحللت أطرافها؛ متيبسة ذات لون يميل إلى الأصفر القاتم الذي لا حياة فيه، واقتربت واستنشقت بقايا الغبار المتحلل، واخترق أنفها بضراوة، وبعد لحظات أغلقت فيها عينيها متأملة في اللاشيء، ثم أغلقت الصندوق مجددًا ونظرت إلى آجينار وقالت:

- اتجه شمالًا؛ ضالتك لا تزال على قيد الحياة.

وناولته الصندوق، وتناوله من يدها بعد أن حرك رأسه تفهمًا، ثم نظر لها وسأل:

- ما الذي تفعلينه هنا يا ميڤيا؟

- أنا هنا بأمر من جلادور!

قال آجينار بانزعاج شديد:

- ما الذي يخطط له جلادور بحق الأسياد؟

- هناك حرب قادمة، يراها جلادور في رؤياه، ويجب أن يكون متهيئًا لها.

- حرب؟!

- نعم، ولا أحد يستطيع إيقافها.

صمت آجينار قليلًا محدقًا إلى وجه «ميڤيا»، ثم قال:

- أطلس يتجرع الستريــجا، هل تعرفين هذا؟

- لا، ولكن كيف لك أن تعلم بالأمر؟

- عندما كنت في العاصمة، قابلت أطلس؛ وعندما نظرت في وجهه ورمقت عينيه، أدركت أنها كانت خائفة، مهتزة، ترتعش، كان غريب الأطوار، ليس هذا الرجل الذي قابلته منذ عشر سنوات في الحرب، عندما رأيته في الحرب كان محاربًا شجاعًا جدًّا، وفارسًا لا يشق له غبار، فوق رأسه خوذة بقرنين تثير الرهبة في قلوب من يرمقهما،

ولكن بعد أن رأيته الآن أيقنت تمامًا أنه يتجرع الستريــجا؛ بل إنه يتجرع الكثير منها، أعرف عيون الموتى حين أراهم، وعيناه... لا حياة فيها بعد الآن، تظهر عليه أعراض الستريــجا ظهورًا شرسًا لا شك فيه ولا لبس، على مر تلك السنين المديدة، لقد رأيت مئات البشر يتناولون الستريــجا؛ طامحين للوصول إلى الكمال البشري، والقوة المطلقة، ولكني لم أر بشريًّا واحدًا قد تغلب عليها وعلى تأثيرها العاتي، عقولهم هشة للغاية، ولن تتحمل قوة الستريجا على الإطلاق؛ وقريبًا جدًّا سيجن أطلس وسيفقد عقله بالكامل، وإلى الأبد، لقد كانت هناك نبوءة عند البشر، تتنبأ عن فناء السيادة البشرية على يد رجل يحمل دماء ملكية بين عروقه، هل تلك هي الحرب التي تتحدثين عنها؟

تحركت «ميڤيا» مغادرة، ومن ورائها حيوانها الشرس، ثم التفتت وأردفت:

- لا أؤمن بالنبوءات، ولكن فناء السيادة البشرية هو شيء لا فرار منه أبدًا، مهما طال الأمر أو ابتعد فهو قادم لا محالة؛ الفناء هو النهاية الحتمية لكل الأشياء!

وتحركت مغادرة، وابتلعها ضباب الغابة العاتي، بلا شك الحرب قادمة، آجينار يوقن بهذا جيدًا، ولكن لا يتمنى أن يكون الأشاوس جزءًا من تلك الحرب القادمة، وليكن قومه بمنأى عن النزاع البشري الذي لا أمل في انتهائه أبدًا، فقدوا في حرب الإبادة أثمن ما كانوا يملكون، وليسوا مستعدين بأن يفقدوا شيئًا ثمينًا آخر.

بزغ النهار صافيًا فيه شيء من الرياح الباردة، تخلل البرد أضلاعه وروحه، لأيام ثلاثة؛ كان مقيدًا، جائعًا، ويشعر بعطش لن يرويه محيط بأكمله كما كان يظن، لقد خاض الكثير من المعارك ولم يتم أسره ولو مرة واحدة، وآخر معاركه كانت معركة «ڤالوس» البحرية؛ التي قاد فيها بارجة أطلس لأول مرة في حياته، والتي أطلق عليها شعب إيڤيريا «ذات القرون»، كانت تلك المعركة الأولى في حرب «الإبادة» بين ملك العرق البشري؛ «أطلس» وبين الأمير الواعد «إلكادور» ملك عرق «الإِلف».

كانت المعركة على ساحل «ڤالوس» البحري؛ والذي كان يقع شمال جزيرة «ثينيا»، وعندما دوّت أبواق الحرب بأنين عميق بلغ حد السماء، اشتعلت المعركة لهبًا عندما أغرق القائد هيستوس مئات السفن من أسطول «إلكادور» الهائل، كانت البارجة يقودها القائد هيستوس ببراعة شديدة ليس لها مثيل، كانت تسير بارجة أطلس بين الأمواج كأنها تحلق أعلى السماء، لا شيء يعيقها قط، تشق امواج البحر العاتية بنصل من الفولاذ العملاق، مثبتًا كان في مقدمة البارجة مصنوعًا من فولاذ «الأرك» المقدس، لم يكن لأحد أن يقود البارجة العملاقة بهذه البراعة سوى القائد هيستوس، وعندما ربح المعركة البحرية، حلّقت فوق البارجة أسراب من طائر «العقّاب»، وحط طائر من

الأسراب العابرة على كتف القائد هيستوس بغتة وعلى حين غرة منه حين كان يقود «ذات القرون»، صاح الجنود بعدها بهتافات النصر والمجد التي تغمدت هيستوس من رأسه حتى أخمص قدميه؛ لانتصاره العظيم في المعركة؛ وكأن طائر العقّاب كان رمزًا للنصر والمجد وتنوقلت الحكايات عبر مئات الألسنة والأفواه، ولهذا أطلق الجنود عليه – لاحقًا – لقب «العقّاب الذهبي».

وراء قضبانه كان جالسًا، لا يعرف كيف يمكن للأمر أن ينتهي، جل ما كان يعرفه في تلك اللحظة أنه لن ينتهي نهاية سعيدة، بعد لحظات تسربت من وراء قضبانه الحديدية أصوات لأبواق عدة مزلزلة للنفوس، عميقةً؛ تثير الخوف أكثر من أبواق الحرب نفسها، وبعد لحظات من تفشي أصوات الأبواق التي بلغت حد السماء، سمع جلبة في الخارج، كان ذلك قبل أن تدلف «ميثيا» إلى زنزانته، ألقت إليه نظرة صامتة للحظات قبل أن ينظر إليها ويقول:

- ما تلك الأبواق التي تعوي في الخارج؟

- إنها أبواق «البيسستياري»[10].

- البيسستياري؟

- نعم؛ إنها حلبة الوحوش!

صمت القائد هيستوس قليلًا، وابتسم باستهزاء ثم قال:

- أستطيع التخمين؛ إن البيسستياري يتم تجهيزه لي!

- تخمينك في محله، إن أردت مقابلة أمير القبائل، عليك أن تحوز احترامه؛ إنها تقاليد الويكنيجر المقدسة، ولا يجوز كسرها!

قال غاضبًا: «وكيف لي أن أحوز احترامه بحق الأسياد؟».

- عليك هزيمة أقوى محارب في القبائل السبع؛ «جوثلاف»!

صمت قليلًا ثم عاد يقول بثقة كبيرة: «لقد هزمت مئات المحاربين من عشائر الويكنيجر، وسأهزم جوثلاف أيضًا!».

- للأسف الشديد؛ جوثلاف ليس محاربًا عاديًّا، وليس بشريًّا كذلك.

ثم قال بتحدٍّ: «وحتى إن كان ذئبًا ضاريًا من ذئابكم، لن يشكل الأمر عائقًا!».

- كنت أتمنى ذلك! ولكن «جوثلاف» ليس ذئبًا قط؛ بل هو مستذئب، وهو أقوى وحش عرفته قبائل الويكنيجر السبع وأراضي «ڤالكارد» الحمراء قاطبة، لم يجرؤ أحد

على ترويضه أو مواجهته أو التغلب عليه، حتى أنا فشلت في ترويضه حين حاولت.

تخثرت ابتسامته كالحليب الفاسد، ثم ابتلع ريقه وأردف: «مستذئب!»[11].

لم ير القائد هيستوس يومًا مستذئبًا بأم عينيه، ظن أن تلك أسطورة جامحة انتقلت زورًا على السنة الناس أو ربما حكايات كاذبة ترويها الأمهات ليلًا لينام الصغار، وظل صامتًا في شيء من الصدمة، حتى قالت «ميڤيا»:

- نعم، مستذئب، وليس من السهل هزيمته أبدًا كما تعتقد، إنه أقوى ثلاث مرات من الأسد البربري الذي قاتلته في معركة «الضباب»؛ المعركة الأخيرة بيننا، مخالبه الضارية أشد فتكًا من الفولاذ، وأنيابه تلمع في الظلام كالألماس، سيكتمل القمر غدًا في منتصف الليل، وسيكون «جوثلاف» في أفضل حالة جسدية له، وسيكون أقوى من ذي قبل بمرات عديدة، وعليك هزيمته... إن كنت تود البقاء على قيد الحياة.

سأل متوجسًا: «وكيف لي أن أقاتل وحشًا تلك صفاته؟».

لم تعقّب «ميڤيا» ودلفت إلى الزنزانة بعد أن فتحت أبوابها الفولاذية، فكّت وثاقه وحررته من قيده، ثم نظرت له وأردفت: «إن أردت أن يكون هناك احتمال ولو ضئيل جدًّا للنجاة، فاتبعني!».

بعد أن انتهت خرجت من الزنزانة، تحررت أوصاله من القيد، وشعر بالدماء تجري بين عروقه مجددًا وحاول أن يستجمع القليل من قواه لينتصب واقفًا، وأخذ بضع لحظات حتى أمسك لجام نفسه وفؤاده، ووقف منتصبًا ثم خرج من الزنزانة، فقالت له «ميڤيا»:

- غدًا عند منتصف الليل ستكون معركتك؛ عليك أن تكون مستعدًّا في أقرب وقت ممكن، اتبعني.

خرجت من غرفة الزنزانة وتبعها القائد هيستوس، خرج فتعالت أصوات الأبواق والطبول القارعة، ولكن كان قرع قلبه داخل صدره أكثر شدة وقوة من مئات الطبول المقروعة، اندفعت الدماء بغتة إلى رأسه حين سمع عواء ذئب اخترق قلبه وأذنيه في آن واحد، ولم يكن العواء عواء عاديًّا، هو يدرك هذا جيدًا، لم يسمع عويلًا كهذا من قبل في حياته.

سلكت «ميڤيا» جسرًا خشبيًّا معلقًا يصل إلى منحدر شاهق، وتبعها ينظر إلى أسفل في خوف كلما تقدم خطوة، وحين بلغت المنحدر كان هناك سهل واسع أخضر، وأعداد هائلة من الناس ترمق من سيواجه «جوثلاف»، وألقوا النكات المستهزئة؛ من سيواجه هذا الوحش الضاري هو هالك لا محالة، كان «البيسستياري» يعج بالمنتظرين في كل

مكان، ينتظرون أن يحين الغد ويأتي منتصف الليل على أحر من الجمر، ليشاهدوا الوحش يمزق أحشاء الغريب، حاجزين مقاعد «البيسستياري» ليشاهدوا الأمر بأعينهم عن كثب، وانتشر الأمر في القبائل السبع عن أسر «العقّاب الملكي»؛ قائد جيش أطلس وحامل الوسام الذهبي للمملكة!

دلفت «ميڤيا» إلى حانة فارغة، وصعدت سلمًا يصل إلى غرفة علوية واسعة، ومن ورائها كان القائد هيستوس، في منتصف الغرفة انتصبت طاولة محملة بالطعام والماء، وبعض النبيذ أيضًا، نظرت له «ميڤيا» وأردفت:

- عليك أن تأكل جيدًا، ستكون معركتك غدًا معركة غاشمة، وسوف تحتاج إلى كامل قواك وكامل تركيزك أيضًا!

- لا أحتاج إلى الطعام، ولا أحتاج شيئًا آخر سوى الفولاذ!

- لن ينفعك الفولاذ؛ فالفولاذ لا يقتل المستذئبين.

- كيف سأواجهه إذن؟

- لا يقتل مستذئبًا سوى الفضة، ولا يوجد فضة في أراضي «ڤالكارد» الحمراء!

- وماذا نفعل الآن؟

- لا تقلق، لقد أحضرت فولاذًا مصهورًا بالفضة من خارج أراضي «ڤالكارد» تمامًا.

صمت القائد هيستوس قليلًا ثم أردف: «لماذا تقدمين لي يد العون؟».

- أنا لا أقدم لك أي شيء على الإطلاق، ولكني أرى أنه من حقك أن تكون لك فرصة ولو ضئيلة لكي تنجو بحياتك، وعلى الرغم من هذا أشك بأنك سوف تصمد لدقائق معدودة حتى!

بدأ الحصان يصهل من تحته، فشد الملك العِنان بقوة أجبرت الحصان على الصمت، منذ مدة طويلة جدًّا لم يخرج الملك في نزهة، اعتلى كلاهما جواده عند تبدد ظلام الفجر، وأشرقت الشمس وسقطت أشعتها الذهبية على الخاصة الملكية، وتسابق كلاهما إلى الغابة الملكية، على الأطراف الشمالية للخاصة الملكية؛ في أقصى الشمال على بعد ميل من القصر، كان الملك فوق جواده يطلق الضحكات متوعدًا داريوس بالخسارة، كان وجهه أكثر إشراقًا من أي وقت مضى، لأول مرة يضحك بصدق منذ عشر سنوات، في هذا

السباق استعاد الملك الكثير من الذكريات الجيدة، قبل الحرب، وقبل الإبادة، وقبل أسراب الغربان الغائرة أيضًا!

أطلق الملك ضحكة أخرى هادرة عندما شد على لجام جواده ونكزه بقوة فازدادت سرعته، ضربت الرياح وجهه فشعر بشيء من الراحة غير المألوفة والحرية، حرية لم يعتقد أنه سوف يتذوقها بعد الآن، وعندما اقتربوا من الغابة الملكية؛ رابحًا الملك السباق ومن ورائه كان داريوس فوق جواده، وأبطأ كلاهما عندما بلغوا الغابة الملكية.

دلفا إلى الغابة الملكية على ظهور حصانيهما بخطوات بطيئة متروية، رمق فيها الملك أركان الغابة الملكية؛ في كل زاوية له ذكرى، تترامى الذكريات في كل ركن من أركان عقله، تتسابق الذكريات في رأسه ناقمة تكاد أن تفتك به فتكًا –وتساءل–من كان ليظن إن الذكرى السعيدة، ستكون سببًا في هلاك صاحبها يومًا ما؟

رسمت أوراق الغابة ظلالًا سوداء عندما انسكب عليها الضوء بعد الغسق الثقيل، ومر بهم قطيع من الغزلان والأوعال ذات القرون هائلة الحجم، رمقها الملك وداريوس بذهول من جمالها الباهر، في الماضي كان يخرج الملك بنفسه للصيد، وفكر أطلس، لقد كان صيادًا ماهرًا؛ ولم تواته تلك الأفكار من قبل قط؛ بأن الصياد الماهر سوف يكون فريسة يومًا ما؛ وفكر في هذا عندما حلق في قلب الغابة الملكية سرب من الغربان السوداء، لا تخرج الغربان في وضح النهار؛ هو يعلم هذا جيدًا، ويدرك أيضًا أن الغربان لا توجد في الغابات الملكية، ولكنه يراها في كل مكان، تسبح في بهو قصره، وتحلق في سقف غرفته، وتنعق الغربان، ولا يتوقف نعيقها أبدًا؛ مـخترقًا أذنيه وقلبه ومتخللًا روحه كإبر حادة ومدببة!

وأدرك داريوس ما يراه أطلس عندما رمق وجهه، أو تكهن على الأرجح، بعض الجراح لا يمكن أن تندمل حتى بعد مرور الكثير من الوقت، كان داريوس يعتقد أن عشرة أعوام ستكون كافية لتندمل جراح أطلس الغائرة، ولكن يبدو أن كمًّـا هائلًا من الزمن لن يكون كافيًا أبدًا لكي ينسى أطلس ما قد حدث.

وثب الملك عن ظهر جواده بخفة ورشاقة شاب في العشرين من عمره، وترجّل داريوس أيضًا عن حصانه، وتناول لجام جواد الملك، وربط كلاهما جذع شجرة، أغلق الملك عينيه وسحب رطلًا من الهواء الطلق إلى صدره، وزفره بهدوء شديد، ثم نظر إلى داريوس وأردف:

- أتعلم، في القصر لا يوجد غير رائحة الموت فقط؛ تفوح من ساحة الرؤوس المعلقة، عشرات الموتى هناك يصرخون بصمت هادر، صمتًا مسموعًا وأوقن تمامًا أن لا أحد غيري أنا يسمعه، لم أذق طعم الهواء منذ فترة طويلة جدًّا يا داريوس!

نظر له داريوس بصمت للحظات، ثم أردف:

- أفهم جلالتك.

ثم نظر إلى الأفق الفسيح أمامه وأردف باديًا على محياه الندم الشديد:

- ليتك استللت سيفك من غمده ذلك اليوم يا داريوس، ومنعت كل هذا من أن يحدث، لو كنت شققت قلبي إلى نصفين، لكنت شعرت بالراحة، راحة ستكون أبدية، بدلًا من هذا الجحيم الذي أعيش فيه!

- حينها سيقتلني الندم أيضًا كما يقتلك الآن، ربما كنت سأحاول منع الأمر برمته لولا أنك لم تخبرني بما نويت إن تفعل وقتها، كنت يدك، وساعدك، والأهم من كليهما؛ كنت صديقك، لماذا لم تخبرني بما تريد أن تفعل؟

- كنت أعرف أنك سوف تقف في طريقي!

قال داريوس بغضب مكتوم وما يزال يحافظ على نبراته الهادئة وكياسته:

- ولهذا أيضًا لم تخبرني بأمر الإبادة التي افتعلتها بعد الحرب مباشرةً، لقد وعدتني أنك سوف تبحث عن الأمير إلكادور بسلام تام، ولكنك بدلًا من هذا أبدت عرقًا كاملًا يا أطلس، وفي النهاية أطلقت الآلهة ضحكات السخرية والاستهزاء منا؛ ماتت «إيڤيدوكيا» وحيدة، ولم نجد إلكادور بعد أعوام طويلة من البحث!

ما تزال في القلب غصّة! هكذا كان يشعر، ولن يلومه أحد على شعوره الدفين، في الحرب هناك نوعان من الموت، موت ينهي الحياة بضربة من الفولاذ، وموت آخر يتسلل بخفة إلى الروح؛ فيصيبها بعذاب الضمير القاتل، فتمسي الروح بغير حياة فيها، وتصبح لا شيء؛ فراغ لا يملؤه شيء سوى أيام عجاف لا تنقضي، لم يذق داريوس الموت الأول بعد، ولكن بالتأكيد يعرف طعم الثاني جيدًا، في زمن الحرب يكون الشرف مجرد أكذوبة عابرة، وكلما تثاقلت عليه تلك الأفكار يلوذ منها فرارًا بتناس ملفق ومقصود؛ وحين يفشل يصمت -متسائلًا- هل يكون الشرف شرفًا إلا في الحرب؟

صاح الملك فيه بغضب شديد:

- عليك اللعنة يا داريوس، كيف تحدث ملكِك بتلك الطريقة الفظة بحق الأسياد؟

قال داريوس في محاولة لامتصاص غضب الملك: «أعتذر لك جلالة الملك، لم أقصد عدم الاحترام، ولكني أحدثك كصديق لك، لقد طلبت مني منذ قليل أن أستل سيفي من غمده قبل أن تفعل ما فعلته سلفًا، والآن أنا أحدثك كمرآتك تمامًا، وصدقني الكلمة تكون أهون من السيف في كل الأحوال!».

هدأ الملك ثم أردف بشيء من الندم:

- نعم، لقد ارتكبت العديد من الأخطاء، أعلم هذا، ولعشر سنوات يعاقبني القدر على تلك الأخطاء عقابًا قاسيًا ووخيمًا، وصدقني عقاب القدر هو أسوأ عقاب يمكن للإنسان أن يناله يومًا!

- العقاب يطهر من الخطايا!

- هل تظن أن طهرني العقاب من خطاياي؟ هل ستخبو أسراب الغربان في رأسي؟!

- بلى، جلالتك.

- مخطئ يا داريوس، هل تذكر... قبل اندلاع الحرب، كانت دعوة الملوك ما تزال قائمة، وتجمع الملوك ها هنا؛ في «إيڤيريا»، تسعة ملوك لتسعة أعراق في قاعة واحدة، وكانت هناك حفلة، أطلق عليها الناس بعد ذلك اسم حفلة «الرقصة الأخيرة»، اقترب إلكادور من إيڤيدوكيا وطلب منها رقصة، ولم أمانع على الإطلاق، فما الضرر في رقصة عابرة! ورقصا معًا على أنغام سمفونية هادئة، كنت أنت موجودًا هناك ورأيت بنفسك هذا الأمر، من تظن المخطئ في هذا الأمر؟ أنا! أم إلكادور... أم ربما شقيقتي إيڤيدوكيا!

- الحب ليس خطيئة أحد يا أطلس!

- الحب سلب مني أكثر ما أحبه في تلك الحياة، وهي إيڤيدوكيا!

- وأقمت من أجلها حرب الإبادة، واستعدت شرفك المسلوب!

قال الملك غاضبًا بكلمات من تحت الضروس:

- ليس بعد يا داريوس! لم يشف غليل قلبي بعد، ليس حتى أجد إلكادور، وأسلخ جلده عن عظامه بنفسي.

نظر داريوس للملك نظرة لائمة:

- ولهذا استعنت بملك عرق الأشاوس؛ جلادور؟ مجددًا!

نظر الملك إلى داريوس بتمعن قبل أن يقول:

- كيف عرفت عليك اللعنة؟

- الأخبار الملكية لا تختبئ طويلًا جلالتك.

ثم استطرد سائلًا: «بعد كل هذا الوقت؟».

- ولو بعد ألف عام يا داريوس!

ثم سأل: «هل تقابلت مع ملك الأشاوس قبل ذلك؟؛ أقصد وجهًا لوجه بعد الحرب!».

- لا، منذ حرب الإبادة، ولم أر فردًا من عِرق الأشاوس، سوى الذي وكلته بمهمة الطريدة.

- آجينار؟

- نعم، هل تعرفه؟

- أجل، أعرفه، تقابلنا معًا في معركة «الأغصان الحزينة»؛ كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها قوتهم الحقيقية، كنت أظن أنهم مثلنا، وكل ما يدور حولهم هو مجرد هراء محض، ولكن في الحرب تكتشف حقيقة الكثير من الأشياء، ورأيت ذلك بأم عيني، عندما اندفع نحوي عملاق من عمالقة إلكادور، بأنياب حادة وقرون هائلة، كنت هالكًا لا محالة، وتجرع المدعو آجينار «الستريــجا» حينها لإنقاذي ربما، ولأول مرة أرى شيئًا كهذا؛ سقط أرضًا وتمزق جلده عن جسده، وتحول لذئب رهيب وخاض مع العملاق نزالًا شرسًا، وبعد أن شق حنجرة العملاق بأنيابه الحادة، عاد لهيئته المعهودة، ولكن كان منهكًا؛ وخائر القوى تمامًا، حملته فوق جوادي يومها وأبعدته عن أرض المعركة، وظل ينظر لي طويلًا حتى غاب عن الوعي مرة أخرى، وبعد الحرب لم أجد له أثرًا مجددًا!

- نعم، لقد رأينا الكثير في تلك المعركة حقًّا، أكثر مما قد رأيناه في حياتنا كلها، كان هناك مقاتل، بالتأكيد لقد سمعت عنه الحكايات والأساطير، ولكني رأيته يومها بعيني، لم أر في مِثل قوته أبدًا، كان يدعى «ميجور ذا الوشاح الأسود»، رأيته يشق بنصله حلوق عشرة عمالقة من عمالقة إلكادور، لم ير أحد من ملامحه شيئًا، شبح، طيف هامس، لا يشعر به أحد، كان يمتطي أحد كائناتهم المقدسة؛ جريفين له ريش أسود حالك كالظلام أو أشد سوادًا، كان يطلقون على الجريفن «الظل الأسود»، كان حجمه هائلًا جدًّا، ومخالبه حادة كالفولاذ، رأيته مرة واحدة في المعركة، هبط من السماء بسرعة هائلة واقتلع مئات الحناجر ثم في لمحة بصر ارتفع في الهواء مجددًا، ولم أره بعد ذلك في الحرب مرة أخرى.

ثم صمت قليلًا شاخصًا في لا شيء وأردف بنبرة حزينة وعميقة: «للحرب عواقب عديدة ووخيمة أيضًا وعاقبتها الكبرى، هي أنك لا تنسى منها شيئًا مطلقًا؛ مهما مر الزمان وانقضت السنون، تتذكرها بكل بشاعتها، في كل مرة كأنها أول مرة!».

حرك داريوس رأسه متفهمًا كلمات الملك، ثم قال:

- نعم جلالتك، صدقت!

وطال صمته للحظات حتى قال متنهدًا: «هيا بنا يا داريوس، فلنعد أدراجنا، لم يعد الهواء هنا كافيًا لأتنفس!».

- كما تأمر جلالتك، هيا بنا.

فك داريوس الأحصنة من مربطها، واعتلى كل منهما جواده، صهل جواد الملك حين شد اللجام عنوة وانطلق بقوة، ومن ورائه انطلق داريوس، واتجها إلى القصر الملكي، استلم عامل الإسطبل الملكي الأحصنة منهما، ودلف أطلس إلى القصر ومن ورائه كان داريوس، كان الملك يشعر بشعور سيئ، ولكنه كان مألوفًا له بشدة، وعندما بلغ قاعة العرش، تسرب من وراء الحوائط إلى أذنيه صوت صراخ هادر، هز الحوائط الملكية... كان يعرف هذا الصوت جيدًا؛ وأدرك بعد لحظات أنها زوجته هيميريا، واتجه إلى مخدعها سريعًا، وقلبه داخل صدره ينتحب مدركًا ما سوف يكون خلال لحظات، وتقدمت وصيفة الملكة بخطوات متلجلجة وقالت بتردد وخوف عظيم، وفزع بدا على محياها:

- إن الملكة هيميريا تضع مولودها الآن، جلالة الملك!

البيسستياري: هي محاربة ومجالدة الوحوش في روما القديمة ومعناها الحرفي هو: بيت الوحوش.

المستذئب: في عالم الرواية المستذئب هو عبارة عن شخص تم إلقاء لعنة سفلية عليه، لا تنكسر أبدًا، لا تتغير هيئته الشرسة أبدًا، ويكون في أقوى صورة له حين يكون القمر كاملًا في السماء.

النعيف التاسع

«مخطوطة التنين الأخير»

9

لا شيء كان في القاعة غير التماثيل الحجرية.

كانت القاعة باردة لا حياة فيها، وطغى على أركانها ظلام دامس، ولم تكن المشاعل والشموع المعلقة كافية لتضيء المكان برمته، وبثت التماثيل الحجرية الباردة الرهبة والخوف في هواء القاعة العابر، مخيفة كانت أجواء القاعة، وكأن العيون الحجرية المنحوتة ببراعة شديدة تراقب العابرين ليل نهار، تنتظر وتترقب شيئًا ما، وفي نهاية القاعة كان «جلادور» ملك عرق الأشاوس جالسًا على عرشه الصلب من الحجارة المقدسة.

كان ملكًا لعرق الأشاوس لآلاف السنين المديدة، لا أحد كان يعرف منذ متى تحديدًا، ولكن على الأرجح كان ذلك قبل سيادة البشرية، عيّنه المجلس الأعلى للأشاوس كملك منذ آلاف السنين، بعد الفناء العظيم تشرذم الأشاوس، ولم يتبق من عرقهم الكثير، ولهذا تم تأسيس المجلس الجديد على أنقاض عقيدة قديمة، وجعل المجلس قلعة «عدن» مقرًّا دائمًـا للأشاوس من ضمن مقرات عدة في القارة بأكملها، ولكن كانت قلعة «عدن» هي القلعة الوحيدة التي يتجمع فيها المحاربون ومتعقبو الأثر، ومن شاركوا في حرب الإبادة.

عرشه كان مصنوعًا من حجارة «الأرك» المنحوتة بدقة عالية، عمرها يتجاوز آلاف الأعوام، قبل الفناء العظيم وارتقاء الأسياد بوقت طويل، وملوك الأشاوس وما قبل الفناء العظيم؛ تلك الحجارة التي بنيت بها القلعة بالكامل؛ حجارة صلبة جدًّا شيد بها الأسياد قلعة «عدن»، ولهذا صمدت لقرون عديدة؛ لم يؤثر عليها الزمان، ولم يسقط منها حجر واحد.

تقول الحكايات القديمة إن الأسياد امتطوا ظهور التنانين، وكان حجم التنين الواحد كحجم أطواد من الجبال التي تناطح السحاب؛ هائلة وضخمة كانت أحجامها، حتى الأشاوس الأوائل الذين عاصروا الأسياد، يعجزون عن مواجهة تنين في طوره الأخير، وليس لديهم أدنى فرصة لذلك حتى، امتطى الأسياد التنانين حتى تمردت التنانين على قوة الأسياد، واشتعلت الحرب بين التنانين والأسياد، حرب كانت سببًا في ارتقاء الأسياد وانقراض التنانين في آن واحد.

حارب الأشاوس الأوائل قبل الفناء العظيم الغيلان والجن في الناحية الأخرى من الأرض فوق ظهور كائناتهم المقدسة؛ «الجريفن»، وعندما اشتعلت الحرب بين الأسياد وحدثت الحرب العظمى والتي أطلق عليها شعوب ما قبل الفناء؛ بحرب «اللهب

الأسود»؛ والتي أسموها باسم التنين الذي افتعل تمرده على الأسياد، وبدأت الطبيعة بالاختلال شيئًا فشيئًا، وكان ملك عرق الأشاوس الأول آنذاك والذي كان يدعى «ڤالهاجرس» ملكًا حكيمًـا، عرف «ڤالهاجرس» بأمر الحرب القادمة عن طريق صنعه لسائل يعطي لجسده القوة ويجعله قادرًا على رؤية المستقبل القريب والذي أطلق عليه اسم «الستريـجا»، وأدرك أن هناك حربًا عظيمة تقترب، وعلم أن بعد الحرب سوف يكون الفناء، ولهذا صنع «ڤالهاجرس» مئات من القوارير التي تحتوي شرابه المقدس ليقاوم الأشاوس الفناء العظيم عندما يأتي، ودوّن أسراره في مذكراته، والتي لم يكن له نسخ مطلقًا، سوى نسخة واحدة وأصلية، يحتفظ بها المجلس في مكان آمن؛ وأطلق عليها البعض «مخطوطة التنين الأخير»، لما تحتوي من أسرار تـخص حرب الأسياد الأخيرة «اللهب الأسود»، والكثير من الأسرار المخبأة عن الأسياد والأشاوس والتنانين، وكل ما كان يدور قبل الفناء العظيم.

لقد صنع عددًا مهولًا من قارورات الستريـجا، ولكن الكثير لم يحالفه الحظ للحصول على شراب الملك «ڤالهاجرس»، ولم تكن «الستريـجا» كافية لمواجهة الفناء العظيم؛ كان يعلم هذا جيدًا، ولهذا لقد برم اتفاقًا مع سيد من الأسياد يدعى «ڤلهار» ببناء قلعة عظيمة مما تبقى من الحجارة المقدسة في «وادي الوفرة»؛ والتي تدعى «الأرك» ليحتمي فيها الأشاوس من الحرب القادمة بين الأسياد والتنانين، ومن بعد ذلك تكون لهم ردرءًا حين يأتي الفناء العظيم، والذي سوف يتسبب بانقراض كل شيء على وجه الأرض، وفي مقابل تشييد القلعة أعطاه «ڤالهاجرس» هدية مقدسة للغاية؛ لم يعرف مخلوق ما أعطاه «ڤالهاجرس» لـ«ڤلهار» ليوافق على تشييد قلعة «عدن» الهائلة، ولم يذكر شيئًا في اللفائف العتيقة أو في مخطوطة التنين الأخير عن هذا الأمر، ولكنه بالتأكيد كان شيئًا مقدسًا للغاية ولا يقدر بثمن!

من باب القاعة دخلت «لاجارثا»، وتحركت نحو البهو الواسع وتملكتها رهبة هائلة دبت في أعماقها، كانت القاعة يكتنفها الظلام كالعادة، وتسللت أشعة الشمس بحذر من النوافذ الزجاجية الشاهقة لتسقط على الأرضية والأركان، بدا على جانبي البهو صفان من التماثيل التي بثت في جسدها القشعريرة مصحوبة بشيء من الهيبة والوقار، وتساءلت: هل يمكن للحجارة أن تدب فيها الحياة؟ عينا التماثيل الزاجرة جعلتها تظن أنه ربما للحجارة حياة يجهلها الجميع، وظلت تفكر في الأمر، حتى بلغت عرش جلادور الحجري، كان جلادور جالسًا على عرشه بهدوء شديد وهيبة طاغية، جلده كان باهتًا كقلبه تمامًا، شعره أسود كالحبر أو الظلام، وانحنت «لاجرثا» للحظات قبل أن تقول:

- فليحيا مولاي؛ جلادور العظيم.

ابتسم جلادور ابتسامة باردة وقال: «كيف أبليت؟».

- الملكة هيميريا حصلت على الستريــجا بنجاح!

تساءل: «وأطلس؟».

- على حافة الجنون، ولكن حدث شيء ما هناك.

- وما هو؟

- لقد عاد يد الملك القديم والذي يدعى؛ داريوس.

صمت جلادور قليلًا يفكر، ثم أردف: «نعم، أعرف داريوس؛ من البشر القلة الذين أكن لهم الاحترام الشديد؛ فعلى عكس المألوف، هو رجل شريف».

ثم تساءل بعد برهة من التفكير: «ولكن لماذا عاد بعد أن نفاه أطلس بعد كل هذا الوقت؟» .

- الملكة هيميريا على وشك الولادة!

- نعم، أعرف، أطلس نهايته باتت وشيكة جدًّا، الحرب تقترب، وسوف تطيح بعرش أطلس وبعرش سيادة البشرية أيضًا، ولن يستطيع أحد أن يوقف تلك الحرب أبدًا، وسوف يعود كل شيء إلى نصابه الحقيقي، كان للأشاوس السيادة قبل الفناء العظيم وقبل وجود البشر، وهناك نبوءة أراها كل يوم؛ تتحدث عن المختار، من سيستعيد السيادة للأشاوس ومجدهم الغابر، على مر تلك العصور السالفة كنت أبحث عن هذا المختار، لكني رأيت الأمر الآن، رأيت أطلس ينهزم وتسقط من بين يديه السيادة البشرية، من شخص يمتطي جريفين مقدسًا من النوع الذهبي؛ وهذا النوع لا يمتطيه سوى ملوك ما قبل الفناء، ولا أحد غيرهم يفعل.

تساءلت لاجرثا:

- ألم ينقرض الجريفن في حرب الإبادة؟

- بل انقرض الجريفن الذهبي منذ وقت طويل جدًّا؛ عند حدوث الفناء العظيم، ولم يتبق منه شيء مطلقًا، كانت سلالة نقية جدًّا من الجريفن، لا يمتطيه إلا ملوك ما قبل الفناء؛ الأشاوس الأوائل، كان هناك الكثير من السلالات حينها، والجريفن الذهبي هو النوع الملكي منها؛ ملك باقي سلالات الجريفن الأخرى؛ وما تبقى هي سلالات أقل شأنًا وأقل قوة من السلالة الملكية، والآن انقرضت جميع السلالات ولم يتبق منها شيء مطلقًا، المختار سيمتطي جريفين ملكيًّا ولا اعرف كيف أو متى بالتحديد، ما أعرفه جيدًا أن المختار سوف يكون من هذا العصر؛ يأتيني الأمر في رؤى لا تتوقف عن

المستقبل القريب جدًّا، يرفع سيفًا مقدسًا ويمتطي كائنًا مقدسًا، وسوف يسقط عرش أطلس وسيادة البشرية إلى الأبد.

تلاشى كل شيء من حوله حين أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا إلى صدره وأخرجه بزفير مسموع، اقترب موعد نزاله الشرس، دقائق معدودة وسيعلن منتصف الليل عن نفسه بقمر كامل في كبد السماء، في الغرفة خلع ثيابه الرثة، وبدأ يرتدي درعه، المكونة من سيف وترس دائرية هائلة وقفازات وصدرية مدرعة وخوذة حديدية، كانت درعه ثقيلة حقًّا؛ مصنوعة من الفولاذ الصلب الثقيل ليتحمل مخالب جوثلاف القاطعة، ارتدى قفازاته ثم صدرية الدرع الصلبة وبعدها وضع الخوذة الحديدية على رأسه، وتناول السيف الذي أحضرته «ميڤيا» من على الطاولة وسله من غمده، مصدرًا صليلًا عاليًا، ولمع النصل تحت ضوء اللهب الأحمر، كان النصل ذا لون فضي لامع، مقبضه محكم، وخفيف الوزن يحمله بين أصابعه كالريشة.

لا ريب أن القائد هيستوس كان محاربًا شجاعًا؛ لا يشق له غبار، واجه الكثير من الوحوش الضارية وخاض العديد من المعارك، واجه الذئاب الشرسة والسميليودون والدببة، وواجه أيضًا أسودًا بربرية قاسية، ولكنه لم يواجه مستذئبًا من قبل قط، لقد استمع للكثير من الحكايات عن رجال مسوخ ملعونين، لعنتهم تميمة سفلية على هيئة ذئب ضارٍ، بالرغم من شجاعته إلا أنه كان شاعرًا بتوجس ناوش قلبه، أصوات العواء المخيفة التي لا تكاد تغادر أذنيه تصيبه بالخوف، واستمع لأصوات جماهير «البيسستياري» الهاتفة بغضب، فأصابه الأمر جراء ذلك بمزيد من الرعب الممزوج بخوف لا يكاد يمسك لجامه، وظل يرمق النصل اللامع حتى دلفت من باب الغرفة «ميڤيا»، كانت ترتدي درعًا من الفولاذ أيضًا، ومن وراء ظهرها تحمل سيفًا من الفولاذ القاتم، وسرة من السهام وقوسًا كبيرًا عملاقًا، قالت بعد لحظات من الصمت:

- هل أنت جاهز أيها القائد؟

وضع القائد هيستوس السيف في غمده، بعدها أردف:

- نعم، أنا جاهز!

ثم نظر لها بصمت لحظات، فأردفت:

- إن أردت الفوز في تلك المعركة، فعليك اتباع تعليماتي!

- كلي أذان مصغية.

تناولت «ميڤيا» من على الطاولة كأسًا من النبيذ، وارتشفت منه قبل أن تقول:

- جوثلاف في النهاية هو حيوان يتبع غريزته الفوضوية، ولا يتبع أي إستراتيجية، ولن ينفعك الفولاذ إذا لم تكن تجيد استخدامه بالشكل المناسب ضد حيوان يحارب بحركات عشوائية، حاول أن تتحرك كثيرًا فذلك سيربكه وسوف يشتت انتباهه، إن الدماء تثير غريزته فيصبح أقوى عندما يستنشق رائحتها، فحاول ألا تنزف الكثير من الدماء، بقدر المستطاع على الأقل، نقاط ضعف أي مستذئب هي صدره، حاول أن تشق قلبه بالنصل، قلبه يقع في منتصف صدره تلك هي أفضل طريقة لقتله سريعًا!

- شكرًا لكِ.

- «البيسستياري»؛ حلبة شاسعة، حاول على قدر المستطاع أن تفرض خطة المعركة.

- أسألك مجددًا؛ لماذا تمدين لي يد العون؟

- وأجيبك مجددًا، لا أمد لك أي شيء، لكن في النهاية لقد حزت احترامي، ولا يحوز احترامي الكثير، وإن ربحت في تلك المعركة سوف تحوز احترام أمير القبائل وسوف تقابله بعد ذلك، وربما تنال حريتك في النهاية.

وتحركت «ميڤيا» ومن ورائها كان «العقّاب الملكي» متجهين إلى «البيسستياري»، كان هناك حشد هائل تجمهرت القبائل السبع، جميعهم يريدون مشاهدة جوثلاف يقتلع أحشاء الأسير الملكي، وعندما بلغوا «البيسستياري»، اهتاج الناس في المقاعد المتراصة وظلوا يهتفون باسم «جوثلاف» عاليًا.

كان «البيسستياري» عبارة عن حلبة دائرية واسعة جدًا، مغلقة بقضبان من الفولاذ الشاهق المقوى بالصلب، خارج الحلبة تتراص المقاعد المدرجة بمسافات متساوية، مقعد وراء مقعد، يتهافت الناس للحصول على مقاعد الدرجات الأولى من الحلبة لضمان المشاهدة الجيدة للمبارزة، في منتصف المقاعد كان مقعد «أمير القبائل» كان هو الأعلى ارتفاعًا، والأكثر راحة ورفاهية، ويضمن له رؤية جيدة جدًّا للمبارزة، خلف القضبان مئات من الحراس المدككين بالدروع الثقيلة والسيوف العملاقة، يرتدون فوق رؤوسهم جلود حيوانات ضارية، متأهبة صوارمهم لحراسة «أمير القبائل» جيدًا، والحفاظ على الأمن من شغب الجمهور الذي قد يفقد صوابه في أي لحظة.

لحظات ثم دخل القائد هيستوس و «ميڤيا» البوابة الكبيرة للبيسستياري، دقائق قليلة جدًّا ويأتي منتصف الليل ويكتمل القمر في أعلى السماء، ثم يبدأ النزال المترقب بين «العقّاب والذئب».

وتسارعت دقات قلبه عندما سمع الأصوات المتداخلة التي تصدر من «البيسستياري» ممزوجة بعواء «جوثلاف» الرهيب؛ والمزلزل للنفوس، لا يعرف القائد هيستوس كيف سيواجه هذا الكائن حتى الآن، ولكن في النهاية لم يكن رعديدًا أو جبانًا من قبل، واستجمع شجاعته المشتتة، واستعد للمواجهة.

لم يتبق على منتصف الليل إلا دقائق معدودة لا شك في عبورها الآن، ورافقه حارسان إلى ممر طويل معلقة على جدرانه مشاعل أنارت له بلهبها الأحمر أرض الممر، ورافقه الحارسان إلى نهاية الممر حتى بلغ النهاية، خرج لساحة القتال وأغلق الجنود من خلفه الأبواب المصفحة، كانت الحلبة مستديرة واسعة جدًّا كما أخبرته «ميڤيا» تمامًا، آلاف المشاهدين الذين يهتفون من المدرجات العالية، لا يزال مقعد «أمير القبائل» شاغرًا ولم يملأه أحد، ولم يدم هذا طويلًا، فقد جاء متدثرًا تحت فرو وثير ذي لون بني، وفوق رأسه فك أسد بربري، وعندما جلس على مقعده صمت الجميع وران الصمت في الحلبة كلها، لم يتبين هيستوس من ملامحه شيئًا، ولكن يبدو أن له هيبة كبيرة، وتهابه جميع القبائل السبع، ومن ورائه رأى «ميڤيا» وتحركت واقفة بجوار أمير القبائل.

لحظات مرت ثقيلة على الجميع، حتى أرسل أمير القبائل إلى جنوده إشارة، وتحركوا منفذين أوامره على الفور، أرخى الجنود سلاسل بوابة الوحوش الحديدية، وتسرب صوت هائل لعواء مرعب من خلف الباب الحديدي، واستمع الجميع إلى العواء الذي اخترق أضلاع كل الجالسين وزلزل قلوبهم، وانفتحت البوابة شيئًا فشيئًا حتى فتحت على مصرعيها وترقب القائد هيستوس ما سوف يخرج منها الآن، وصاح الجميع، وتأهب القائد هيستوس واستل سيفه من غمده، وشد على ترسه بقوة، وترقب، ولم تمر لحظات حتى خرج جوثلاف من البوابة الكبيرة، ما رآه القائد هيستوس كان هائلًا جدًّا، وظل الجمهور يهتف باسمه عاليًا.

جسد «جوثلاف» كان مفتولًا جدًّا، مخالبه ضخمة وحادة كالصوارم بين أصابعه، وأنيابه كالسكاكين تلمع حين يكشر عنها في الظلام، لون فروه كان رماديًّا غامقًا يميل إلى الأسود الحالك، كان واقفًا على قامتين وأذناه منتصبتان كالرماح، شحذ مخالبه الحادة في القضبان الحديدية؛ حتى أصدرت شرارًا متوهجًا خبا بعد لحظات، كان يتدلى من فكه أنياب طويلة قاطعة أكثر من الفولاذ الصلب، عيناه الحمراء تلمعان بوهج مشع تبث في الأجساد قشعريرة تمتلئ بالخوف والرعب بين ثناياها.

شد القائد هيستوس على نصله وترسه بقوة قبل أن يطلق جوثلاف عواء هائلًا ثم بقوة هائلة اندفع نحو القائد هيستوس بشراسة عاتية؛ راكضًا بسرعة هائلة ورهيبة في محاولة للانقضاض عليه، وارتفع صوت الجماهير الغفيرة بين مقاعد «البيسستياري» تشجيعًا لـ«جوثلاف».

انقض جوثلاف على القائد هيستوس، ولكن كان هيستوس سريعًا بما يكفي لتفادي انقضاضه العاتي، وظل يتحرك كثيرًا كما أخبرته ميڤيا، حركات دفاعية، وتحرك مبتعدًا خطوتين للوراء، وانقض جوثلاف عليه مجددًا ولكن بقوة أكبر، رفع هيستوس ترسه متصديًا لمخالب جوثلاف الفتاكة، جرحت مخالبه الفولاذ الصلب وكادت أن تخترقه لولا حركات هيستوس الدفاعية السريعة، وظل هيستوس يفكر أسفل درعه، كان يصد ضربات جوثلاف المتتالية السريعة.

وبعد لحظة تحرك هيستوس من مرمى جوثلاف تمامًا؛ محاولًا الابتعاد قدر المستطاع، ولكن كانت سرعة جوثلاف الهائلة تكسر حركاته الدفاعية سريعًا، وظل يصد ضرباته حتى انكسر الدرع في يده إلى نصفين، وفي لحظة اقتنص الفرصة وحرك نصله بخفة وبضربة قوية من الفولاذ المصهور بالفضة قطع كف جوثلاف وسقطت أرضًا، ورجع جوثلاف للوراء مطلقًا عواء عاليًا، وتعالت الأصوات أكثر من المقاعد المتراصة.

كسر درعه إلى نصفين وأصبح الآن مكشوفًا ولا وسيلة دفاعية تحول بينه وبين المخالب المشحوذة، لعق جوثلاف جرحه الغائر بلسانه الطويل، ونظر بعينيه الحمراء الدموية قبل أن يعوي مرة أخرى ويركض نحو هيستوس مجددًا، وانقض عليه وبضربات عشوائية من مخالبه الأخرى، كانت ضرباته قوية وسريعة، واخترقت صدرية درعه وأصيب صدره بجرح بالغ، وبضربة أخرى شقت خوذته الحديدة وشجّت مخالبه العاتية عينيه ووجهه، صرخ هيستوس بألم شديد، وسقط أرضًا يتلوى ألمًا، وتراجع للوراء لاهثًا طنًّا من الهواء إلى صدره المرتجف.

انقضاض آخر وسوف تكون تلك هي نهاية «العقّاب الملكي»، تسربت الدماء من صدره بغزارة شديدة، يبدو أن جرحه كان غائرًا جدًّا، وتخضب بالدماء الحمراء من رأسه إلى أخمص قدميه، لحظات واستعد جوثلاف لانقضاضه الأخير، وركض سريعًا حتى كاد أن ينقض على القائد هيستوس بشراسة ولكن حال بينهما سهم لاح في الهواء بسلاسة قبل أن يخترق إحدى عينيه، تشتت جوثلاف للحظات وشعر بألم شديد وتلفت باحثًا عن مصدر الخطر، وارتفعت الهمهمات بين الجماهير، كانت أعينهم تبحث عن رامي السهام المجهول؛ وفشلوا جميعًا في إيجاده، استغل هيستوس شتات جوثلاف وشعوره الدفين بالألم، وأنتصب سريعًا ممسكًا نصله بقوة من مقبضه، واندفع نحو جوثلاف بقوة بالغة؛ غامدًا السيف في صدره بقوة، تحطمت عظام صدره القفصية واخترق النصل قلبه وقسمه إلى نصفين.

أطلق جوثلاف عواء خفت تدريجيًّا حتى تلاشى تمامًا، وضرب الصمت كل شيء آخر، لم يصدق أحد من الجماهير الغفيرة ما حدث، لم يتوقع أحد أن يفوز الأسير على أقوى

وحش في القبائل السبع، لحظات وسقط جوثلاف أرضًا غارقًا في دمائه التي تميل إلى الأسود القاتم.

وظل الجميع يرمق القائد هيستوس بنظرات صامتة تتخللها الهمهمات الخافتة، ولحظات أخرى مرت حتى هوى القائد هيستوس مرتطمًا أرضًا بخشونة بالغة، ويتسرب من أسفله نهر من الدماء الحمراء غزيرةً؛ ليس لها نهاية، وتوقف الجميع عن الحديث وران صمت هادر في أرجاء المكان.

اقترب الفجر من الانبلاج، حين كان إيدجار يرى كابوسًا!

كابوس كان يتكرر باستمرار منذ أن رحل السيد والده إلى العاصمة؛ أو على الأرجح منذ أن حصل على تذكاره من مقبرة الأسياد، لا فرار من الأمر، عليه الاعتراف بذلك الأمر وعلى هذا لا يمكنه التخلص من تذكاره أبدًا؛ يشعر وكأنه أصبح جزءًا من روحه، يستيقظ كل يوم فزعًا، متعرقًا، يلهث كفريسة تهرب من أسد ذي أنياب ضارية.

صوت لاحتكاك الفولاذ بالفولاذ، رائحة عرق ودماء، سيوف منكسة، ونصول مكسورة، وآمال منسحقة، وموت في كل مكان، أكوام هائلة من الجثث يعتلي بعضها بعضًا، وأسراب من الغربان تحط وتنهش ممزقة اللحم العفن بمنقارها الحاد، وتنشد أغنية عن الرماد، الدماء تغرق الأرض ببرك صغيرة، ولم تترك شبرًا واحدًا إلا استحال للون الأحمر الدموي، كانت هناك معركة، هتافات، صراخ وبكاء، وآمال منسحقة لم يعد لها وجود، وأشلاء مبتورة في كل مكان، وخيول مهتاجة؛ تصهل وتنخر في مربطها في فزع، كانت رائحة الدماء تعبق الهواء وكل شيء آخر.

يركض إلى الغابة لاهثًا الهواء إلى صدره بغير توقف، شيء ما كان يطارده من خلفه، لا يدرك ما هو بالتحديد، ولكنه يشعر بالخوف والرعب والقلق، وفي كل لحظة تمر يلتفت حوله في كل اتجاه ممكن؛ خلفه ويمينه ويساره، يركض فريسة لشيء مجهول، ينشع جسده عرقًا ساخنًا ويظل يركض حتى يتعثر في حجر أو غصن، يسقط أرضًا بقوة وخشونة، ثم يستيقظ فزعًا من كابوسه بصراخ يكسر سكون الليل، وهناك أصوات تهمس في أذنيه كالفحيح، وهو يعرف مصدر هذا الصوت تحديدًا.

ولكن يبدو أن الأمر يتعدى كونه كابوسًا عاديًّا، يشعر وكأنه أكثر من هذا بكثير، إن الأمر في كل مرة يكون واضحًا جدًّا، وواقعيًّا أكثر من اللازم، حتى إنه يستيقظ بكدمات في جسده أصيب بها في كابوسه الذي يتكرر مرارًا وتكرارًا في سرمدية أصابته بالفزع؛ كل يومٍ، وكل ليلة، حتى بعد أن يستيقظ لا تزال أذناه تستمع إلى صدى لطرق الفولاذ ببعضه، وصراخ لرجال شقت السيوف حلوقهم!

قبل شروق الشمس، تفقد «أركام» شقيقه «إيدجار» في غرفته، وعندما دلف للداخل وجده مستيقظًا، جالسًا على حافة سريره بصمت بالغ وحزين، اقترب منه وانحنى على ركبتيه واضعًا يده على كتفه برفق، ثم طفق يسأل:

- هل تكرر الكابوس؟

قال الفتى بعد لحظات من الصمت:

- نعم، في كل مرة يكون الأمر أكثر واقعية ووضوحًا من ذي قبل!

- ماذا ترى تحديدًا؟

- أرى حربًا هائلة بين فصيلين، سيوفًا متأهبة، رماحًا منتصبة، صفوفًا كبيرة، تتصادم الجيوش مع بعضها بعضًا بقوة، تحلق الغربان في السماء تترصد أجساد الموتى، بعد ذلك تحدث خيانة، ومن ثم بعد ذلك دماء مسفوكة تتسرب من حلوق آلاف الجنود، وجثث ملقاة في كل مكان، تتكوم فوق بعضها بعضًا، ثم تهبط عليها أسراب الغربان تنهش في اللحم الطري، ثم أهرب، أهرب من شيء أجهله؛ يطاردني شيء مجهول، وأركض نحو غابة لا أعرفها أبدًا، غابة فروع أشجارها تهمس وتبكي، وشيء ما يركض ورائي ويطاردني، ولا أعرف ما هو تحديدًا، ألهث بشدة وفي لحظة أتعثر ثم أسقط بقوة، وأستيقظ فزعًا، أرى كدمات السقوط تغطي جسدي عندما أستيقظ!

اقترب «أركام» من شقيقه، في عناق طويل ضمه إلى صدره بحنان، وملس على شعره برفق شديدٍ، ثم قال وهو يشعر بقلق لم يبده بعد أن طبع قبلة على رأسه:

- سيكون كل شيء على ما يرام يا أخي الصغير، أعدك بذلك.

كان يحبه حبًّا جمًّا، ولم يكن يعرف سبب ذلك أبدًا، فقط يحبه بدون إلقاء تساؤلات، وبعد أن تأكد أنه قد غط في نوم عميق مجددًا، فرش عليه غطاء وثيرًا سيحول بينه وبين نسمة البرد القارسة، وغادر منسحبًا من الغرفة، دقائق ثم أشرقت الشمس وبزغ ضوء الشفق البهيج في السماء، كان صباحًا باردًا كالعادة، وجلس «أركام» على مقعد السيادة في القلعة، منذ ذهاب السيد والده إلى العاصمة، وحمل مسؤوليات السيادة على عاتقيه؛ يستمع للشكوى، ويباشر الأسواق والتجار، ويذهب إلى المعبد القديم ليقدم الصلوات، وهناك باركه الكهنة بأسماء الآلهة لحمله عبء السيادة على عاتقيه؛ باركوه باسم «ڤالكين» الهائل؛ إله بحر «الرماد»، وباسم الإلهة «مينيرڤا» الحكيمة؛ ومرشدة البشرية إلى عرش السيادة.

جلس أركام على مقعد السيادة العالي وبجواره زوجته؛ الكونتيسة «إلينورا» ومن خلفه وقف شقيقه «إيڤار»، ارتدى أركام فوق رأسه إكليل السيادة الفضي والذي

تشعب كفروع الأشجار فوق رأسه؛ ذلك الإكليل الذي يرتديه أسياد الأقاليم الأربعة عند جلوسهم على مقعد السيادة لسماع الشكوى؛ ووقف أمامه اثنان من العامة، أحدهما كان نحيلًا للغاية له لحية طويلة وشعر أشعث طاله الشيب، من ملابسه فطن أركام إلى أنه من صيادي الخليج الغربي في أقصى شمال الإقليم، وهذا الخليج كان يقع على حدود الإقليم ويبعد ثلاثة أميال فقط من «وادي الضباب»، والرجل الآخر كان قصير القامة سمينًا؛ يتدلى كرشه حتى كاد أن يتبعثر منه أرضًا، كان حاد الملامح يرتدي فوق رأسه خوذة حديدية، وأدرك أركام أنه حداد من السوق، انحنى له الاثنان احترامًا، ثم قال الرجل السمين:

- فليحيا صاحب السيادة؛ الكونت الصغير أركام.

حنى أركام رأسه متفهمًا ما قد قاله له الرجل، ثم أردف: «أدل بشكواك سيدي، كلي آذان مصغية».

قال الرجل بارتباك وقلق باد على محياه:

- منذ أيام كنت في غابة الغربان، أصطاد هناك وأحتطب؛ في قلب الغابة، وكان معي ابني الصغير، أعلمه الصيد، رأيت غزالًا فطاردته لمسافة طويلة، وعندما اصطدت الغزال وعدت له، لم أجد ابني، بحثت عنه ليومين في الغابة، لكن لا أثر له، اختفى تمامًا، أرجوك ساعدني يا سيدي!

سأل أركام: كم عمر ابنك سيدي؟

- سبع سنوات!

أردف «إيڤار» بانفعال شديد:

- يا للآلهة! بحق الأسياد كيف تترك طفلًا مثله وحيدًا في مكان خطير كهذا؟ غابة الغربان مكان يضج بالوحوش الضارية وقطعان الذئاب، وأسراب الغربان الهائلة!

حنى الرجل رأسه وقال قبل أن يبكي:

- أرجوك يا سيدي، ساعدني لإيجاد ابني.

نظر أركام إلى شقيقه إيڤار وأردف: «أرسل مع الرجل عشرة رجال من القلعة، وأخبرهم ألا يعودوا حتى يجدوا الفتى، في النهاية الفتى لن يلام على إهمال والده».

أردف إيڤار: «حسنًا يا أخي، كما تأمر».

انحنى الرجل وقال بامتنان شديد:

- شكرًا لك يا سيدي الكونت الصغير، أنا ممتن لك جدًّا.

أعطى إيڤار الأمر لعشرة رجال أكفاء بالخروج مع الرجل ليبحثوا عن ابنه في غابة الغربان، وغادروا القلعة على أعقابهم سريعًا، ثم نظر أركام إلى الرجل الآخر النحيل وأردف:

- تحدث يا سيدي، كلي آذان مصغية لك.

انحنى الرجل ثم أردف:

- فلتحيا سيدي الكونت، أنا أعمل كصياد من الخليج الغربي.

- وما هي شكواك سيدي؟

- في أقصى الشمال وعلى حدود الإقليم، هناك حرب يشتعل لهبها يا سيدي.

نظر أركام إلى زوجته إلينورا، فأردفت:

- نعم، تلك الحرب بين قبائل الويكنجر السبع وبين قوات أطلس.

نظر أركام للرجل وأردف:

- نعم، ولكن الحرب خارج حدود الإقليم!

فأكمل الرجل:

- لا يا سيدي، لقد دخل جنود أطلس الحدود ويعترضون سفن الخليج بأكمله، ينهبون ويسرقون كل سفينة تمر بين أمواج الخليج، يدفع الصيادون للجنود الكثير من الذهب لكي يعبروا الخليج، يستولون على السفن وينهبون البضائع المحملة بداخلها، وبعد أن ينتهوا يضمرون النيران في أشرعة السفن المنهوبة وتغرق في قلب الخليج.

وقف أركام من على مقعد السيادة واستحال فمه إلى خط رفيع وقال بغضب شديد:

- لا تقلق يا سيدي، سوف أرسل إلى الخليج الغربي مئات من الجنود وآلافًا إن تطلب الأمر ذلك، ولسوف أخرج فوق صفوف قواتي بنفسي إن لم ينته الأمر قريبًا، أعدك بهذا سيدي، عهدًا بشرفي!

انحنى الرجل وأردف:

- فلتتبارك بك الآلهة يا سيدي.

قالها الرجل وانحنى ورحل، قبل أن يدخل حارس من حراس القلعة ويردف:

- أعتذر لك سيدي على المقاطعة، ولكن هناك رجل خارج القلعة، يريد رؤيتك ويصر على مقابلتك الآن، ولكن يبدو من هيئته أنه غريب وليس من الإقليم.

نظر أركام للحارس باهتمام وأردف:

- دعه يدخل.

وخرج الحارس وما لبث دقائق حتى دخل ومن ورائه الرجل، كان مثيرًا للشكوك؛ من النظرات الأولى عرف أركام أنه ليس من الإقليم، شعره كان حالكًا كظلام الليل أو كالحبر الأسود القاتم، معلقًا في ظهره سيفًا طويلًا جدًّا وهائل الحجم، ويرتدي درعًا من جلد حيوان له حراشف خشنة الملمس كما خمن أركام، انحنى الرجل له، نظر له أركام ثم أردف:

- تفضل بالحديث يا سيدي، من أنت؟

أردف الرجل بعد لحظات من الصمت:

- مرحبًا بك أيها الكونت، أنا أدعى آجينار؛ صديق قديم للسيد والدك!

النعيق العاشر

«همسات داخل القصر الملكي»

10

لقد توسل كثيرًا للآلهة.

لكن لم تعد الآلهة تسمع صلواته بعد الآن، كان يشعر بهذا الشعور يتخلل روحه، كان كل من في القصر ينتظر ولادة الملكة، يتوغل الرعب داخل أرواحهم الهشة؛ من أن تلد الملكة ذكرًا مرة أخرى، وخاصة أطلس يشعر بفزع شديد، تلك المرة الثانية التي تحبل فيها الملكة هيميريا، وفي المرة الأولى فرح أطلس جدًّا لكون مولوده الأول ذكرًا يرثه، ولكن لم تدم تلك الفرحة طويلًا وتخطفتها الغربان وطارت بعيدًا، وكان داريوس يشعر بالقلق أيضًا، وكثيرة كانت الأشياء التي تدور في خلده أثناء ذلك الوقت الذي يأبى أن يمر؛ ما حدث منذ عشرة أعوام خلت من المحتمل أن يتكرر مرة أخرى، وإن كان المولود ذكرًا كما يشاع، فستكون تلك كارثة لن يستطيع أحد صدها أو منعها، سيكون هذا جنونًا عاتيًا سوف يطلق عنانه ولن يكبحه أحد، حتى هو سيكون عاجزًا عن إيقاف أطلس وكبح جنونه العاتي حينئذٍ، ولكنه لن يصمت مجددًا على هذا الجنون، حتى وإن تطلب الأمر أن يسحب سيفه من غمده ويشق به صدر أطلس ويحطم قلبه إلى آلاف القطع لينتهي هذا الأمر إلى النهاية، وتتوقف تلك الغربان عن النعيق إلى الأبد!

نظر داريوس إلى وجه أطلس المربد، كان جلده باهتًا أصفر لا حياة فيه، ولحيته الغزيرة غزاها الشيب، وجهه يمتلئ بتجاعيد عديدة لا حصر لها، منذ عشر سنوات كان أطلس شابًّا تتمناه كل فتاة في المملكة، هل عشرة أعوام من الممكن أن تمر كمائة عام؟ كان هذا منذ موت شقيقة الملك «إيڤيدوكيا»، وتساءل داريوس بإلحاح شديد: «هل لو خسر أطلس الحرب ضد إلكادور، هل هناك احتمال ولو ضئيلًا جدًّا بأن تكون الأمور على حال أفضل من هذا؟».

ولم يجد إجابة لسؤاله الملح...

كان كل من في القصر الملكي ينتظر ولادة الملكة، والجميع يشعر بالخوف والقلق، جميعهم بلا استثناء؛ حتى الخدم وعاملو الإسطبل والوصيفات؛ كان الجميع منتظرًا ويتساءل هل ستحل كارثة أخرى أم لا؟

وتحرك الملك بقلق وبتشتت أمام غرفة الملكة ذهابًا ثم إيابًا بتكرار مكرر لا ينتهي، يأكل القلق روحه والغربان تنعق في رأسه وتنهش قلبه بمخالبها الحادة، يتسرب صراخ الملكة هيميريا من خلف الأبواب والحوائط فيزداد قلقًا فوق قلقه، اقترب منه داريوس وأردف في محاولة لتهدئة ذعره:

- عليك أن تهدأ يا جلالة الملك!

قال الملك بهذيان وقلق شديدين جدًّا:

- كيف لي أن أهدأ يا داريوس، دقائق وستلد هيميريا، وإن كان المولود ذكرًا سيتكرر الأمر يا داريوس، وستهبط أسراب الغربان مجددًا، وستنعق طوال الليل، ولن يكون لليل نهاية، وسيتوغل ظلامه إلى كل تلك الأرواح التي تعج بالطمأنينة، طمأنينة كاذبة لا وجود لها ستفسدها الغربان، في أحلامي الفزاعات لا ترهب الغربان يا داريوس، بل إن الفزاعات تخشى من ظل الغربان السوداء، الغربان تنعق في أذني، ويتغلغل نعيقها إلى روحي، كاذبة هي الفزاعات أحيانًا، تدّعي الشجاعة وتختبئ حين تنعق الغربان!

- يا إلهي أنت تهذي يا أطلس! تبدو مرهقًا بشدة، أرجوك اهدأ لن يتكرر شيء من هذا، وأعدك أنني لن أسمح بهذا أبدًا، ولا وجود لفزاعات تخشى الغربان ولا لغربان تنهش لحم الفزاعات!

- في أحلامي تخشى الفزاعات من الغربان، وإن كان مولودي هذا ذكرًا...؟

قاطع داريوس الملك بحدة وشراسة:

- كفاك يا جلالة الملك! أرجوك، كما أخبرتك من قبل، إذا كان مولودك ذكرًا أو أنثى لسوف يعيش، ولن يتكرر ما حدث منذ عشرة أعوام قبل الآن، صدقني، حادثة «سرب الغربان» تلك لن تتكرر مجددًا، ولن نسمح للغربان بالنعيق الليلة، أعدك بهذا!

وبعد لحظات توقف صراخ الملكة تمامًا وعم المكان صمت هادر تبادل الجميع النظرات بقلق دفين، لحظات مرت ثقيلة كالجبال، وفي لحظة أخرى فتح باب غرفة الملكة وخرج منها الطبيب «سيوران» يحمل بين يديه رضيعًا عمره فقط لحظات، واربدت وجوههم جميعًا محملقة أعينهم في الطبيب الكهل وانتظر الجميع منه أن ينطق ولو كلمة واحدة، وضرب الصمت لسان الملك ولم يعد قادرًا على النطق، وارتعش قلبه داخل صدره، اقترب داريوس من الطبيب سيوران بقلق جم باد على محياه، مسح الطبيب عرقه الغزير الذي تدلى على جبينه ثم أردف:

- إن المولود هو فتاة جميلة، تشبه الملكة هيميريا تمامًا!

وناول الطفلة لداريوس، توقف الزمان للحظات لهث فيها داريوس أطنانًا من الهواء إلى صدره وشعر أن روحه سكنت جسده مجددًا بعد أن غادرتها لوقت طويل، وشعر براحة كبيرة تتوسد جسده، وتبدد القلق والفزع الذي سكن فؤاده منذ وصول تلك الرسالة الملكية المشؤومة له، وزفر بعمق هامسًا:

- «الشكر للآلهة».

ثم طبع قبلة رقيقة على رأس المولودة وتقدم بها نحو الملك أطلس الذي ضرب لسانه الصمت، ترتعش أطرافه ويحمل وجهه أمارات الفزع غير مصدق ما سمعته أذناه بعد، وعندما بلغ داريوس الملك، ناوله الطفلة وأردف:

- احمل صغيرتك يا أطلس.

تناولها أطلس ويداه ترتعشان، ضمها لصدره ثم بكى؛ فاض الدمع من عينيه بغتة بلا شعور منه، هو لا يكاد يصدق ما يراه حتى الآن، ما يلمسه ويشعر به بين أصابع يديه هي ابنته من صلبه، فتاة لن تتخطفها الغربان أبدًا، وجهه كأرض جدباء صب فيها الماء وهطل المطر لأسابيع وشهور حتى أنبتت نباتًا أخضر بهيجًا.

ودلف إلى غرفة الملكة هيميريا وهو يحمل طفلته بين يديه، كانت الملكة مستلقية على سريرها، من أسفلها قماشة بيضاء تخضبت بالدماء فاستحالت حمراء دموية، كان يبدو على الملكة الإرهاق الشديد والإنهاك؛ متعبة من آلام الوضع، باهتة كانت بشرتها، وجبينها متعرقًا ولا تستطيع أن تحرك أوصالها من الألم الشديد الذي يعتري جسدها، اقترب منها الملك وانحنى حتى بلغ رأسها وطبع قبلة على جبينها، ثم أردف حين نظر إلى طفلته بسرور غاب لعشر سنوات:

- انظري يا هيميريا كم هي جميلة، إنها تشبهك كثيرًا.

تحاملت الملكة هيميريا على يديها لكي تجلس، وساعدها أطلس، وحين جلست حملت الطفلة بين ذراعيها، وابتسمت واستحالت الابتسامة إلى دموع متساقطة من عينيها من فرط مشاعرها المتخبطة، فأردف أطلس:

- ينتهي الكابوس الآن يا هيميريا.

نظرت له الملكة هيميريا، وداعبت وجنته وأردفت:

- نعم يا عزيزي، ينتهي للأبد!

ودلف داريوس إلى غرفة الملكة، كان الملك جالسًا بجوار هيميريا، انحنى لهما قبل أن يقول بابتسامة:

- فليحيا الملك والملكة، والأميرة الصغيرة.

انتصب الملك من على السرير قبل أن يطلق ضحكة هادرة اهتزت لها حوائط الغرفة، وأردف:

- عليك اللعنة يا داريوس، تعال إلى هنا.

واقترب الملك من داريوس وعانقه عناقًا طويلًا وأردف بصوت خفيض وممتن:

- لا أعرف ماذا كنت سأفعل لولاك يا داريوس؛ شكرًا لك يا صديقي القديم.

قال داريوس:

- أنت لست ملكي فقط يا أطلس، أنت صديقي، لقد أحببتك أكثر من شقيق لي، حاربت بجوارك وسخرت سيفي لخدمتك، في وقت ما ظن شعب إيڤيريا أننا إخوة نحمل دماء واحدة، أتذكر تلك الأيام التي خلت؟

ابتسم الملك وأردف: «نعم، بحق الأسياد لا أكاد أنساها أبدًا».

صمت داريوس قليلًا ثم أردف:

- ولهذا عليك أن تعذرني.

قطب الملك جبينه، ثم أردف مستغربًا:

- أعذرك! ولأي أمر تطلب عذري؟

- لن أمكث هنا طويلًا، وسأرحل قريبًا جدًّا عائدًا لوطني؛ لدي أطفال بانتظار عودتي.

قال الملك متفاجئًا: «ترحل؟ لكل ملك يد، وأنت كنت دائمًا يدي!».

- لكل شيء نهاية يا جلالة الملك، لقد أقسمت على خدمتك طوال حياتي؛ مسخرًا لك سيفي وروحي، وهذا كان سبب عودتي للعاصمة، منذ عشرة أعوام، وما عدت لأجله قد تم الآن، وليس هناك سبب لبقائي أكثر من هذا!

- سيؤلمني رحيلك يا صديقي العزيز، ولكن في النهاية أحترم رغبتك يا داريوس، ولكن على الأقل عليك أن تحضر الحفلة التي سوف أقيمها على شرف المولودة الجديدة.

- بالتأكيد جلالتك سوف أحضر الحفلة على شرف الأميرة الصغيرة، إنها من صلبك؛ كأنها من صلبي تمامًا، بالمناسبة، ماذا سوف تسميها؟

- إيڤيدوكيا، سوف أسميها إيڤيدوكيا!

شيء ما همس في أذنيه، عن نبوءة ما، أو عن مستقبل قريب ربما، ولهذا هو هنا الآن؛ كان آجينار منحدرًا أقصى الشمال خارج المملكة؛ متجهًا إلى أبراج السحرة في «مالاجار»، ولكن استوقفته الهمسات في غابة الغربان، كلما اقترب من الإقليم زاد الهمس في أذنيه أكثر؛ همس يجهل مصدره تحديدًا، ولكنه كان مألوفًا جدًّا إليه، وشاهد رؤيا عن المستقبل عندما كان في عالم الظل، لشخص هو يعرفه جيدًا، رآه مرة أو مرتين ولكنه سمع عنه الكثير من الحكايات؛ عن شرفه وأمانته، شخص قد نال احترامه بشكل شخصي وخاص، رجل تعرفه الممالك التسع ويحترمه الملوك لشرفه ونبله، وازداد الهمس ليلًا في أذنيه عندما خيم في الغابة، وعرف أخيرًا مصدر الهمس، أو تكهن على الأرجح، كانت الهمسات مصدرها هي «القلعة الرمادية»، قلعة سيد الإقليم.

أول مرة رأى فيها آجينار داريوس، كان في اجتماع الملوك الأخير، حينما كانت دعوى الملوك ما تزال قائمة، وتجمعت الممالك الثماني معًا في مملكة البشر ليقرروا أمر الأمير «إلكادور»، وكان آجينار حاضرًا حينئذ مع ملك الأشاوس «جلادور»، رفض الملوك التسعة ونبذوا حب إلكادور، إلا هو، وقف بين الملوك التسعة بشجاعة وجرأة ليس لها مثيل، شامخًا كالجبال، وحدّث الملوك عن الأمر؛ عن أن الحب ليس من العدل أن يكون محرمًا، ولكن لم يتقبل دعوته أحد، ورفض الملوك حديثه رفضًا قاطعًا.

لقد سمِع آجينار الكثير من الحكايات عن داريوس سيد إقليم «الأسياد»، وفي الحرب عندما تقابلا وجهًا لوجه كان رجلًا شجاعًا حقًّا، ولا يهاب شيئًا أبدًا، حتى إنه لم يكن ليهاب الموت، تذكر وهو في هذه المعركة عندما تجرع «الستريــجا» واستحال في لحظات لذئب رهيب بأنياب عظيمة ومخالب مشحوذة كالصوارم واندفع يسابق الريح مزمجرًا عن أنيابه ليشتبك مع عملاق من عمالقة إلكادور، وبعد معركة هائلة بينهما غمد أنيابه ونزع حلق العملاق ثم خارت قواه تمامًا عائدًا لهيئته المعهودة، حمله داريوس فوق جواده وركض به بعيدًا عن المعركة تمامًا، لم يكن آجينار ليصدق أن بشريًّا قد أنقذ حياته، وعندما رمق وجهه شعر بأنه مختلف تمامًا عن باقي البشر، ثم فقد وعيه تمامًا ولم يشعر بشيء بعد ذلك البتة.

في غرفة الاستقبال، جلس الكونت أركام وزوجته؛ الكونتيسة إلينورا على الكرسي العالي وجلس بجوارهما شقيقه إيڤار، وعلى الطاولة جلس أمامهم آجينار ووضع سيفه؛ «العويل» بجواره، قدم له أركام كأسًا من النبيذ الأحمر المعتق وأردف:

- تفضل يا سيدي.

تناول آجينار كأس النبيذ وأردف:

- شكرًا لك.

- كنت تقول إنك تعرف أبي؟

صمت آجينار للحظات وأردف:

- نعم أعرف السيد والدك، لقد شاركنا في حرب الإبادة معًا.

أردف إيڤار:

- لكن أبي لم يقص أي قصة عن محارب حارب بجواره غير أطلس.

تناول آجينار من كأس النبيذ وأردف:

- أنقذ السيد والدك حياتي في معركة «الأغصان الحزينة» عندما خارت قواي آنذاك، ولا أعتقد أنه قد يتذكر كل وجه يراه في المعركة.

- هل خضت معركة «الأغصان الحزينة» مع أبي حقًّا؟

- نعم، كانت تلك المرة الأخيرة التي أرى فيها السيد والدكم.

قال أركام بلهجة حادة ولاذعة:

- وهل حضرت الآن لتخبرنا مغامراتك في الحرب مع أبي؟

- لا، أنا هنا لأحذرك.

- مم تــحذرني؟

- لقد رأيت نبوءة، عن المستقبل، إن السيد والدكم واقع في مشكلة كبيرة، لا أدري ما هي تحديدًا، ولكن كان هناك حشد كبير غاضب، ومحاكمة جارية، كان هناك ندب ينزف في السماء، وبحيرة يتحول ماؤها إلى دماء، ونصل مخضب بالدماء البريئة، وكان هناك ثعبان يقف وراء الملك، يهمس في أذنيه بالأكاذيب، ثم دموع صادقة تنهال بصمت بالغ وحزن عميق يتخلل الروح... هذا ما رأيته في النبوءة، ولا أعرف ما الذي يمكنكم فعله، ولكن توجب على أن أخبركم.

قال أركام غير مصدق:

- ما تلك الترهات التي تقولها يا سيدي؟

- تلك لم تكن يومًا ترهات، ما أقوله لك هي الحقيقة التي لا تشوبها شائبة، صدقت أم لا، تظل الحقيقة هي الحقيقة في كل الأحوال.

لم يشعر أركام بأن الرجل يكذب، وناوش قلبه القلق، وحاول الهروب من قلقه حينما قال:

- لكن إن كنت تعرف أبي جيدًا يا آجينار، لكنت عرفت أنه رجل شريف.

- نعم يا أركام، إنه رجل شريف، وهذا سبب أدعى لتصديقي في النهاية.

- الشرف درع يحتمي به الشريف.

- نعم، ولكن درع من الورق، وسرعان ما يتم اختراقه بسهولة بالغة؛ في زمن الحرب يكون الشرف مجرد أكذوبة عابرة.

قالت الكونتيسة إلينورا:

- الحرب؟

- نعم أيتها الكونتيسة، الحرب قريبة جدًّا، أقرب مما يعتقده الجميع، وعلى الجميع أن يستعد لها جيدًا.

عم الصمت المكان وتبادل الجميع النظرات، ثم وقف آجينار مغادرًا وقال:

- أعتقد انني قد سددت دين السيد والدكم الآن!

قالها آجينار وانتصب وعلق «العويل» وراء ظهره، ثم خرج من القلعة واعتلى فوق صهوة حصانه، ورحل متحركًا شمالًا خارج الإقليم متجهًا إلى «أبراج السحرة» في «مالاجار»، وحالما خرج ضرب الصمت ألسنتهم جميعًا بغير شك، ظن أركام أن الرجل ضرب عقله الجنون والخبال، ولكنه لا يشعر بالراحة على أية حال، ويراوده شعور غريب بالقلق، شعور هيمن عليه بأن شيئًا ما سيئًا قد يحدث في أي وقت، وكان كل هذا الشعور متزامنًا مع كابوس شقيقه إيدجار المخيف بالحرب الذي يلازمه منذ أيام خلت، فكان هذا سببًا أدعى ليقلق أكثر، أكثر بكثير من أي وقت مضى!

وفي الليل أعلن الملك عن الحفل الملكي الذي سوف يقيمه على شرف ابنته الأميرة الصغيرة «إيڤيدوكيا»، وانتشر الأمر في المملكة بأسرها، في الأقاليم الأربعة وفي الممالك الثماني أيضًا، وعمد الخدم إلى تجهيز القصر للحفل، علقت الزينة والمشاعل والشموع في البهو الملكي وقاعة العرش، جعلت الشموع المضاءة داخل قاعة العرش الحوائط كالحرير اللامع؛ تبدو كأنها تتوهج، محوّلة القاعة القاتمة إلى قلعة سحرية بث فيها الضوء الحياة، منذ فترة كانت طويلة جدًّا لم يشعر أطلس بالحياة، دبت الحياة في

القاعة الواسعة؛ وللمرة الأولى منذ عشرة أعوام كاملة، وقف أطلس أمام تمثال شقيقته «إيڤيدوكيا» وقدم احترامه وصلواته، وفي الأيام التالية تم وضع موائد الطعام الهائلة في البهو الملكي؛ التي احتوت لحم الأوعال والغزلان والأرانب وكل أنواع اللحوم الأخرى، وبجوار اللحم وضع النبيذ من كل نوع وصنف، وفي مائدة أخرى وضعت الفاكهة، كل أصناف الفاكهة ومنها كانت فاكهة التفاح الفضي؛ المقطوف من الغابات الملكية، والتي لا يتناولها سوى الملك والعوائل فاحشة الثراء في المملكة فقط.

كان داريوس في جناحه الملكي آنذاك، جالسًا على كرسي مريح ويراقب نيران المدخنة المتأججة لهبها، ثم طفق يفكر؛ من الذي يدس «الستريــجا» لأطلس، فكر مرات عديدة بأن يخبر أطلس بالحقيقة الكاملة، ولكنه يعرف ملكه وصديقه جيدًا؛ لن يؤثر الصمت ويفكر بهدوء معه، بل إن أطلس متسرع ومن الممكن أن يقدم على شيء غبي وغير مدروس جيدًا قد يسبب فرار الفاعل بفعلته دون عقاب، ولهذا كان يفكر قليلًا في الأمر بهدوء وبتروٍّ، معزولًا عن العالم بين جدران عقله، بعيدًا عن كل تلك الجلبة في الخارج، وعليه أن يجد حلًّا قبل أن يعرف أطلس بأمر السم الذي يدس له دون علمه، ولن يرحل داريوس من العاصمة قبل أن يجد الفاعل، ولسوف يفعل هذا قريبًا جدًّا.

في الليل كان داريوس يفكر في ارتداء الرداء الذي أرسله له أطلس خصيصى للحفل، كان الرداء عبارة عن زي من المخمل الحريري ذي لون أسود طاغٍ، ومعه قناع للتنكر مروع المنظر، وأطلق داريوس ضحكة عندما شاهد الرداء، وفكر كيف سيبدو سخيفًا حقًّا عندما يرتديه، لن يرتدي هذا الشيء ولو بأمر مباشر من الملك أطلس بنفسه.

وبدأ بارتداء ملابسه المعتادة التقليدية، رداء من الجلد المدبوغ تعتليه عباءة يعتليها فرو دب بني اللون، وحزام جلدي متين يعلّق عليه السيف، وعندما انتهى نزل إلى الحفل، لاحت رائحة اللحم المشوي في البهو الملكي الفسيح، في الحفل حضر الكثير من العوائل الكبيرة التي سكنت حي القصور، وكثير من العائلات المختلفة من الأقاليم الأربعة، جميعهم كانوا يرتدون المخمل اللامع، وعبر البهو إلى قاعة العرش، نظر عن يمينه وعن يساره، فأدرك أنه في حفل تنكري؛ رجال يرتدون بعض الأقنعة المروعة، ونساء يرتدين ثياب الحفل التي تتلألأ تحت اللهب الأحمر، كانت الموسيقى تشدو في الخلفية؛ بأمر من أطلس عزفت فرقة الأوركسترا مقطوعة موسيقية هادئة، ورقص عليها ومن حولها هؤلاء الأشخاص رقصًا بارعًا.

كان الملك جالسًا على عرشه يشاهد الراقصين، يرتدي رداء ذهبيّ اللون، يرفع الجميع له الأنخاب نخبًا وراء نخب، وتحرك داريوس في قاعة العرش متجهًا إلى الملك؛ وانحنى له كل من تقابلت عيونه به في الحفل؛ يعرفه الجميع ولا يستطع أن يتعرف على أحد

بسبب تلك الأقنعة سخيفة المنظر التي تعتلي وجوههم، تحرك حتى بلغ العرش الملكي، ووقف بجوار العرش، فأردف الملك بعد أن رمقه بابتسامة:

- لماذا لم ترتد رداء الحفل الذي أرسلته لك، إنها حفلة تنكرية بحق الأسياد!

قال داريوس:

- هل حقًّا علي ارتداؤه؟ إنه سخيف للغاية.

أطلق الملك ضحكة ثم أردف:

- لا، لا، لقد عرفتك دائمًــا جادًّا وكئيبًا طوال الوقت، وإن الرداء سخيف حقًّا بحق الجحائم، لا أعرف من يصمم هذه السخافات.

ابتسم داريوس حين تنهد الملك وأكمل:

- أتعلم؟ تلك الليلة وهذا الحفل يذكرني باجتماع الممالك التسع الأخير؛ حين كانت دعوة الملوك ما تزال قائمة، واجتمع الملوك لينظروا في أمر إلكادور، وكانت إيڤيدوكيا حينها في غرفتها تنتظر لتعرف ما اجتمع عليه الملوك، كانت رقيقة جدًّا كما أتذكرها، لاحقًا وعندما أخبرتها بالذي اجتمع عليه الملوك شعرت بالحزن في قلبها، لقد كانت تحبه يا داريوس، كانت تحب اللعين، ولكن ليس كل حب هو حبًّا مشروعًا... أليس كذلك؟

- الحب يا جلالة الملك، هو شيء لا نملك لجامه قط، ولا نملك أفئدتنا لنتحكم فيما تشعر، الحب ليس جريمة، بل الجريمة ما ارتكب باسم الحب!

صمت الملك وقال بنبرات فيها شيء من الحزن والاستياء:

- أنت محق، دائمًا محق عليك اللعنة.

ثم استطرد بحزن بالغ:

- كل ما فعلته، فعلته لأجل الحب يا داريوس، وليس لشيء آخر.

- أعرف ذلك يا جلالة الملك.

صمت للحظات ثم صاح هادرًا: «لم تأخرت الملكة عليها اللعنة؟!».

- لعلها ما تزال ترتدي زي التنكر السخيف.

- اذهب إليها يا داريوس، وانظر لماذا تأخرت كل هذا الوقت، وعجل في قدومها.

- أمر جلالتك.

وتحرك داريوس حتى خرج من قاعة العرش، حينها اعتلت فتاة مسرح الأوركسترا وبدأت تغني أغنية عن الأمل والحياة، ومشى الممر حتى بلغ غرفة الملكة هيميريا، وكاد أن يطرق الباب، حين استوقفه صوت ينبعث من الداخل؛ من قلب الغرفة على الأغلب، ولاحظ أن لا حراس هنا يحرسون المكان، وتوجس خيفة وشعر بقلق دفين ينبعث من داخله، كان هناك صوت يحدث الملكة هيميريا بلهجة حادة جدًّا، لا يجرؤ أحد أن يحدث بها ملكة، واسترق السمع وتسلل الصوت إلى أذنيه حادًّا كنصل السيف:

- سوف أخبر الملك بكل شيء؛ سأخبره أن الفتاة ليست من صلبه!

ورنت الكلمات في أذنيه كالناقوس، وتخبط قلبه في صدره وشعر بارتباك شديد، لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه قط، وهنا شعر باشمئزاز وأراد أن يتقيأ قلبه وروحه إن استطاع، وعم الصمت المكان، وران هدوء قاتل داخل الغرفة، حتى فتح الباب بغتة، انتفض قلب داريوس من مكانه، كانت هيميريا من فتحت الباب وأغلقته من خلفها، وشعر داريوس أنها تخفي شيئًا ما، وتبادل كلاهما نظرات صامتة وحادة، ملتهبة كالشهب الساقطة من أعلى السماء، كانت الملكة مشوشة ولا تعلم ما قد سمعه داريوس بالتحديد، وشقت عصا الصمت عندما قالت:

- هل أستطيع مساعدتك كونت داريوس؟

استجمع تركيزه في لحظة وابتلع ريقه، ابتسم لها كأنه لم يستمع لشيء، وقال:

- نعم يا مولاتي، إنه الملك، يسأل عن سبب التأخير.

بادلته الابتسامة، كأن شيئًا لم يحدث قط: «سأكون جاهزة خلال لحظات».

انحنى داريوس وغادر، وهو يعلم أن الملكة تخفي شيئًا ما، وإن كان ما سمعه صحيحًا ستكون تلك كارثة عظيمة، أكبر من كارثة «الستريجا» المدسوسة أو النبوءة والكلمات الموعودة، أو أي شيء آخر ممكن، وظل يفكر في الشخص المجهول الذي كان يتحدث معها في الغرفة، يستطيع التخمين أن من لهجة الرجل المجهول أنه يهددها بإخبار الملك عن هذا السر الفظيع... ثم فكر!

يا للآلهة... إن علم أطلس هذا سيقتل الملكة والمولودة الصغيرة معها، ومع كلاهما نصف البلاط الملكي إن لم يتصرف تصرفًا صحيحًا، ولكن كيف لفتاة لا تحمل بين عروقها دماء ملكية أن تجلس على عرش السيادة، شل عقله للحظات تفتتت فيها أفكاره داخل رأسه، ولا يدرك ماذا يفعل الآن، ولا يدرك ما التصرف الصحيح الذي

يجب عليه أن يتخذه في تلك اللحظة، واتجه إلى الحفلة الراقصة بصمت هادر يخترق روحه ويطن في عقله بلا توقف؛ كآلاف الدبابير... أو ربما كانت آلاف الغربان!

دقائق ثم دخلت الملكة إلى الحفل وبين ذراعيها كانت المولودة الصغيرة محمولة، وانحنى لهما جميع من في البهو، وجلست بجوار الملك، وجلس داريوس بعيدًا يلفحه الصمت القاتم، وظل يتبادل النظرات مع الملكة طوال الحفلة، نظرات صامتة ولكن كانت كافية ليفهم كلاهما ما يدور في خلد الآخر.

النعيق الحادي عشر

«زفاف القمر الأحمر»

11

لم ينم داريوس طوال الليل، ولم تغفل عيناه حتى.

وغمره اضطراب عميق! بلا أدنى شك يشعر بالاضطراب الشديد، مشتت، سرمديةً كانت الأفكار في رأسه، ولا يسعه الخروج من تلك الدائرة التي استحالت إلى ما لا نهاية، ولا يسعه أيضًا تصديق الأمر حتى الآن، في النهاية لم تكن الملكة هيميريا عاهرة ما وجدها أطلس في زقاق من الأزقة، هو يعرف الملكة هيميريا جيدًا، كانت من عائلة عريقة ترعرعت في العاصمة، هو يعرف أنها كانت تحب أطلس حبًّا شديدًا لا شك فيه، ويعرف أيضًا أنها لن تفعل فعلًا شائنًا كهذا أبدًا؛ الخيانة ذنب لا تغفره الآلهة في العادة، وطرد تلك الأفكار من رأسه بعد أن أنهكت روحه طوال الليل، وبعد نوبات من التفكير المتواصل الذي لم ينقطع لساعات عديدة وجد داريوس خيطًا يمكن أن يتتبعه، بين كل تلك الخيوط التي تشابكت ببعضها بعضًا واستحالت إلى شكل معقد للغاية، استطاع داريوس أن يحصل على استنتاج؛ استنتاج حام في رأسه طوال الليل؛ إن كانت تلك الفتاة ليست من صلب أطلس حقًّا فهي بكل تأكيد ليست من صلب الملكة هيميريا كذلك، وهذا ما توصل له في نهاية الأمر، ولكن السؤال الحقيقي الآن؛ كيف؟!

وهذا ما كان عليه أن يكتشفه سريعًا!

إن المؤامرات التي تحاك في البلاط ليل نهار خطيرة للغاية، وعليه أن يعمد لفك كل تلك الخطوط المتداخلة والمعقدة والوصول للحقيقة سريعًا، والآن هو ليس متأكدًا من شيء البتة سوى أمر واحد فقط؛ إن مولود أطلس كان ذكرًا في الحقيقة وليس فتاة كما ادعى الجميع عند ولادة الملكة، كان الأمر منطقيًّا إلى حد ما، وقرر في الصباح الباكر أن يستدعي الطبيب «سيوران» في أسرع وقت ممكن وبشكل طارئ والتحقيق معه في الأمر بسرية تامة، وبدون علم مخلوق، وخاصة أطلس، أطلس لا يجب أن يعرف أي شيء على الإطلاق، فإذا عرف أطلس عن تلك الأمور شيئًا سيكون الأمر بمنزلة كارثة حقيقية، كارثة لن يستطيع أحد منعها ولا التصدي لها، ولا حتى هو سوف يملك القوة الكافية لكبح لجام الجنون الذي سوف يفرط عقده بغير حساب، ستسفك الكثير من الدماء؛ وسيطلق أطلس عنان جنونه؛ ولهذا يجب عليه أن يتحرك في الظلال بهدوء وبصمت تام، وربما من الممكن أن يسوقه الأمر إلى الخائن في البلاط الملكي؛ الذي يدس لأطلس «الستريــجا» دون علمه.

في الصباح انصب ضوء الشروق عبر النوافذ الحمراء الهائلة على أرضية قاعة العرش الضخمة، لا شيء يمكن أن يكون أثقل من يوم بلا نبيذ؛ تجرع كؤوسًا عديدة من

النبيذ، كان يدرك أن اليوم سيكون طويلًا ومرهقًا جدًّا، هو لم ينم من البارحة، وشعر بالإنهاك الشديد والصداع الذي فشل النبيذ بإيقافه، مرت ساعات في الصباح لم يشعر بمرورها، منهمكًا كان في العمل؛ إدارة شؤون الدولة ليست بالشيء اليسير في النهاية، وجاء له الاستدعاء على الظهيرة؛ استدعاء خاص من الملكة هيميريا لداريوس، وأخبره الحارس أن يحضر سريعًا في أقرب وقت ممكن، لم يكن من الممكن أن يتجاهل داريوس هذا الاستدعاء، وكان من الصعب قبوله أيضًا، ولكن مع بعض التفكير اتخذ قراره وتحرك إلى غرفة الملكة، كانت الأبواب بلا حراسة مجددًا، طرق الباب قبل أن تأذن له هيميريا بالدخول.

ودلف للداخل، كانت هيميريا جالسة على الكرسي تراقب السفن التي مخرت في مياه مرفأ «كاتلوس» بهدوء شديد، كانت تراقب النوارس الطائرة التي حلّقت في كبد السماء، كانت ترتدي فستانًا من المخمل الأزرق، وطوق عنقها الأبيض الياقوت القمري الأزرق، كانت تضع أحمر شفاه يلمع عندما يداعبه ضوء الشمس الساقط، كانت الرضيعة الصغيرة تغط في نوم عميق على السرير، اخترق داريوس رائحة عطرها العاتي الذي تخلل أنفه بقوة غاشمة، حينها ألقى إليها داريوس نظرة سريعة، قبل أن تنظر له الملكة هيميريا وتقول:

- لعلك لم تنم الليلة الماضية؟

صمت داريوس ووجهه يحمل تعبيرًا قاسيًا، فأكملت:

- أنا أيضًا لم أذق طعم النوم في الليلة الماضية!

سأل داريوس بعد لحظات من الصمت:

- وما السبب يا مولاتي؟

قالت هيميريا بنبرات حادة كسكين:

- دعك من العبث يا داريوس، فكلانا يعرف السبب جيدًا!

لا تزال تلك النظرات الجادة تعتلي وجهه الصارم، نظر إلى الملكة وأردف بوضوح:

- إن الفتاة ليست من صلب أطلس! فمن صلب من إذن؟

- الفتاة هي ابنة مزارع من العامة.

- إن مولود أطلس كان ذكرًا من البداية؟!

تداعى ذلك الوجه الصارم الذي كانت تتصنعه في لحظات، وشرعت ببكاء طويل تكتم نحيبه بداخل صدرها، ثم لثمت بعض الهواء إلى رئتيها وأردفت:

- نعم.

قال داريوس بعصبية وغضب جم طفح من فمه:

- بحق الأسياد! لم فعلت هذا؟

مسحت الملكة دموعها المتدلية ثم أردفت:

- هل سأنتظر ليموت ابني الثاني أمام عيني وأقف مكتوفة اليدين، لقد جن أطلس تمامًا، كلانا يعرف هذا يا داريوس!

- كنت سأتصرف يا مولاتي، ولكن الآن تلك مشكلة عويصة لا حل لها.

قالت صارخة:

- لا مشكلات هنا!

- لا ينبغي لشخص لا تسري دماء الأسياد بين عروقه أن يجلس على عرش السيادة البشرية.

- فليذهب العرش إلى الجحيم، ولتذهب السيادة إلى الجحيم، وليذهب أطلس إلى الجحيم، وليذهب بعد ذلك كل شيء أيضًا إلى الجحيم، وليعش مولودي الصغير بمنأى عن هذا النزاع الدموي!

- تلك خيانة!

- ليس للخيانة وجود ما لم تتحدث عنها.

- لن أسمح بهذا!

قالت تترجاه:

- أرجوك، لا يوجد خيار آخر أمامي، صدقني!

- بل يوجد يا مولاتي، يجب أن يعرف أطلس كل شيء... وحينها سأتصرف أنا!

وقفت الملكة واقتربت من داريوس وقالت بصلف عظيم: «ارحل يا داريوس، عد من حيث جئت، وعش حياتك بسلام، ودع مولودي الصغير يعيش بسلام!».

- أنا سأحميه بروحي.

قالت صارخة:

- لن تستطيع!

ثم هدأت نبراتها قليلًا واستطردت: «لو كان بإمكانك حمايته والوقوف أمام جنون أطلس العاتي، لكان مولودي الأول «ثيودين» على قيد الحياة الآن».

سرت قشعريرة في جسده، وعم الصمت للحظات لم يجد فيها ما يقوله من كلمات، حتى شق الصمت:

- يمكنني فعل أي شيء يا مولاتي، أي شيء ممكن أن يجول في خيالك، ولكني لا أستطيع خيانة أطلس، صدقيني سأجد حلًّا للأمر، وهذا وعد مني بشرفي، حتى إن كلفني الأمر حياتي!

- ليست هناك حلول متاحة الآن يا داريوس، ما حدث قد حدث.

وظل يفكر في الأمر، لن يستطيع داريوس خيانة أطلس في كل الأحوال، هو ليس بالرجل الخائن، الذي يخون ملكه وصديقه ووطنه كذلك؛ ولكنه أيضًا يعرف جنون أطلس العاتي، كان الأمر شاقًّا بالنسبة إليه، مخيرًا بين أمرين ينتهي كلاهما بالهلاك المحتم؛ بين خيانة ملكه وبين فعل الصواب والسكوت عن الأمر برمته، ولكن كيف لفتاة لا تجري بين عروقها دماء السيادة، بأن تجلس على العرش الملكي بحق الجحائم... لم يكن ليسمح بهذا أبدًا!

واتــخذ قرارًا حاسمًا بعد لحظات من الصمت والتفكير:

- لقد بذلت حياتي كلها لخدمة الملك، ولخدمة المملكة، يمكنني التحدث مع أطلس في الأمر وإقناعه أيضًا، ويمكنني الحفاظ على حياة مولودكِ، ولكن لا يمكنني الخيانة أبدًا، إن الخيانة ذنب لا تغفره الآلهة أبدًا.

عندما شعرت الملكة باليأس من داريوس وأدركت جيدًا أنها لن تستطيع إقناعه بالأمر أبدًا مهما بذلت من محاولات، فكل المحاولات لم تكن لها فائدة تذكر؛ داريوس رجل عنيد وأصلب من الفولاذ وتعلم أن شرفه وضميره سوف يمنعانه من فعل شيء كهذا، حتى وإن كان مدركًا بأن هذا الفعل هو الصواب، وأدركت أن الأمر لن ينتهي سوى بطريقة واحدة شاءت أم أبت؛ وعلى حين غرة منه طبعت هيميريا على شفتيه قبلة طويلة؛ اختلجت فيها أنفاسهما للحظات، حاول داريوس الابتعاد عنها ولكنها كانت تمسك به من تلابيبه ورفضت تركه حين حاول الابتعاد بعيدًا من بين يديها، وفي لحظة واحدة دفعها داريوس بعيدًا بقوة وخشونة بالغة، ورفع يده لأعلى ولطمها على خدها بقوة شديدة، ارتطمت يده على خدها كما ترتطم النجوم وتسقط الكواكب من السماء،

سقطت هيميريا أرضًا تحت أقدام داريوس تتأوه ألمًا، كانت ضربته قوية جدًّا حتى إن الدماء انسالت من فمها كشلال أحمر دموي، نظر لها للحظات صامتة تمتلئ بالاشمئزاز والقرف الممزوج بعدم التصديق، وقال بغضب شديد كبركان عات على وشك الثوران بلهب حارق:

- ما الذي تفعلينه بحق الأسياد؟!

وقبل أن يغادر غمغم قائلًا: «على أطلس أن يعرف بكل هذا الجنون القائظ، فلم أعد أحتمل!».

وولى على عقبيه غاضبًا وثائرًا، متجهًا إلى قاعة العرش، عابرًا الممر بخطوات سريعة ملتهبة، عليه أن يخبر أطلس بكل شيء، بأمر الملكة والستريجا والمؤامرات التي تحاك في البلاط ليل نهار، ليس هناك من حلول أخرى أمامه، لقد مل من كل شيء في هذا القصر، ولم يعد باستطاعته الاستمرار في هذا، هو لن يستطيع أن يسلم عرش السيادة لشخص لا يحمل دماء الأسياد ولا دماء ملكية في عروقه، وإن قرر أطلس أن يقبل على شيء أبله سوف يقف في طريقه ويردعه، حتى لو كلفه الأمر حياته، وحتى إن اضطر إلى غمد السيف في صدر أطلس، سيفعل ذلك بلا شك إن اضطر لهذا، ويتمنى ألا يفعل أبدًا، وعندما بلغ قاعة العرش كان أطلس جالسًا على عرشه وبيده كأس من النبيذ، وفي الخلفية كانت الموسيقة تشدو وتتسلل لكل ركن من أركان القاعة بهدوء، وسقط الضوء الأحمر الدموي على أرض القاعة، انحنى داريوس أمام أطلس وأردف:

- هل يمكننا التحدث قليلًا جلالتك؟

غمغم أطلس بصوت سكير:

- يمكن لأي حديث أن يتأجل الآن، فلست في مزاج يسمح بالحديث!

- ما أريد الحديث عنه هو شيء مهم ولا يمكن تأجيله.

أطلق أطلس ضحكة وأردف:

- جميعكم تقولون هذا عليكم اللعنة!

ولاحظ أطلس وجه داريوس الجاد والمربد، يعرف هذا الوجه جيدًا، هذا الوجه العبوس يحمل مشكلات جمة تعد ولا تحصى، فأردف:

- تحدث يا داريوس، كلي آذان مصغية!

وحين بدأ يتحدث، تسلل صوت بكاء وصراخ شديد من خلفه، التفت كلاهما لمصدر الصوت، كان الصوت صادرًا من الملكة هيميريا التي قطعت قاعة العرش تبكي

وتصرخ، ممزقة كانت ملابسها؛ كأن آلاف الكلاب والأسود الضارية شاركت في تمزيق تلابيبها بأنيابها ومخالبها الحادة، ووقف داريوس والملك يملؤهما التعجب محملقة عيناهما ولا يفهمان شيئًا البتة، اقتربت هيميريا من الملك وكانت تبكي، قال لها الملك صائحًا:

- ماذا هناك؟ ما الذي فعل بك هذا يا امرأة؟

كان صراخها هستيريًّا حادًّا، وحين هدأت قليلًا، نظرت إلى داريوس وقالت والدموع تنهمر من عينها:

- داريوس... داريوس هو من فعل بي هذا!

وتوقف الزمان للحظات، وخفتت الموسيقى التي كانت تشدو حتى تلاشت تمامًا، وعم الصمت كل شيء في القصر، كان داريوس واقفًا ثابتًا كالمسمار لا يكاد يتحرك، وشل لسانه وانقطعت أفكاره بغتة من رأسه؛ ولم يعد يستطيع التفكير بشيء بعد الذي سمعه الآن من فم الملكة هيميريا، ولا أحد يكاد يصدق ما تقوله الملكة البتة، لا أحد على الإطلاق، نظر الملك لداريوس للحظات بعينين تأبيان التصديق وأردف بصياح هادر هز أرجاء أعمدة القاعة المنتصبة:

- ما الذي تقولينه يا امرأة؟

ظلت تبكي بانهيار تام، حتى قالت:

- كنت في غرفتي واستدعيت داريوس لكي أعرف موعد رحيله، كنت أريده أن يبقى لوقت أطول، كنت أظن أنه صديق وَفِيّ لك، ولكنه حاول مراودتي عن نفسي، وحين رفضت هذا حاول الاعتداء عليّ بالقوة، وعندما صرخت لطمني على خدي بقوة شديدة، انظر للدماء المنسالة من فمي، وأخبرني أنني إن لم أصمت سيخبرك أن المولودة الصغيرة؛ ابنتك «إيڤيدوكيا» ليست من صلبك حقًّا.

ثم أكملت بكاءها، ولا يكاد الملك أن يصدق أن داريوس يفعل فعلًا كهذا، فاستطردت:

- انظر إلى فمه، يمتلئ ببقايا أحمر الشفاه حين حاول تقبيلي عنوة، وجسده يمتلئ بالعطر المعبق الذي أضع منه!

اقترب الملك من داريوس بخطوات سريعة، مندفعًا تراوده غريزة الحقيقة، وأمسك داريوس من تلابيبه بقوة، وحين اقترب لفح أنفه عطر الملكة الذي اجتاح روحه، ووجد آثار أحمر الشفاه المتبقية على فمه؛ لقد أزاله ولكن ما يزال بعض من آثاره موجودًا على شفتيه، سقطت كأس النبيذ من يد الملك، وتراجع خطوتين للوراء غير مصدق ما رآه،

كيف لداريوس صديق عمره أن يفعل به فعلًا شنيعًا كهذا؛ مراودة الملكة عقابها الموت في أقل تقدير، وصاح الملك غير مصدق:

- داريوس! كيف لك أن تفعل هذا!؟

قال داريوس مدافعًا عن نفسه:

- سحقًا لك يا أطلس، أنت تعرف أنني لا يمكنني أن أرتكب جرمًا كهذا!

لم يستمع الملك لشيء بعد ذلك، وكأن داريوس لم يتحدث قط، صاح أطلس بغضب اهتزت له أعمدة القصر وارتجفت حوائطه:

- أيها الحراس!

لحظات وامتلأت قاعة العرش عن آخرها بالحراس المدججين بالسيوف والدروع الذهبية الموشحة بالأسود الباهت، نظر الملك لداريوس وقال بألم وغضب فاقدًا قدرته على التحمل:

- اعتقلوا يد الملك؛ وزجوا به في السجن الانفرادي على الفور!

ولم يتحرك الجنود حتى زجرهم أطلس بنظرة ملتهبة، لم ينطق داريوس كلمة أخرى من هول الصدمة التي أصابته، ولم يعد للحديث جدوى بعد الآن، كل الكلمات التي ممكن أن تقال ستكون ذريعة عليه على أي حال، واقترب منه حراس القصر حين سلّوا صوارمهم من أغمادها، فأصدرت صليلًا رن في أذنيه كان الرنين عاليًا، انحنى داريوس بهدوء على ركبتيه أرضًا وهو يرمق أطلس بعينين بريئتين، واقتربوا منه وقيدوه بأصفاد حديدية من الفولاذ؛ قيدت يداه وانحدر الفولاذ مقيدًا قدميه أيضًا، وقادوه إلى السجن بأمر مباشر من الملك نفسه، ولا يكاد يصدق أحد منهم ما حدث ولا حتى أطلس نفسه يكاد يصدق ما قد حدث، حتى بعد الذي رآه من براهين تثبت إدانة داريوس بهذا الجرم الشنيع، ولكن لم يكن الأمر كافيًا ليجزم أطلس، هو يعرف داريوس جيدًا، إنه رجل شرف وصدق وأمانة، ولكنه لم يكن أمامه خيار آخر سوى زجه بالسجن الآن، حتى يفكر في ما سوف يقرره لاحقًا!

الشمس اليوم لم تكن دافئة ككل يوم!

بعد أيام معدودة من الواقعة انتشر الأمر كانتشار النيران في الهشيم؛ في كل ركن من أركان مملكة «إيڤيريا» بأسرها كان يتحدث الجميع عن قضية يد الملك، في الأقاليم الأربعة، وتسلل الخبر إلى الممالك الثماني أيضًا؛ عن خيانة داريوس والتعدي على الملكة

هيميريا ومحاولة اغتصابها بالقوة، ولكن جميع من سمع عن القضية ظن أن تلك دعابة ما، أو شيئًا خياليًّا لا يمت للحقيقة بصلة، لقد كان يعرف الجميع أن يد الملك؛ الكونت «داريوس» ابن «فاندرال» وحفيد السيد الأعظم «هيمدايل» سيد أعظم إقليم في المملكة بأسرها؛ «إقليم الأسياد»، أنه كان رجلًا حازمًا يتصف بالشرف والأمانة، رجلًا حاز على احترام الملوك الثمانية وتولى استضافتهم حين كانت دعوى الملوك ما تزال قائمة، ومن المستحيل أن يقدم على فعل شنيع كهذا أبدًا!

في «القلعة الرمادية» كان البخار يتصاعد من القلب ويتبدد في هواء المساء البارد، وهرع الخدم إلى الغرف ليضعوا المزيد من الحطب في نيران المدافئ في القلعة، ولكن كان «أركام» ما يزال يشعر بالبرد الذي أخذ يتسلل إلى أضلاعه خلسة، جالسًا أمام المدخنة ويشتعل أمام عينيه الحطب ويتحول إلى رماد؛ كحال قلبه تمامًا، كان يحدق إلى النيران بقوة، يلفحه الصمت العميق، وشعر بمرارة في فمه وللحظة استحوذ عليه الأسى الشديد، وذاب الشمع حين طفق يفكر؛ ليس السيد والده من نوع الرجال الذي يفعل هذا الجرم المشين، يهمس الجميع بالأمر في الأزقة والأركان، ولكنه لا يصدق شيئًا من تلك الهمسات التي تهمس في الظلام، على الطاولة كانت الشموع تتآكل مضاءة بلهب برتقالي مؤجج انعكس على وجهه، وبجوار الشموع المعلّقة كانت هناك مئات من اللفائف العتيقة ذات الأوراق الصفراء المتشققة؛ قديمة كانت عمرها آلاف السنين، لا يحق لأي شخص أن يطّلع على اللفائف العتيقة سوى ملوك السيادة وأسياد الأقاليم الأربعة، يقال إن النسخ القديمة للفائف العتيقة كتبها أصحاب المعرفة الأوائل بمساعدة آلهة الحكمة ومرشدة البشرية إلى مقعد السيادة «مينيرڤا»، ووضع في كل إقليم من الأربعة نسخة من اللفائف، ولكن لم تكن اللفائف في الأقاليم كاملة، كانت منقحة ولا يطلع على اللفائف الأصلية ولا يعرف أسرارها الخفية سوى ملوك السيادة الذين تسير في عروقهم الدماء النقية للأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء العظيم، والنسخ الأصلية من اللفائف توجد في مكان واحد فقط، وهو «مبنى القدماء» في العاصمة ولا يسمح لأحد بقراءتها سوى أصحاب المعرفة والملك فقط.

أحضر أركام مئات من «اللفائف العتيقة» من السرداب القديم تحت القلعة؛ ولم يذق الفتى جراء ذلك طعم النوم لثلاثة أيام كاملة، يبحث عن شيء ما؛ سر قديم ربما، شيء يتوجب أن يعرفه يقبع بين الكلمات العتيقة للفائف، لم يكن يتقن لغة الأسياد القديمة بشكل جيد، ولكنه كان يعرف الكثير عنها.

وظل يطلع في اللفائف العتيقة ولا يعرف عم يبحث بالتحديد؟ لقد تم تدوين ما حدث منذ سيادة البشرية حتى الآن في تلك اللفائف، الحروب والغزوات ومذكرات الملوك الأوائل ومساعديهم، وبعد بحث طويل وجد شيئًا ما بين الكلمات والسطور، قصة تتعلق بالملك الأول للبشر؛ عابر بحر «الرماد» العظيم، وصاحب السيادة الأولى الملك

«إيغور»، قصة وجدها أركام متشابهة تمامًا لقصة حفيده الملك «أطلس»، وذكرت القصة في سفر، بشكل لا ريب فيه كان السّفر منقّحًا للغاية، وأدرك أركام أن الذي نقحها كان متعمدًا أن يخفي هذا الجزء من التاريخ بقدر الإمكان، أو أن يمحو تفاصيل من القصة الحقيقية، كانت القصة في السّفر الأخير من اللفائف العتيقة وكان موضوعًا باسم: «زفاف القمر الأحمر»، وتفحصها أركام بتركيز شديد تحت اللهب البرتقالي الذي انعكس على الورق الأصفر وجعله يلمع كالذهب، كانت القصة على لسان أحد المستشارين في المجلس؛ وكان يدًا للملك، وكان يدعى بـ «ويدڤار»، قرأ أركام في أوراق اللفائف:

- «لم يكن هناك من يمكنه أن يلوم الملك «إيغور» إذا تقهقر الآن بجيشه بعد أن عبر «بحر الرماد» العظيم وعسكر في الشاطئ الأسود لأيام، لقد واجه الموت كثيرًا، ولكن تلك المرة الأولى التي يشعر بمذاقه المرّ في فمه، لاذ الملك بعيدًا وتوارى في التلال ولاح السحاب من فوقه كأشكال هلامية تسري وتتبدد، هناك كان السقوط والاستسلام، في تلك اللحظة انبعث وميض هائل؛ وكأن البرق انبثق من جذور الأرض، وكأن الزمان توقف ثانية واحدة؛ هبط في تلك الثانية ملاك من السماء، وتألقت المدينة كلها بالأبيض والأسود، وانبعث الوميض من السماء وسقط على الملك إيغور ضوء عظيم وهائل، وصرخ الملك بصوت جهوري رنان لم يسمع من بين شفتي بشري فان من قبل قط، ونفخ الملاك السماوي في بوق عظيم لم ير أحد له مثيلًا، رج صوت البوق المنبعث السماء بدوي مخيف ومرعب تهتز له الأضلاع والقلوب والأفئدة والأرواح، ومع تردد أصداء الدوي، انتصبت قامة الملك إيغور المحنية بغتة، بدا طويلًا مهيبًا من جديد واقفًا فوق جواده، وأعطاه الكائن السماوي رمحًا مقدسًا مطروقًا كان بالتمائم ليواجه أعداءه غير الفانين، هنا عرف إيغور أنه صاحب السيادة، وصدقت النبوءة عن المختار؛ عابر بحر الرماد، وقف فوق جواده الحربي واختطف البوق الكبير من حامل راياته ونفخ فيه نفخة هادرة، بدا كالوحش الأسطوري؛ بدا كأنه غير فان في تلك اللحظة حقًّا، واشتعلت معركة عظيمة أطلق عليها الجنود «آڤاريل» وتعني «الوميض الساطع» باللغة القديمة للأسياد الأوائل؛ وفاز بتلك المعركة ملك البشر إيغور، وأقام مملكة السيادة «ڤولاهاينس» وتعني «الهبة»؛ هبة الكائن السماوي الذي أطلق عليه البعض اسم؛ «مينيرڤا»، وبعدها كانت أول دعوة للممالك الثماني في مملكة البشر بعد أن أرشدت الآلهة العِرق البشري للسيادة، وتجمع الملوك التسعة معًا في قاعة الملوك وللمرة الأولى، ومن بينهم حضر ملك الأشاوس الذي يدعى «جلادور» ومعه شقيقته الأميرة «ليليث»، كانت امرأة ذات بهاء عظيم وجمال لم ير له مثيل، وقع الملك إيغور في حبائل عشقها من النظرة الأولى، تلك العيون لم تكن عيونًا عادية، بل كانت عيناها مملوءة بالسحر القديم وانبعث منها وميض دافئ، أحبها الملك وأحبته أيضًا، كان الملك إيغور

يعرف القوانين جيدًا؛ وكانت القوانين تنص على تحريم الزواج بين عرقين مختلفين، ولكن حبهما كان جامحًا ملتهبًا كسر لهبه العاتي قيد القوانين، وقررا أن يتزوجا وأن يبقيا حبهما سرًّا لنهاية الدهر وحتى تفنى الممالك والعوالم ويحل فناء جديد؛ حيث لن يقف أحد في وجه حبهم، حذرت الملك إيغور من هذا الزواج، إن كسر قوانين الآلهة ينذر باللعنات، ولكنه لم يلتفت لكلماتي، كان حبه أعمى، يعمي عينيه وروحه عن كل شيء آخر، وفي يوم الزفاف السري اعتلى السماء قمر أحمر لم ير له مثيل، كنت أعلم أن هذا نذير للشؤم، لا يأتي القمر الأحمر إلا كل ثلاثة آلاف عام، ولكن لم يعد الكلام مع الملك يجدي نفعًا الآن، وبعد عام واحد حبلت «ليليث» بمولود من ملك البشر إيغور، ولم تدم تلك الكذبة أكثر من هذا، وكشف شقيقها جلادور الأمر، وماتت ليليث أثناء ولادتها للطفل الصغير، وعند موت الأميرة «ليليث» ذبلت كل أزهار الأقحوان في المملكة، كنت أعرف أن هذا المولود يحمل لعنة، حمل الملك إيغور ابنه الأول بين يديه وضمه إلى صدره بقوة، لأنه كان يحمل رائحة والدته، وظل يبكي إيغور على «ليليث» كثيرًا، وظل حزينًا لآخر عمره، ورفض الزواج بعدها تمامًا، كنت أظن أن «جلادور» سيشرع في أن يفتعل حربًا ضد العرق البشري، ولكن كان رد فعل جلادور غير الذي توقعته تمامًا، كان حزينًا على موت شقيقته، وحضر الجنازة واكتفى بأن يبكي وينظر إلى الملك إيغور نظرات لوم حادة؛ كأنه يلومه على موتها، وفي اجتماع الملوك الثاني أعطى جلادور للملك إيغور هدية أخيرة، كانت هديته عبارة عن سائل أحمر دموي في قارورة، وقال للملك إن ذلك السائل سيعطيه العمر الطويل المديد، وسيشفي جراحه سريعًا ولنسله أيضًا من بعده، كان الملك إيغور طموحًا للغاية، حذر مجلس المستشارين الملك من تجرع هذا السائل المجهول والذي أطلق عليه جلادور اسم «الستريــجا»، ولكنه كان عنيدًا جدًّا وأصلب من الفولاذ إذا طرق تحت اللهب، وتجرع الملك السائل الأحمر، ومنذ أن تجرع هذا السائل انقلبت حياته رأسًا على عقب، كان يرى الكثير من الكوابيس، وأخبرني أنه يرى «ليليث» كل ليلة في أحلامه، تصرخ ألمًا ثم تموت في باحة قصره تعبر أمام عينيه مخضبة بدماء نفاسها الأخير، يراها في نومه وفي استيقاظه، محبوسًا بين جدران تلك الذكرى الحزينة، وعندما طرح على فراش المرض، ظل يهلوس باسمها لأيام عدة، وعندما جاء الموت أغلق عينيه وظل يهتف باسمها مفزوعًا لمرات أخيرة حتى خفت صوته تمامًا عن الوجود، لسبعة أعوام كان يرى الملك إيغور ليليث في أحلامه، وفي كل ليلة يستيقظ فزعًا ويصرخ باسمها كاسرًا سكون الليل الهادر، غدًا سيكون حفل تتويج الأمير ووريث الملك الوحيد وملك السيادة الثاني؛ «ثيودين الأول»؛ ابن ملك البشر «إيغور» وأميرة الأشاوس «ليليث».

لقد انتهيت الآن من كتابة سفر «زفاف القمر الأحمر» لكي لا يزيف أحد ما حقيقة ما حدث على مر الزمان...».

وترك توقيعه أدنى السفر: ««ويدڤار» أحد مستشاري المجلس الملكي».

عندما انتهى أركام من قراءته لذلك السفر المسمى بسفر «زفاف القمر الأحمر»، ظل شاردًا في النيران الملتهبة لساعات أخرى، وعكف على التفكير؛ ما الرابط القوي بين الملك «إيغور» الفاتح وبين حفيده الملك «أطلس»؟

كان سؤاله سؤالًا منطقيًّا لأبعد حد، بين الرجلين عصور مديدة وآلاف الأعوام التي تفصل بينهما... ولكن ما الذي يربط بينهما لهذا الحد؟

لقد سمع فقط عن الملك «إيغور» في الأساطير القديمة الملك صاحب العبور العظيم لـ«بحر الرماد» وصاحب السيادة البشرية والمؤسس الأول للمملكة، ولكنه أيضًا لم يقابل الملك أطلس في حياته قط ولو لمرة واحدة، ولم يسمع عنه سوى أنه رجل فتك بعقله الجنون، ونهشت الغربان ما تبقى منه!

وطفق يتساءل؛ ما الذي جعل أطلس ينفي أباه منذ عشرة أعوام خلت وما الذي جعله يزج به بين القضبان الآن... ولن يكتشف الأمر بسهولة أبدًا!

لساعات ظل جالسًا على هذا المقعد، شاردًا في النيران والرماد.

ولا يسعه سوى التفكير؛ فبعد نوبة أرق تخطّت الثلاثة أيام، وانتهت أخيرًا بقرار حاسم، ولم يكن هناك حل آخر أمامه؛ يجب أن يكسر القسم المقدس لتظهر الحقيقة الغائبة؛ يجب عليه أن يسافر إلى العاصمة لكي يبحث عن تلك الحقيقة، واقتربت منه زوجته الكونتيسة إلينورا وقرأت في عينيه الشرود الحاد حين دنت منه ورمقته بنظرة، وأمسكت يده في مواساة، وظل محملقًا في النيران الحمراء وقال:

- أبي ليس خائنًا يا إلينورا، وليس بالرجل الوضيع الذي يفعل فعلًا مشينًا كهذا!

هائمًا كان في اللهب والرماد، بدون أدنى مجال للشك فإن الفتى يشعر بالقلق والخوف، قالت بعد أن شدت على يده بقوة:

- نعم، أعلم ذلك جيدًا، إن الكونت داريوس هو من أشرف الرجال الذين قد عرفتهم في حياتي، دائمًا ما كان أبي يقص لي القصص عن أنه كان أشجع وأقوى رجل في الأقاليم الأربعة قاطبة وقص لي عن الحرب التي خاضها بقوة مع أطلس، وعن رفضه للإبادة التي أفتعلها أطلس بعد الحرب، إن الكونت داريوس رجل شرف وشجاعة.

نظر لها وأردف:

- ولهذا سوف أسافر إلى العاصمة غدًا!

قالت متفاجئة:

- ماذا؟!

- أبي واقع في مشكلة كبيرة يا إلينورا، ويجب أن أفعل شيئًا ما.

- لقد أخذ منك الكونت داريوس ميثاقًا مقدسًا باسم الأسياد ألا تعود إلى العاصمة أبدًا!

- سأكسر الميثاق.. متألمًا ومجبورًا يا إلينورا، وأنا أكثر من سيتألم من هذا!

بكت إلينورا وشدت على يده وأردفت:

- أنا أخشى عليك!

- لا يا عزيزتي، لا تخافي، سأذهب إلى العاصمة وسأعود سريعًا، أنا واثق من براءة أبي من جرمه، ولكني يجب أن أفعل هذا؛ لا أحد غيري سيفعل.

وازدادت بكاءً، كانت تشعر بالخوف الشديد على زوجها أركام، بالرغم من قوتها إلا أنها كانت تشعر بالخوف الشديد، ولا بد أن تشعر، ملس بأنامه على شعرها الأصهب بحنان، ثم وضع يده على وجنتها ومسح الدموع التي تسربت من عينيها بغتة، وضمها إلى صدره بقوة، ثم قالت باكية:

- عدني أنك سوف تعود سالمًا!

- أعدك.

ثم جفف دموعها المتدلية، وسكت الكلام، واستقرت بين أضلاعه ساعات حتى جاء النهار... جاء النهار ومعه رياح مزمجرة كانت تعوي في الخارج مع صوت لقطيع من الذئاب، وتجمع الجميع صباحًا أمام بوابة القلعة الكبيرة لتوديعه قبل رحيله، لقد عرفوا جميعًا قراره الأهوج للسفر إلى العاصمة، ورفض الجميع هذا القرار، ولكن لا أحد سوف يمنعه في النهاية؛ لا أحد يملك القدرة على هذا، وجميعهم يعلمون هذا الأمر جيدًا، كان أركام يدرك أن شقيقه الصغير «إيدجار» ما يزال يغط في نوم عميق؛ كان الفتى لا يستيقظ في هذا الصباح الباكر الذي يمتلئ بلسعة هواء باردة، ولهذا قرر أركام أن يلقي عليه نظرة قبل رحيله، ودلف إلى غرفتهِ، كان الفتى يغط في النوم متدثرًا تحت غطاء من الفرو الوثير، اقترب منه أركام وداعب خصلات شعره بحنان وهدوء حتى لا يستيقظ، وانحنى ثم طبع قبلة على جبينه وتحرك مغادرًا نحو باب الغرفة، كاد يخرج حين استوقفه صوت شقيقه الذي انبعث مناديًا من خلفه:

- أركام.

التفت الأخير فوجد شقيقه الصغير مستيقظًا، جالسًا على طرف السرير مرتعشًا بلسعة هواء باردة، عاد إليه أركام وجلس بجوارهِ، وأردف بابتسامة:

- أعتذر لك يا أخي، لم أقصد إيقاظك.

- لا، لم أكن نائمًــا، لقد قال لي إيڤار ليلة أمس أنك راحل؟

- نعم يا عزيزي.

- هل أبي بخير؟

- نعم، بالتأكيد بخير، سوف نعود معًا، أعدك.

- عد سريعًا يا أخي، أرجوك، لقد رأيت كابوسًا.

انتبه أركام وقال له بصوت خفيض:

- ماذا رأيت يا أخي؟

- لا أذكر تمامًا؛ ما أذكره هو هتافات عديدة لحشد ما غاضب، وماء، ماء يستحيل إلى اللون الأحمر الدموي، ودموع كثيرة تنهمر، وصمت هادر يملأ المكان للحظات.

وتنهد الفتى ثم استطرد بنبرات تمتلئ بالقلق: «عد سريعًا يا أخي، فأنا أشعر بالخوف من دونك».

- حسنًا يا عزيزي، لا تقلق، هذا مجرد كابوس.

- كان أقرب للحقيقة!

اقترب أركام وطبع قبلة أخرى على رأسه وأردف:

- كل شيء سيكون على ما يرام، أعدك.

ودلف أركام إلى الردهة، ثم هبط من الردهة العلوية إلى الأسفل وبجواره كانت زوجته، ارتدى رداء من ملابس أبيه، وفوق كتفيه يستقر فرو لذئب رمادي ضار تم اصطياده من غابة الغربان، ومعلقًا وراء ظهره «الهلاك الأسود» سيف السيد والده العملاق، نظروا له جميعًا بذهول؛ كان يشبه السيد والده كثيرًا، وللحظة ظنوا جميعًا أنه هو داريوس متجسدًا بشحمه ولحمه، واقترب منهم، كانت إيلين تبكي بشدة، وعند اقترابه ظل الجميع ينظرون إليه بصمت بالغ، وشق الصمت إيڤار حينما قال:

- هل ما زلت متمسكًا بقرارك يا أخي؟

- نعم يا إيڤار، أكثر من أي وقت مضى!

- ولكنك قطعت لأبي عهدًا مقدسًا بأسماء الأسياد!

ابتسم أركام ثم أردف:

- صنعت العهود لتكسر أحيانًا، صدقني يا أخي أكسر قسم أبانا مجبورًا.

قال مترجيًا بخوف وقلق:

- أرجوك يا أخي، لا تسافر!

- ليس هناك حل آخر، أبونا في ورطة يا إيڤار، ويجب أن أكون بجواره.

- عد سريعًا، وأحضر أبانا معك.

- سيحدث هذا قريبًا، أنت المسؤول من بعدي عن الإقليم يا إيڤار، المسؤولية لا يتحملها سوى الرجال، وأنت رجل قوي، أعلم ذلك جيدًا.

- شكرًا لك يا أخي، سوف أبذل قصارى جهدي حالما تعود أنت والسيد والدنا.

واقتربت إيلين منه تبكي، ضمها إليه أيضًا، ثم قالت:

- احرص على نفسك جيدًا يا بني.

ابتسم أركام ومسح دموعها بأنامله ثم أردف: «لا تقلقي يا أمي؛ سأفعل!».

ثم رمق زوجته إلينورا وودعها لمرة أخيرة بعينيه، وتحرك متجهًا نحو الإسطبل، كان عمّال الإسطبل قد جهزوا له جواده بالفعل، اعتلى «ليل» وبدا كالوحش عندما زمجرت الرياح، أو أن شجاعة آبائه وأسلافه قد تدفقت في عروقه كالنار وهو محمول على متن جواده «ليل»، ونظر إليهم جميعًا نظرة أخيرة ثم زأر في جواده بقوة عاتية؛ وانطلق الجواد كالسهم وخفقت عباءته من خلفه محلقة مع الريح الجديدة!

النعيق الأخير

«سمفونية الغربان»

12

بين طيّات الظلام يتبدد الفرق بين الموت والحياة... وبعد مرور الكثير من الوقت يصبح كلاهما سيّان! ويكون هناك أفضلية غامضة للموت، ولهذا لقد ظن لأيام أنه الآن في عداد الموتى، موضوعًا في قبر لا نوافذ له ولا ضوء كذلك، تلاشى كل شيء من حوله حين توسد الظلام وساد، ظلام دامس كان يغشى عينيه وروحه، يشعر ببرد قارس قد تسلل إلى عظامه وقلبه، ترتجف أوصاله كما ترتجف روحه بين أضلاعه بشدة، واستقام يتلمس الجدران الباردة بيديه وبأنامله المجردة، أيام مل من حسابها مرت حين وضعوه في تلك الزنزانة التي طفحت جدرانها بالفوضى؛ فوضى عارمة من الأفكار والذكريات التي امتزجت ببعضها بعضًا وارتسمت أمام عينيه بين أركان العتمة الهائلة، ولأيام أخرى لم يذق طعم الماء أو الطعام، تشققت شفتاه وكاد أن يفتك الظمأ بحلقه فتكًا، عندما اصطحبوه إلى تلك الزنزانة لم يعتقد أنها سوف تبلغ من العمق ما لن يصله ضوء ولا هواء ولا شيء آخر سوى صرير الذكريات الذي يحك في جدران رأسه بغير هوادة، هوة سرمدية عميقة ما لها من قرار ولا نهاية، وحاول ردم هذه الهوة التي تسمى حياته مرات عديدة، يتوسد آماله في كل ليلة ثم يغط في نوم يفتعله هربًا من نعيق الغربان في رأسه، هو ومعه اللاشيء في المكان، ثم يعدو في منامه محفوفًا بأطياف ذكرياته النزقة، ثم يصحو مهشمًا بروح مهشمة تخطفتها الغربان طوال الليل، واختلط ليله ونهاره؛ فلا ضوء في هذه الزنزانة على أية حال، ولا فرق أصلًا؛ كلاهما أصبح سيّان الآن... لقد سقط، ولا قاع لسقوطه!

«بحق الآلهة»... همس بوهن جامح توغل في روحه.

يقال إن الآلهة تسخر من صلاة الملوك...

ولم يكن يومًا من الملوك، ولذلك سوف يصلي ويبتهل للآلهة كثيرًا، لعل الآلهة تبعث الضياء من قلب هذا الظلام الدامس، لكن لا فائدة ترجى من صلواته الآن، حتى الآلهة لن تستطيع أن تبدد هذا الظلام الموحش؛ أو هكذا بدا له على الأقل، لا أمل له الآن في النجاة، بلا هواء كان يـختنق، عاجزًا عن التنفس؛ تسربت الحياة من جسده رويدًا رويدًا بهدوء وخلسة، خفت الأمل حتى اختفى تمامًا وتلاشى، ولم يعد هناك شيء موجود سوى اليأس العميق الحالك والأكاذيب الغائرة والعهود المكسورة، واستحالت الدقائق إلى دهور مديدة كان الزمان فيها دائرة سرمدية لا تمر، وانعدم الصوت تمامًا جاعلًا إياه كالأصم، إلا من صوت الجرذان التي تهافتت على قطعة خبز متعفنة، مقيدة كانت يداه وقدماه بالسلاسل التي أصدرت صريرًا كسر السكون الهائل حين تحرك، وفكر بعمق؛ كم كان أحمق حين لبى دعوة الملك، لم يكن عليه العودة أبدًا، وانبعث من

الظلام موتى يعرفهم جيدًا؛ تقف الغربان على أكتافهم، وطفت وجوههم في الظلام الدامس الحالك، وظلوا يرمقونه بصمت بالغ، وشعر بأنفاس الموت من حوله، شعر بها وكانت قريبة جدًّا... أقرب من أي وقت مضى!

واستحال الموتى من حوله إلى رماد وتراب حلّق في الهواء حين تسلل إلى أذنيه صوت خطوات أقدام في الرواق الخارجي؛ خارج الزنزانة، وبغتة انفتح باب الزنزانة الفولاذي مصدرًا صريرًا مزعجًا تقشعر له الأبدان في جزع، ودلف للداخل حارس وفي يده مشكاة ينبعث منها ضوء برتقالي غشى عينيه، تألم بشدة عندما داعب الضوء المنبعث عينيه وشعر بحكة في عينيه كانت شديدة، كان اللهب في المشكاة أصفر مائلًا قليلًا إلى البرتقالي في المنتصف، أزرق باهت في حافاته السفلى، وبعد مرور دقيقة ألفت عيناه الضوء مجددًا، وحاول النظر واستبيان زائره المجهول بين كل هذا الظلام، وبعد العديد من المحاولات التي باءت بالفشل الذريع، كل ما استطاع رؤيته هو حارس بلا ملامح؛ ربما كان هذا أثر الظلام على عينيه بعد كل تلك المدة، قال هامسًا بوهن:

- أشعر بالعطش... أرجوك، ماء!

كان منتصبًا كالمسمار بلا حراك أو همز ولمز، كان داريوس في البداية حسب أنه مجرد حلم أو أنه يهلوس بين طيات الظلام، ولكن ما استوقفه للتفكير هو الصوت الذي انبعث من الرواق في الخارج، كلمات تقال وتنطق ولكن لا يدرك منها شيئًا سوى الهمهمات المتطايرة من الأفواه المجهولة، ولحظات مرت حتى دلفت امرأة للداخل، نظر لها وحاول أن يعرف من تكون، ولكن لم يكن يرى شيئًا في موضعه أبدًا، الظلام يتوسد كل شيء بالرغم من ضوء المشكاة الأحمر، ألقت المرأة نظرة متأنية عليه؛ طالت لحيته بشراهة، وبات هزيلًا كالبوص، رمقت ملابسه فكانت رثة للغاية؛ وفكرت؛ لا بد أنه تصارع مع دب وحشي ليتم نهش ملابسه بتلك الطريقة أو ربما مع شيء أشد من ذلك وحشية؛ كالجوع والتعب ربما، تحت جفنيه توسد لون طاغ أسود كالظلام، لم تكن لتعرفه لولا تاج اليد والذي كان فوق رأسه لا يزال مستقرًا، نظرت للحارس وقالت:

- أعطه الماء.

وتحرك الحارس وأعطاه دلوًا مملوءًا بالماء البارد، وطفق داريوس يشرب الماء بشراهة لا حد لها، لم يشعر بظمأ كهذا من قبل في حياته، كأنه لم يذق الماء لألف عام، وعندما انتهى كانت لحيته وفمه يقطران ماء بغزارة هائلة؛ بقدر لهفته للماء كان مدركًا تمامًا أن هناك شخصًا يقف أمامه، وعندما رفع عينيه وجدها واقفة تنظر له وتحمل عيناها نظرات من الشفقة، لم يكن ليفكر حتى أن الملكة هيميريا قد تزوره في هذا القبر الموحش، وأشارت إلى الحارس فخرج مغلقًا باب الزنزانة من خلفه، رائحة العفن النفاثة التي اخترقت أنفها جعلتها تشعر بالغثيان؛ من يتحمل هذه الرائحة

لثوانٍ؟ وفكرت، لقد تحملها داريوس لأيام طويلة جدًّا، وشعرت بمشاعر تتخبط بداخل صدرها في صراع على البقاء؛ بين جلد الذات وتأنيب الضمير، والشعور بالشفقة، تطبق المشاعر على قلبها وتسحق عظام صدرها كالمطرقة، واكتفت بالبكاء، تاركة للدموع المنهالة الحديث عن كل هذه الأمور؛ وتوضيح كل شيء لا يمكن توضيحه.

ونظر لها بعيون كانت غائرة خاوية؛ يملؤها شيء مظلم، عيون الرجال مقابر أرواحهم، وحين نظرت في عينيه أدركت أن روحه مقبورة الآن ولم تعد في جسده بعد الآن، وأدركت أن داريوس رحل منذ وقت طويل، وأن هذا الجسد المترامي أمامها لم يكن سوى ظل سيتبدد عندما تخمد النيران ويــحل الظلام مرة أخرى.

وظلت تبكي بلا توقف، تتساقط الدموع على وجنتيها كحمم من النيران الملتهبة، أصدرت الأصفاد صريرًا حينما تحرك داريوس وجلس، استند بظهره إلى الحائط ثم بعد برهة من الصمت قال:

- فلتبكي، ولكن لن يطهرك البكاء من الخطايا، فالآلهة لا تغفر الخيانة.

ازداد نحيب قلبها ودموعها كالشهب تتهاوى ساخنة من عينيها بغتة وبلا حساب:

- أطلب منك المغفرة... فلتغفر لي، أرجوك!

ضحك داريوس بوهن ثم قال:

- المغفرة! أعتذر لك جلالة الملكة، ما تطلبينه مني أنا لا أملكه البتة.

صمتت قليلًا ثم أردفت باكية:

- كل ما فعلته فعلته لأجل ابني، أنت تعرف معنى أن تكون أبًا.

صاح داريوس بكل قوته والتي لم تكن كافية حتى ليتكلم:

- كنت سأحميه، كنت سأحمي الطفل بروحي إن تطلب الأمر!

- لا، لن تستطيع، ولن يستطيع أحد فعل هذا سواي.

سأل داريوس بعد أن تنهد بألم وسحب نفسًا عميقًا من الهواء إلى رئتيه:

- وأين الطفل الآن؟

- أعطيته لألكيدس؛ أخذه خارج المملكة، في مكان لن يستطيع أحد أن يجده فيه أبدًا!

وبعد برهة من التفكير أدرك داريوس الأمر سريعًا:

- ألكيدس؟! إذن هو الذي كان يهددك في الغرفة بإخبار الملك بالحقيقة!

- نعم!

ثم استطرد متسائلا: «لكن لماذا؟».

- كان يريد التخلص منك، ولكني رفضت ذلك، فهددني بإخبار أطلس عن كل شيء خططت له.

- ولماذا يريد ألكيدس التخلص مني؟

- لأعوام عشرة، منذ نفاك أطلس، كان ألكيدس يدًا للملك، يدير أمور الدولة والخاصة الملكية، وعند عودتك، فقد كل شيء كان يملكه يومًا!

صمت داريوس قليلًا كان يفكر، وبعد هنيهة قال مستنتجًا:

- إذن هناك احتمال أن ألكيدس هو من يدس لأطلس «الستريجا».

قالت الملكة بعد أن ترددت للحظات:

- لا، ألكيدس لا يدس شيئًا لأطلس، بل أنا التي أفعل!

وضرب الصمت المكان، وتغيرت ملامح داريوس لملامح يملؤها الغضب والدهشة، وقال في تعجب غاضب مشتعلًا كاللهب:

- أنتِ؟!

- نعم، أنا!

صاح صياحًا هادرًا هز أرجاء الصمت:

- لكن... يا إلهي.. لماذا؟

اهتزت ثم بكت، كانت رقيقة بالرغم من كل شيء، هدأت ثم طفقت تتحدث:

- لعلك لا تزال تذكر حادثة «سرب الغربان»؟

- أبذل جهدي لأنسى ما حدث هناك!

تعرقت الملكة وبدا عليها الإجهاد، ثم قالت بعصبية وهذيان:

- لكنك لم تكن موجودًا هناك يومها، لم تر ما قد رأيته، ولم تسمع ما قد سمعته، كان الملك قد أبعدك ليلتها لكي لا تقف في طريقه، ودعني أقص لك الأمر بكل تفاصيله المأساوية الحزينة، ودعني أروي لك المأساة المظلمة، لعلك تظن أن الظلام مجرد عتمة لا ضوء فيها كتلك الزنزانة تمامًا؛ لا بل إن الظلام هو أكثر من هذا بكثير يا داريوس،

أنت لم تكن يومًا رجلًا سطحيًّا ليحكم على الأمور بظاهرها، يومها امتلأ الهواء بالرماد والدخان والنار، تلك أشياء لم تكن ظاهرةً، ولم يرها أحد ولكن كانت موجودة بالتأكيد، كان الأمر منذ عشر سنوات، بعد الحرب مباشرةً، عندما تنبأ صاحب المعرفة بنبوءة لأطلس، نبوءة مشؤومة، عن الفقد والخسارة؛ أو كما أطلق عليها الناس بالكلمات الموعودة، جميعنا نعرف ما تنص عليه كلمات وحروف تلك النبوءة؛ عن رجل يحمل دماء ملكية، سوف يزول على يده عرش سيادة أطلس، ويخلق عالمًا جديدًا بعدها، وسيدًا جديدًا ودماء جديدة، وهنا وضع أطلس على طريق الجنون، لم يكن أطلس يتجرع «الستريجا» بعد، وعلى الرغم من هذا كان مصابًا بجنون العظمة، لم أصدق يومًا النبوءات، ولكنه كان يفعل... يفعل بشدة، وبلغ أقصى حد لجنونه عندما أقام وليمته، وليمة «العشاء الأخير»؛ التي جمّع فيها كل من يحمل دماء ملكية في المملكة بأسرها، قبلها بيومين أرسلك إلى «ثينيا» ليبعدك ويقصيك عن الأمر كله، حتى لا تقف في طريقه، وأخبر الجميع أن من يغيب عليه عقاب ملكي بالسجن أو بالموت، وحضر الجميع ولم يغب أحد، جميعهم كانوا حاضرين، كنت جالسة بجوار أطلس على العرش وأحمل بين يدي مولودي الأول «ثيودين»؛ أسماه أطلس تيمنًا بأحد أسماء أجداده الأوائل، كان عمره سبعة أشهر فقط، كان وديعًا، رقيقًا، كانت عيناه تتوهج كالملائكة أو كائنًا سماويًّا ما؛ عيناه لم تكن بشرية على الإطلاق، يتجلى فيه النبل ويسري في عروقه دماء الأسياد الأصيلة، كنت أشعر بهذا حقًّا، وحينها بدأت الوليمة، وبدأ الجميع بتناول الطعام والشراب بشراهة، وانطلقت في الآفاق سمفونية لا أزال أتذكرها حتى الآن، لا تغيب عن ذهني للحظة واحدة، كان أطلس يحب تلك السمفونية بشدة، واستمع الجميع إلى الموسيقى، كانت وليمة ضخمة حقًّا، ولم أفهم ما الداعي لها... حتى انتهت الوليمة، وبعدها أغلقت أبواب القلعة، جميعها أغلقت بلا منفذ صغير حتى لفأر، وبعدها بدقائق طفق الجميع بالصراخ؛ جميع من في القاعة يصرخ صراخًا مفزعًا؛ مهتاجة أمعاؤهم تشتعل لهبًا من السم الذي وضعه أطلس لهم في الطعام، سقط بعضهم يتلوى أرضًا كالثعابين، كان أطلس يبدو مرعبًا، يستمع إلى الموسيقى التي اختلطت بصراخهم وأنينهم المفزع بانتشاء ورحابة؛ كان يضحك ضحكًا هستيريًّا، وطفقت الدماء تنبثق من أفواههم بشراهة، وظلوا يتوسلون ويطلبون المغفرة من أطلس على ذنب لم يقترفوه يومًا، أمعاؤهم تتمزق في بطونهم بسكين أحمر، تشتعل لهبًا أزرق هب في وجوههم فكانت زرقاء كأنها مختنقة، ولا تزال السمفونية تتعالى وتشدو في الخلفية، قتلى في كل مكان، دماء في كل مكان، ووجوه زرقاء ودماء متخثرة تكاد تكون حمراء، أقسم أني كنت أسمع نعيق أصوات أسراب الغربان تحلّق في الخارج، لا غربان في العاصمة، ولكني كنت أسمع نعيقهم كأنهم يحلقون داخل عقلي وبجوار أذني، أحضر أطلس سيّافًا بسيف عملاق هائل، وطفق يبتر الرؤوس من أجسادها الملقاة في كل مكان؛ أجساد لم تعد فيها حياة، عشرات الرؤوس المبتورة التي

ملأت قاعة العرش، وبحر من الدماء، كنت أبكي وأصرخ، وكان هو يضحك ساخرًا، ملطخة يداه بدماء عائلته النقية، تلك الدماء التي كانت ستسلبه عرشه يومًا ما، وما تزال السمفونية تشدو، علّق الرؤوس المبتورة في الساحة الواسعة على الخوازيق الحادة، وظل يرقص فوق الأجساد المنزوعة من رؤوسها، على أنغام سمفونيته التي لا تكاد تنتهي، وعلى أنغام السمفونية هبط سرب من الغربان ينهش في الرؤوس المعلّقة، لم أر سربًا كهذا من قبل، نهشت الغربان كل شيء، الجلد ثم اللحم ثم العظام، عملاقة كانت أجسادها، مخالبها مشحوذة، مناقيرها كالسكاكين، هائلة كانت أعدادها، وظل أطلس يرمق الغربان ويستمع إلى سمفونية الغربان التي لم تخب ولو لحظة، كنت لا أزال في غياهب التكذيب، كنت أكذّب كل شيء أراه، معتقدة أنني في كابوس، مجرد كابوس سوف يتلاشى في أي لحظة حين أستيقظ، لكنه لم يكن كذلك أبدًا، نظر إلي أطلس، كنت مرتاعة من نظراته، كانت نظراته تمتلئ بالجنون العاتي، ونظر إلى طفلي «ثيودين» طويلًا، وقد عرفت ما يدور في خلده من الوهلة الأولى؛ المولود كان ذكرًا يحمل دماء ملكية نقية أيضًا، ولسوف يكون مصيره وليمة للغربان كذلك، أطلس لن يسمح بأن يسلبه أحد عرشه، حتى إن كان ابنًا من دمائه، صرخت وضممت «ثيودين» إلى صدري بقوة، وفي لحظة جئت أنت، وشكرت الآلهة على هذا كثيرًا، كانت مرتاعة نظراتك من كل شيء تراه حولك، رؤوس مبتورة من أجسادها، ودماء مسفوكة، وأشلاء في كل مكان، وغربان ناعقة تغني أغنية عن الموت، لا تكاد تصدق شيئًا من كل الذي تراه عيناك؛ مثلي تمامًا، وفي تلك اللحظة ادركت أن الملك أصابه الجنون، حاول أطلس قتل «ثيودين» وحين وقفت أنت في طريقه، أمر الحراس بتقييدك، وتقدم الحراس وسلبوني ابني من بين أضلاعي بالقوة، أمسك أطلس الخنجر وكاد أن يغمده في قلب مولوده الصغير، ولكن تردد كثيرًا وارتعشت يداه وسقط الخنجر من أنامله بغتة، حينها توسل إليك لتفعل أنت هذا عنه؛ فبعد كل هذا كان أطلس عاجزًا عن قتل ابنه الوحيد بيديه المجردتين، ولكنك رفضت وكِدت أن تصفعه بقوة وأن تهجم عليه لعله يفيق من غياهب الجنون وأمواجه الهائلة التي أغرقته من رأسه إلى أخمص قدميه، ولهذا نفاك بعيدًا يا داريوس؛ لأنك رفضت سفك دماء ابنه الوحيد، لأنك الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقف في طريقه، وبعد أن نفاك وجردك من كل ألقابك ومناصبك؛ ورحلت أنت عائدًا إلى وطنك، بعدها أرسل أطلس بعض الجنود بـ«ثيودين» الصغير على متن قارب في بحر «الرماد»، ألقاه الجنود بين الأمواج هناك، ومات الطفل غريقًا، وأقسمت انني لسوف أنتقم منه أشر انتقام، و «الستريـجا» هي الشيء الوحيد الذي سوف يشعره بألم حقيقي، أن يشعر بالخوف والفزع كل يوم، كما كنت أشعر أنا، وفي كل لحظة تمر أتمنى أن يموت آلاف المرات، «الستريـجا» تجعله يرى أسوأ مخاوفه وكوابيسه في عقله؛ تجعله يرى أسراب الغربان في كل مكان، يرى ذلك اليوم المشؤوم مرارًا وتكرارًا بشكل

سرمدي في نومه وأحلامه، وفي الصباح الباكر عندما يستيقظ أدس له المزيد في نبيذه، فتنعق الغربان في رأسه وتنهش عقله وروحه.

داريوس كان يعرف كل هذا، ورأى كل شيء بعينيه، تلك جراح لم تندمل بعد، فشل في مداواتها الوقت، ولن يداويها الوقت العابر المجرد، ولن يداويها شيء سوى الموت، الموت فقط من يداوي جروحًا كتلك غائرة لا عمق لها، ثم بعد برهة استطردت قائلة:

- هل كانت تلك أسبابًا كافية لك يا داريوس؟!

للذكريات طعم كالرماد في فمه، وللرماد طعم مرّ يدوم طويلًا، لأنه لا يغادر، وحين يغادر نغادر معه إلى النهاية، فنظر لها وأردف والدموع تكاد أن تنهمر من عينيه:

- قضيت عمري في خدمة المملكة وأطلس، عرضت حياتي للهلاك في محاولتي لإنقاذ «ثيودين»؛ مولودك الأول، ونفاني أطلس جراء تلك المحاولات، وعندما دعاني للرجوع مرة أخرى بعد عشر سنوات، لبيت دعوته لأجل مولودك الثاني، وكنت لأعرض حياتي للهلاك مرارًا وتكرارًا لأجل حياته، ولو فكر أطلس في قتله، لسحبت سيفي من غمده وقسمت قلب أطلس إلى نصفين داخل صدره، كنت سأخون كل شيء من أجل حياة مولودك الصغير يا هيميريا، لقد رأيت ابنك الأول «ثيودين»، كان مختلفًا يحمل دماء نقية من الأسياد تسير بين عروقه، لم أر مولودًا بشريًّا مثله قط، ولقد حزنت عليه كثيرًا، كأنه ابن من صلبي أنا، لم أكن أدرك أن أطلس سيقتله حقًّا، ولو عاد بي الزمان مرارًا لقتلت أطلس جراء الذي فعل... لكن الزمان لا يعود، وقطعت وعدًا مقدسًا باسم الأسياد أن هذا لن يتكرر مرة أخرى ما دمت حيًّا، ولهذا عدت إلى العاصمة وعدت يدًا لملك بيد مبتورة، لشيء واحد فقط، وهو حماية مولودك الصغير؛ حتى لو عرضت حياتي للهلاك والموت مرارًا، لم يكن يهمني أمر حياتي بقدر ما يهمني حياة مولودكِ، جلالتكِ!

انفجرت هيميريا بالبكاء، منهمرة دموعها طالبة العفو والمغفرة من داريوس، فاستطرد الأخير بنصب:

- لا تبكي يا مولاتي، لم يعد البكاء يــجدي نفعًا الآن!

- اغفر لي!

- ليس لغفراني فائدة بعد الآن!

ازداد نحيبها الهادر وقالت بعد أن شعرت بحركة تأتي من الرواق بالخارج:

- نحن لا نملك المزيد من الوقت، ستكون محاكمتك قريبة جدًّا، في الساحة العامة، ولن أدعك تموت هناك يا داريوس، أعدك بهذا، سوف أبذل قصارى جهدي ليعفو عنك

أطلس، أعرف أنك لم ترتكب جرمًا لتعاقب عليه، ولهذا لن أسامح نفسي إن حدث لك شيء ما، أنا واثقة تمامًا أن أقصى ما قد يفعله بك أطلس هو أن ينفيك مرة أخرى، وستعود إلى ديارك وإلى أولادك مجددًا، أعدك يا داريوس.

وتوارى في الظلال صامتًا بغير حراك، وخرجت الملكة وغاب الضوء مرة أخرى وعم الظلام مجددًا، تاركًا لجام الموتى والغربان التي تقف على أكتافهم، كان يقتله الشعور بالذنب، وتجلده ذاته بجرم لم يقترفه يومًا، كان الظلام من حوله معتمًا شعوره بما حوله، وقاوم العدم الأسود بتخيل لهب أصفر دافئ، لكن لم يكن لتخيله هذا فائدة تذكر؛ فلقد كان عالقًا في شراك هذا الظلام الجامح وكان جسده يرتجف، ويشعر بالبرد الشديد يتسلل إلى روحه، وانبعثت من الظلام أصوات عديدة؛ أبواق حروب، صليل سيوف، حوافر خيل، واكتفى بأن أغلق عينيه وتكوّر على نفسه وغط في النوم، نومه كان عميقًا، أعمق مما كان يتخيل، ثم هدأ كل شيء في الظلام الجامح.

هائلًا كان مبنى القدماء، هال عينيه عندما رآه للمرة الأولى وشعر برعشة قوية تجري في جسده وأوصاله، منذ أيام مضت بلغ أبواب العاصمة ودلف منها فوق صهوة جواده، ولم يكن معتادًا على أجواء العاصمة الصاخبة أبدًا؛ الأسواق المتزاحمة، الأصوات المتداخلة، وصوت الأمواج المكشرة عن أنيابها، وانحدر شمالًا ناحية الحانات، واقترب من الشاطئ الأسود عند الميناء القديم، هز صوت الأمواج الكاسرة قلبه، ورمق التمثال الهائل للملك «إيغور»؛ عابر بحر الرماد، كان التمثال من الجرانيت المنحوت، بيمناه رفع نصلًا قاطعًا عكس ضوء الشمس الساقط، وبيسراه شد على ترس دائرية هائلة، ومن أسفله فنار عال على الضفة، يهيم من حوله ضباب كثيف.

كان الشاطئ الأسود بديع الجمال حقًّا، وتجاوزه متجهًا شمالًا إلى الحانات، كانت الطرق مرصوفة ببلاط ناصع ومحدب، كانت المباني مربعة مبنية بطبقة من القرميد الذي يلمع تحت شعاع الشمس الساقط، والشوارع هادئة هناك، لا صوت إلا صوت الأمواج الكاسر لبحر «الرماد»، وهناك استطاع أن يجد له نزلًا ليبيت فيه، حاول كثيرًا أن يصل لطريقة ما يستطيع بها مقابلة السيد والده، لكنه فشل تمامًا، ومرت أيام همس فيها الجميع عن قضية يد الملك الرائجة؛ داريوس بن فاندرال سيد أعظم إقليم في المملكة؛ رجل شريف أفسدته السلطة، هكذا همس البعض، والبعض الآخر لم يصدق الأمر برمته، وتحدث الجميع أن محاكمة يد الملك ستكون قريبة جدًّا وستقام علانية في الساحة العامة، وسيحضرها الجميع.

في القصر الملكي كانت الأمور مضطربة، شعر الجميع بالحيرة المخلوطة بالأسى، لم يكن لأحد أن يصدق بأن داريوس الذي يتصف دائمًا بالشرف والنبل، قد يفعل فعلًا

شنيعًا كهذا أبدًا، وطفق الصمت يقيد ألسنة الجميع، في قاعة العرش تلوّنت الأرض بالأحمر الدموي كالعادة، وجلس أطلس على عرشه، يلفحه ألف سوط من الندم، الأسى، يراود قلبه عدم التصديق لكل تلك الترهات، بيده كانت كأس النبيذ تكاد أن تكون فارغة، لقد شرب كثيرًا لينسى ما قد حدث، ولكن تعود الغربان لتذكره بنعيقها الهادر في أذنه وداخل روحه، وفي سقف قصره، وكلما شرب المزيد من النبيذ نعقت الغربان وحلّقت في وجدانه، وتعود هابطة لتنخر بمناقيرها قلبه، لم يعد شيء يستحق المقاومة، ولتنهش الغربان ما تبقى من روحه وعقله وقلبه، فلم يعد شيء يستحق الآن!

وسمع الملك صرير فتح باب القاعة، وتحرك عابرًا القاعة الدموية ألكيدس بخطوات فاترة، حتى بلغ الملك، نظر له وانحنى، كانت حالته يرثى لها حقًّا، تائهًا، مشرذمًا، روحه تئن من فرط ما بداخله من تخبط؛ حب، كره، اشمئزاز، ندم، انتقام، جميعها تتعارك بداخله في صراع على البقاء، ومن يبقى هو الأقوى، بلا رحمة تفتك به مشاعره فتكًا، وتتركه لمصير مجهول المعالم، مغارة تمتلئ بالمتاهات، ولا سبيل للوصول إلى الخلاص، لا خلاص يأتي إلا بالموت والرماد، هكذا كانت تدور الأفكار في خلده بغير توقف، وخرج من حلقات التفكير حين تنحنح ألكيدس وأردف:

- بلغني استدعاؤك يا مولاي، تحت أمرك.

نظر الملك لألكيدس وتجرع ما تبقى من كأس النبيذ، ثم أردف:

- نعم، لقد استدعيتك لتعود لمنصبك القديم، يد الملك وكلمته!

كان يتألم في كل حرف يقوله، تـخرج الكلمات من فمه كالمسامير والزجاج التي تجرحه، ثم عاد يقول:

- غدًا ستكون محاكمة داريوس على جرمه، فما الذي تراه؟

صمت ألكيدس قليلًا، ثم أردف:

- لقد أفنى داريوس عمره كله لخدمة المملكة، ولخدمة جلالتك، خاض معك حروبًا كثيرة، وكاد أن يقتل في سبيلك آلاف المرات، رجل شريف، وعادل، ولم أكن لأصدق كل هذا، لولا أنني رأيته بعيني!

اعتدل الملك في جلسته وانتبه، ثم قال:

- ماذا رأيت يا ألكيدس؟

- يومها؛ بعد الحفل التنكري الذي أقيم على شرف مولودتك الصغيرة الأميرة «إيڤيدوكيا»، دخل داريوس غرفة الملكة، وقبل أن يدخل أعطى أمرًا للحراس بالتنحي

عن الحراسة لسبب لم يفهمه أحد، في الحقيقة لقد ارتبت في الأمر، واقتربت أكثر لأستمع إلى ما يدور في الداخل، سمعت الملكة تتوسل إلى داريوس ليبتعد عنها، وسمعت ضوضاء تعلو شيئًا فشيئًا وأشياء تسقط أرضًا وتتحطم، ثم صرخت الملكة صرخة مدوية هزت أرجاء الغرفة، وسمِعت بعدها لطمة على خدها أسكتتها، وهددها داريوس إن تحدثت عن الأمر، سيخبرك أن المولودة الصغيرة ليست من صلبك، ولكن الملكة هيميريا لم تكن لتصمت على شيء كهذا أبدًا!

بدا على وجه الملك الانزعاج والغضب، وشيء يهمس في قلبه عن عدم تصديق كل هذا الهراء المحض، وظل صامتًا للحظات حتى قال:

- ولم لم تتحدث في وقت أبكر من هذا؟

- شعرت بأنني إذا أدليت بشهادتي وقتها لربما كان فيها شك وريبة، وسوف تشوبها الهمسات الخافتة؛ وهذا لأننا كنا في منصب واحد ذات يوم، ولكن وبعد أن تم سجنه وستتم محاكمته قريبًا، يمكنني أن أقول شهادتي بشكل أكثر راحة!

وفي تلك اللحظة، دخلت الملكة هيميريا قاعة العرش، وعبرت القاعة حتى بلغت العرش وجلست بجوار أطلس، انحنى لها ألكيدس، ورمقته بنظرات ملتوية تمتلئ بالكره والاحتقار، وظلت نظراتها قائمة حتى تحدث الملك وأردف:

- انصرف أنت الآن يا ألكيدس، وغدًا ستكون محاكمة داريوس في الساحة العامة على الملأ، اعمل على تجهيز الأمر برمته!

شعرت هيميريا بقشعريرة وخوف انبعث من جسدها عندما تحدث الملك عن محاكمة داريوس، وانحنى ألكيدس ثم غادر القاعة منسحبًا، ثم سألت هيميريا الملك:

- هل ستكون محاكمة داريوس غدًا؟

قال بضيق: «بلى يا هيميريا، سوف تكون غدًا!».

كانت تشعر بقلق يتوسد أنفاسها وقلبها، ولكن لم تبد شيئًا من هذا القلق للملك، ثم قالت:

- وما الذي سوف تفعله يا أطلس؟

سكت، وطال سكوته، كان يشعر بالارتباك والحيرة، مشرذمة كانت أفكاره في كل ركن من أركان القصر، وشعر برغبة ملحة في البكاء، رغبة يكبحها بكبريائه العظيمة، ثم نظر للملكة ثم أردف في حيرة ووهن بدا على صوته وكلماته، وكادت الدموع أن تنهمر من عينيه:

- أنا أغرق يا هيميريا، ولا أعرف ماذا سأفعل، ولا أعرف إن رأيت داريوس مرة أخرى، هل أحتضنه بأسى أم أغمد السيف في قلبه، أم أفعل كليهما معًا!

ثم صمت قليلًا، وصب كأسًا من النبيذ، وقال:

- لقد كان أخي، لم نحمل دماء واحدة، ولكنه كان شقيقًا لي، أول من رفع راياته للحرب بجواري، وأول من لبى ندائي حين أطلقته، وأول من سخّر سيفه لي، كان رجلًا شريفًا، كنت أفعل الكثير والكثير من الحماقات، ولم يهمه أني كنت الملك يومًا، يردعني ويقف في طريقي، لأنه لم يكن مجرد يد، بل كان أكثر من ذلك بكثير يا هيميريا، عندما لبى دعوتي للمرة الثانية وعاد من منفاه، شعرت بالحرية، شعرت بطعم الهواء في حلقي وللمرة الأولى منذ عشر سنوات، عندما نفيته للمرة الأولى، كان لدي أمل أنه سوف يعود يومًا ما، ولكن ... الآن، أشعر بأن قلبي يتمزق، وتتمزق معه روحي، عاجز عن فعل شيء كما أنا أيضًا عاجز عن عدم فعل شيء، وكلاهما يقتلني يا هيميريا... كلاهما يقتلني!

وعاد الصمت هادرًا حتى قالت الملكة:

- إذن، دعه يعود إلى منفاه يا أطلس، لا يجب عليك أن تقاسي لأجل هذا الأمر!

هدأ أطلس ثم نظر لها وقال:

- وكيف لا أقاسي؟ فأنا مخير بين شرفي... وصديقي!

وسكت الكلام وشعرت هيميريا بذنب عظيم جراء ما اقترفته من خطايا، وانسحب أطلس من قاعة العرش على عقبيه مغاضبًا، ولم يدرك ما الذي اعتراه تمامًا، وانتظر الجميع يوم غد بترقب، لم يرد أطلس للوقت أن يمر قيد أنملة، ولكن لا وقت من الممكن أن يتوقف للحظة، ولا زمن من الممكن أن يعود لثانية واحدة، ذكّر نفسه بهذا قبل أن يتدثر بفراشه الوثير، كان يرتعش شاعرًا بالبرد الشديد القاسي، ينشع جسده عرقًا باردًا من كل مكان، وأغمض عينيه متألمًا، كان مصابًا بحمى التفكير، وعبثًا كان تفكيره بلا طائل يرجى، وتمنى لو مات في تلك اللحظة، أو لم يكن له وجود على الإطلاق، كل شيء سوف يكون أهون عليه من يوم غد بكل تأكيد.

مستلقيًا كان على السرير، فاقدًا الشعور بكل ما حوله من أشياء، فتح عينيه قبل أن تتسلل خيوط الضوء الشاحب الأولى من خصاص النوافذ الزجاجية، مضمّدة كانت جراحه الغائرة بقماش أبيض ناصع منقوع بالعسل والقرنفل، لقد فقد الكثير من الدماء في تلك المعركة الغاشمة، لقد خاض الكثير من المعارك والكثير من الحروب،

ولكن كانت تلك أكثرها شراسة وأكثرها قوة أيضًا، كان يشعر بوهن عات تفشى في جسده كله؛ يديه، قدميه، صدره ورأسه، لم يكن هناك موضع في جسده إلا وكان يؤلمه بشدة، وحين حرك شفتيه الجافتين الفاترتين أيقن تمامًا أنه ما يزال على قيد الحياة إلى الآن، فلا يشعر الموتى بالعطش على ما يعتقد، حلقه كان جافًّا كصحراء قاحلة سرمدية الأغوار، وجسده كان ينشع عرقًا باردًا كالثلج من كل مكان، ترتعش أطرافه، وينتفض جسده بارتياع مباغت وبألم شديد، وحاول أن يتحرك من مرقده فاستحال جسده نيرانًا هائلة تأكل في نفسها؛ كانت جراحه بالغة وعميقة جدًّا، وكادت أن تودي بحياته إلى الهلاك المحتم الذي لا احتمالات فيه، وحين حاول الوقف على قدميه فشل وصرخ صراخًا مكتومًا من الألم الذي اشتعل في جسده كنار شبّت في كومة قش، وحينها شعر بصرير السلاسل الفولاذية التي قيدت يديه وأقدامه، وبعد لحظات سمع صوتًا لم يدرك مصدره بعد:

- لا تحاول الحركة، فلم تلتئم جراحك الغائرة بعد.

رفع عينيه باحثًا عن الصوت الذي يحدثه، وكان مصدر الصوت هو «ميڤيا»، كانت واقفة فأكملت حين جلست:

- يقول الطبيب إن جراحك لا تزال غائرة عميقة، ولن تستطيع الحركة لأيام.

تأوه ألمًا حين حاول الاعتدال، فأردف:

- أنا بخير، ماذا حدث؟

- لقد أصبت بجراح غائرة حين كنت تواجه جوثلاف، وانتصرت عليه بعد معركة غاشمة كادت أن تودي بحياتك للهلاك!

- لم أكن لأنجح لولا مساعدتك لي؛ مرة أخرى.

- «أمير القبائل»؛ كريدو، يريدك حيًّا!

تساءل القائد هيستوس:

- لماذا؟!

- أرسل مساعدك «فليوسس» خطابًا لأمير القبائل للمفاوضة على حريتك.

- منذ متى وأنا نائم؟

- منذ وقت طويلٍ؛ لأيام على الأرجح.

- ومتى سوف أقابل «أمير القبائل»؟

- حين تلتئم جراحك وحالما تستطيع الحركة.

- لقد صرت بخير الآن.

وتحامل على جراحه وصرّ على أسنانه ألمًا حين لملم قواه الخائرة؛ محاولًا بكل ما تبقى من قوته الوقوف، حينها نظرت له «ميڤيا»، وحركت رأسها، ثم انتصبت وأردفت:

- حسنًا... اتبعني!

وخرجت، ووقف القائد هيستوس مقاومًا اللهب الذي هب في جسده، وتحامل على قدميه محاولًا غض الطرف عن الألم الشديد، خرج وراءها إلى ممر طويل، يبدو أنها قلعة شاسعة حقًّا؛ غرف كثيرة مترامية على جانبي الممر، علّقت على حوائط الممرات مشاعل وبجوارها رؤوس محنطة لحيوانات عدة؛ ذئاب ونمور ودببة وأسود بربرية قاسية، كانت جاحظة العينين أسنانها حادة كالسكاكين، وكالألماس كانت تلمع حين يسود الظلام، وبثت أعينها المفغورة وأسنانها المدببة قشعريرة في جسده لا تكاد تتوقف، وحين انتهى الممر، سلكا باحة واسعة محفوفة بالأشجار البهيجة، وفي نهاية الباحة كان هناك باب خشبي عملاق منحوت ببراعة؛ برموز غريبة وقديمة، ووقف أمام الباب حارسان، صوارمهما متأهبة، وفوق رؤوسهما فكوك لحيوانات شرسة، وانحنى كلاهما لميڤيا قبل أن يتنحيا، ودلفت ميڤيا إلى القاعة الواسعة ومن ورائها القائد هيستوس، رمق القاعة الهائلة التي رفعتها أعمدة شاهقة سميكة جدًّا ونقش على جنباتها رموزًا عدة؛ وكأنها لغة قديمة لا يستطيع أن يفطن لها، وفي نهاية القاعة كان هناك العرش، كان كرسي كبير وعال مصنوع من جلود الأسود خشنة الملمس، وارتقى العرش «أمير القبائل» «كريدو»، وعندما نظر له القائد هيستوس بإمعانٍ، رأى ما لم يتوقعه أبدًا؛ كان شابًّا في منتصف عقده الثالث، وسيم، كان جسده قويًّا مفتولًا رشيقًا، كان ذا هيبة ووقار، ارتدى حذاءً جلديًّا طويل العنق، وسروالًا أسود من الصوف والجلد الذي تمت تقويته بالزيت المغلي، وفي يديه قفازان أسودان من الجلد الأسود المقوى، بين رقبته قلادة حملت أنيابًا حادة لسميليودون ضارٍ، مع معطف أنيق مرصع بالحلقات المعدنية السوداء اللامعة، أسود سميك وناعم، تدثر فوق طبقات وطبقات من الصوف والجلد المقوى، وعلى كتفيه فرو أسد بربري أبيض ناصع، وبجواره كانت فأسه العملاقة المنقوش فولاذها بالرموز.

واقتربوا منه وانحنت «ميڤيا» احترامًا له، ودقق القائد هيستوس في ملامحه الجامدة أكثر، كان أصلع، عيناه الرماديتان كانت قاسية كالجلمود، ونظراته باردة وهادئة تحمل هدوء ما قبل العاصفة، يحمل وجهه قسمات القوة والصلابة والهيبة على جفنه الأيمن جرح غائر تسببت به مخالب مشحوذة، له لحية خشنة تنحدر إلى ذقنه رويدًا رويدًا بغزارة، موشومًا كان وجهه بعلامات غريبة، بلغة كانت قديمة جدًّا على ما يبدو،

وخمن أنها ربما كانت لغة الأسياد العتيقة؛ تميمة سماوية على الأرجح أو ربما تعويذة سفلية.

وحينها وقف أمير القبائل كريدو من على كرسيه الوثير، فكان طويلًا مهيبًا جدًّا، واتجه نحو طاولة عليها زجاجة من النبيذ، جلس كريدو ثم صب كأسين، ونظر للقائد هيستوس وقال بصوت قوي خشن تملؤه الهيبة:

- تفضل بالجلوس أيها القائد.

صرّت السلاسل الفولاذية واحتكت ببعضها حين تحرك القائد هيستوس، وجلس أمام أمير القبائل، وقرب له كأس النبيذ، وتناوله هيستوس، وتبادلا نظرات حادة للحظات حتى أردف كريدو:

- لعلك تتساءل لم أنت ما تزال على قيد الحياة حتى الآن؟

- في الحقيقة أفعل!

تجرع كريدو من كأس النبيذ وأردف:

- أريدك أن تكون رسولًا مني لأطلس.

قال القائد هيستوس بتعجب داهم ملامحه:

- كان بإمكانك أن ترسل أي رسول من رسلك برسالة لأطلس!

- ليس أي رسول هو «العقّاب الملكي»؛ أقوى فارس في مملكة إيڤيريا تقريبًا وقائد الفيالق الذهبية، وقائد جيش أطلس الجسور، أنت أيها القائد ستكون نص رسالتي لأطلس!

ابتسم هيستوس ابتسامة باهتة بعد أن تجرع كأس النبيذ جرعة واحدة وقال:

- لقد فهمت الآن، أنت تحاول أن تفتعل حربًا!

ثم طفق متسائلًا: «ولكن لماذا؟».

ملأ «أمير القبائل» كأسه بالنبيذ مرة أخرى، ثم تساءل بهدوء شديد لا ينذر بالخير:

- هل شاركت في حرب الإبادة أيها القائد هيستوس؟

- نعم بالتأكيد؛ كنت قائدًا للفيلق الذهبي في جيش أطلس.

- كونك كنت قائدًا للجيش يومًا ما، فهل تعرف لماذا تقام الحروب؟

- تقام الحروب لسببين لا ثالث لهما؛ إما بحثًا عن المجد أو سعيًا للانتقام!

ظل «أمير القبائل» يرمق القائد هيستوس بصمت، وحملق الأخير للحظات صامتة في الفراغ حتى عاد يقول:

- ولكن صدقني، بعد أن خضت حرب الإبادة بجانب أطلس، أيقنت يقينًا تامًّا أن لا مجد يأتي من الرماد، ولا الانتقام العنيد يشفي ما في الصدور، في النهاية لقد تركت ملكي يتخبط بين أعتاب الجنون.

- ولماذا تخدم ملكًا قاده كبرياؤه وعجرفته إلى الجنون؟

- القسم يظل قسمًــا تحت كل الظروف، والشرف سلاح من نور يضيء ظلام الكون الحالك؛ اعتدت سماع تلك الكلمات الرنانة من رجل أكنّ له الاحترام الشديد!

- أنا أيضًا أكن له الكثير من الاحترام والتقدير، فلم أر رجلًا شريفًا كالكونت داريوس قط.

حملّق القائد هيستوس قليلًا في وجه أمير القبائل القاسي، ثم أردف بتعجب شديد:

- هل كنت تعرف الكونت داريوس؟

- نعم، أعرفه جيدًا، كان رجل شرف وشجاعة، لا يستحقه أطلس، ولا تستحقه تلك المملكة الفاسدة المليئة بالخيانة والجشع!

- ومن أين لك أن تعرفه؟

- غارة لاذعة ربما!

- غارة؟!

- نعم! أسماها البعض بــغارة «معقل اللهب»، لقد كان هذا منذ زمن بعيد، أبعد مما قد تتخيله يومًا.

- لم أسمع يومًا عن غارة قادها القائد داريوس على أراضي ڤالكارد!

- لم يقد الغارة داريوس، بل كان أطلس، عندما كان الملك أميرًا طائشًا، وكان أبوه الملك «أمناديل» ما يزال على قيد الحياة بعد، اعتلى جواده الأبيض الناصع، وفوق رأسه الخوذة الذهبية ذات القرون الهائلة، قاد جنوده نحو أراضي ڤالكارد سعيًا لإثبات نفسه؛ غارة كانت لاسترقاق العبيد، يومها أرسلت القبائل السبع نداءً للأقاليم الأربعة ولم يستجب سوى إقليم واحد فقط، كان سيده شابًّا في عقده الثاني، سمعت كثيرًا عن

شرفه وعدله، وشجاعته كان لا يخشى قوة الملك أو بطشه، وكان على رأس قواته متجهًا إلى أراضي ڤالكارد لمواجهة الأمير الطائش، وتجمعت القبائل السبع في معقل في الشمال، ووقف المحاربون في صفوف لمواجهة أطلس وجنوده، أشباح من الفولاذ كانت تعدو عبر المعقل وضوء النار ينعكس على القمصان الواقية والأسلحة الفولاذية، وبعد لحظات أدركت انهم اخترقوا الأسوار في بقعة ما، واقتحموا البوابات الجانبية، وامتلأ الليل بأصوات الفولاذ المتقارع، وصراخ الجرحى والمحتضرين، وفي لحظة توقف فيها الزمان جاء على رأس قواته من الأفق البعيد مندفعًا كالسهم، هجم داريوس بقواته على قوات أطلس، حتى انسحب أطلس بقواته وفر بعيدًا، ولكنه قد أسر الكثير من شعبي، ومن ضمنهم كان أبي ومعه شقيقتي «كاسندرا»، استرقهما أطلس في البلاط الملكي لسنوات، ولكن يأتي القدر أحيانًا بالكثير من السخريات؛ أحب أطلس شقيقتي «كاسندرا» حبًّا شديدًا، وكان يريد الزواج بها بأي ثمن كان، ولكن الملك «أمناديل» رفض، وقطع رأسها وعلّقها على خازوق وأرغمه على النظر لها لساعات طويلة، لقد حزنت كثيرًا عليها، وأقسمت أن أسعى للانتقام من أطلس، مهما كلف الثمن، الآن لدي جيش كبير، قوات، ذئاب، وحوش ضارية، ما يكفي لإسقاط سيادة أطلس عن العرش إلى الأبد.

ثم وقف بعصبية حاملًا فأسه الهائلة مندفعًا نحو القائد هيستوس، رافعًا الفأس في الهواء وهوى بها بقوة على القيود الفولاذية التي كانت تقيد القائد هيستوس، وتفتت الفولاذ وسقط أرضًا في لحظات، ثم احتدت نبراته وصاح غاضبًا مكشرًا عن أنيابه الضارية بصوته القوي الأجش:

- طر أيها العقّاب، وعد إلى ملكك أخبره بأن الحرب قادمة إليه، حلّق بجناحيك الذهبيين سريعًا لأن وقت ملكك قد شارف على النفاد!

ضجت الساحة بهدير الحشود الغفيرة، ضجيجًا كان في كل مكان، آلاف الأفواه التي تتحدث في آن واحد وارتفعت الأصوات والهمهمات ممزوجة ببعضها بعضًا؛ مخلفة وراءها فوضى عارمة؛ الجميع يتحدث عن أمر قضية يد الملك، في منتصف الساحة بجوار بحيرة «الخطايا»؛ يقال إن الملك إيغور عاقب الرجال الذين تمردوا عليه في تلك البقعة، وعند تلك البحيرة تحديدًا، ولهذا أطلق عليها الشعب ذاك الاسم، انتصبت المنصة الخشبية بجوار البحيرة تمامًا، كانت ضخمة جدًّا، ووقف الجنود حولها من كل حدب وصوب، فولاذ فوق حلقات معدنية وصدريات مبطنة، باللون الأسود كانت دروعهم محفوفة بالذهبي، وقف أركام وسط الحشد الغفير متخفيًا، ولثم ملامحه بغطاء فوق رأسه أخفى وجهه، وتحرك للأمام وذاب بين الحشود الغفيرة، واستقر عند مقدمة المنصة، منتظرًا للقدر أن يقول كلماته الأخيرة.

لم يكن ليعتقد أركام أن هذا قد يحدث يومًا ما، ها هو الآن في العاصمة كاسرًا عهد السيد والده، وعاجزًا عن فعل أي شيء آخر سوى الانتظار، كان السيد والده رجلًا شريفًا، لا يخالج صدره شك بهذا الأمر، الملك خائن ربما أو الملكة كذلك على الأرجح، ولكن ليس السيد والده بالرجل الذي يخون، لقد تعلم منه معنى الصدق والشرف، كان سيفه
«الهلاك الأسود» معلقًا بجواره موضوعًا في غمده، شدّ على مقبض السيف وتأهب لأي شيء كان؛ هو لن يدع مكروهًا يصيب السيد والده حتى وإن كلّفه هذا الأمر حياته، حتى وإن كلّفه الأمر أن يقتل مئات المرات، فلم يكن لديه خيار آخر؛ إما إن يعود بالسيد والده، أو لا يعود على الإطلاق، لقد كسر الميثاق، ولن يتوانى عن الحفاظ على شرف السيد والده بالسيف أو بأي طريقة أخرى كانت، وظل مترقبًا بين الحشد، صامتًا، ومتأهبًا كان نصله.

كان الجو باردًا، قاتمًا وكئيبًا؛ وكان الهواء عاصفًا، حاملًا بين عزف رياحه مطرًا في سحاب أحمر دموي توسد السماء كالذئب الغائر؛ وكأن السماء كانت تنزف دماء ذلك اليوم، يكاد أن يفيض السحاب الأحمر في أي لحظة مواتية، وتحولت نظرات كل من في الساحة ناحية الشمال؛ أو بالأحرى في اتــجاه بحر «الرماد» العظيم، في منتصف البحر كانت هناك عاصفة شرسة بأنياب حادة، وتبين الجميع أن العاصفة تقترب بعد مرور كل لحظة، كان بحر «الرماد» مهتاجة أمواجه وسماؤه أيضًا، وظن الجميع أن إله بحر الرماد؛ «فالكين» الهائل غاضب وغير راض عن تلك المحاكمة التي سوف تقام بعد دقائق معدودة.

لا تأتي عاصفة كتلك إلا مرة واحدة كل ثلاثين عامًا، وتظل لأسابيع عدة؛ يهطل فيها السحاب بمطر أحمر كالدم، ولأسابيع لا يخرج فيها الناس من أبواب منازلهم، وأطلق أهل العاصمة اسمًــا على تلك العاصفة وهو «الذئب الأحمر»؛ وكان هذا بسبب جرح السماء الذي يشبه الذئب الغائر، والغيوم الحمراء التي تهطل بمطر أحمر، والبرق الأحمر الذي يضرب السماء لأيام عدة عندما تهب تلك العاصفة الشرسة، كانت السماء تضيء باللون الأحمر الدموي؛ شب البرق الأحمر وتشابك في السماء كآلاف الشهب التي سقطت دفعة واحدة؛ خالبًا الألباب والأنظار، وقابضًا معها القلوب من بين أضلاعها، وكأن السماء اشتعلت لهبًا متوهجًا في لحظات، وكان هزيم الرعد الهادر يصم آذانهم ويهز صدورهم خوفًا بالرغم من المسافة البعيدة بينهم وبين بحر الرماد؛ فإنهم شعروا أنهم في منتصف العاصفة تمامًا، وجميعهم شعروا بالخوف بلا استثناء.

ومرت دقائق عديدة حتى حضر الموكب الملكي أخيرًا، ومن الأفق البعيد اقتربت العربات رويدًا رويدًا، عربة الملك أولًا كانت في المقدمة ويحيطها الحراس من كل اتجاه، ثم من ورائها عربة الحجز، بالداخل كان داريوس، لقد شعر أركام بهذا، وظل يرمقها

لعله يرى السيد والده، واقترب منها ولكن منعه الحراس بخشونة ودفعوه أرضًا للخلف، ومن وراء عربة الحجز حيث كان الخيّالة فوق أحصنتهم الصهباء، صهلت الأحصنة حين شد عليها الفرسان وترجلوا من فوقها، وتوقف الموكب متتابعًا وراء بعضه بعضًا؛ مئات من الجنود ومئات من السيافين المتأهبة سيوفهم داخل أغمادها، وتحاشى الناس الموكب الملكي الهائل حين مر، كانت العربات تقف تترا، وران في الساحة صمت مهيب يمتلئ بالضجيج الهائل؛ مكشرة عن أنيابها أصوات الرعد الهادرة، وينبعث من السماء برق أحمر هائل خطف أبصارهم وبث الرعب في قلوبهم.

فوق المنصة وقف جلادان يتوشحان بالأسود القاتم كظلام الليل من رأسهما حتى أخمص قدميهما، فوق رؤوسهما أقنعة كانت سوداء بثت في أجساد الواقفين في الساحة الخوف والقشعريرة في آن واحد، حمل أحدهما سيفًا هائل الحجم في يده، والآخر كان يحمل حبالًا سميكة خشنة الملمس، ولم يكن هناك شيء آخر في الساحة سوى الصمت القاتل وصوت الرعد الذي هز الأوصال والقلوب، اعتلى المنصة الخشبية كرسيان مريحان ليجلس عليه الملك والملكة إلى حين النطق بالحكم.

وعندما ترجل الملك وزوجته من موكبه الهائل متجهًا نحو المنصة، كانا يرتديان الرداء الرسمي الموشح بالذهبي والأسود، فوق رأسه كان تاج السيادة شامخًا مستقرًّا، وتوقف ناظرًا إلى الندب الأحمر الذي غشى السماء بأكملها، وشعر بهيبة وخوف في آن واحد، لم يكن يعرف لماذا اعتراه الشعور بالخوف ولم يجد مبررًا لهذا الشعور الذي هيمن على روحه وجعل أوصاله ترتعش بشدة، وظل يرمق الندب الأحمر لدقائق مشدوهًا، وشعرت الملكة هيميريا بشعور سيئ حيال الأمر برمته.

وحين اعتلى كلاهما المنصة انحنى لهما جميع من في الساحة الواسعة وتوالت الرؤوس في الانحناء رأسًا تلو الأخرى حتى لم تتبق رأس مرفوعة في الساحة بأكملها، وجلس الملك على كرسيه وبجواره الملكة ووقف من ورائه يد الملك وساعده «ألكيدس»، وارتفعت الهمهمات من الحشد في المنصة حين قال حاجب الملك:

- «فليحيا صاحب السيادة، وملك العرق البشري وملك «إيڤيريا»؛ من تسير بين عروقه دماء الأسياد الأصيلة، الأول من اسمه الملك «أطلس» ابن الملك «أمناديل» وحفيد عابر بحر الرماد العظيم والملك الأول للبشرية «إيغور» الفاتح».

في السماء اقتربت السحب الحمراء من العاصمة، وظن الجميع أنها سوف تمطر في أي لحظة مواتية، ولكن إن أمطرت لن تمطر مطرًا عاديًّا، بل ستمطر مطرًا دمويًّا، جميعهم يعرفون هذا، كان التوقيت سيئًا لتهب عاصفة كتلك الآن، وهمس الناس في آذان بعضهم بعضًا، بأنه ربما سوف يتجلى إله من السماء ليعلن عن براءة يد الملك

المبتورة؛ الكونت داريوس، وظل الجميع يترقب هطول المطر الأحمر ليصدح ربما بالحقيقة الغائبة؛ الحقيقة التي لم يبحث عنها أحد قط!

أشار يد الملك «ألكيدس» إلى الحراس بنظرة، فتحرك حارس إلى عربة الحجز، وفتح باب العربة وترقب الجميع ليروا داريوس، وسمع الجميع صليل أصفاده حين ترجّل من العربة، كان على عينيه عصابة سوداء ألجمت رؤيته، فلم يكن يرى شيئًا أبدًا، وقاده الحارس إلى المنصة مقيدًا بالسلاسل والأصفاد، معصوبة كانت العينين، ثم طرحه الحارس أرضًا بقوة وبخشونة عاتية قبل أن ينزع العصابة عن عينيه، وصرخ بأنين بالغ؛ لم تتحمل عيناه الضوء بعد شهور من الظلام الجامح.

رمقه الجميع غير مصدقين ما تراه أعينهم حتى الآن، رثة كانت ملابسه، كأنه صارع آلاف الوحوش الضارية بين حوائط سجنه الرمادية، طويلة كانت لحيته شعثاء متشعبة كالغابات، كان هزيل الجسد ونحيلًا جدًّا، ارتفعت الهمهمات من الأفواه في الساحة بغير توقف غير مصدقة أن هذا يد الملك والبطل الذي تـحكى عنه الحكايات والأساطير؛ المحارب الشجاع والبطل العظيم الذي خاض «حرب الإبادة» بجوار الملك، وتعالت الأصوات في الساحة وعاد الضجيج مرة أخرى بلغط واضح.

وقف أركام في المقدمة، وعندما رأى السيد والده ظل يرمقه بتأن وهدوء غير مصدق أن ما يراه هو السيد والده حقًّا، وانسحق قلبه داخل صدره؛ فليس هذا السيد والده أبدًا، وليس شيئًا على الإطلاق، لم يكن الذي يراه الآن سوى ظل لرجل لم يعد موجودًا بعد الآن، وباغتت الدموع عينيه، وبكى بغضب شديد، وراودته الأفكار في عقله عن الموت والرماد للحظات، كان يفكر بأن يسحب سيفه من غمده ويقتلهم جميعًا، الملك ثم المدعو ألكيدس، والملكة أيضًا، وكل من في تلك الساحة، سيغدو الجميع موتى، سوف يقتلهم جميعًا بلا رحمة ولا أدنى شفقة، كان دمه يغلي بين عروقه غضبًا ممزوجًا بالأسى والحزن معًا، ولم يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل.

وتقابلت عيناهما معًا، وظل كلاهما يتبادلان النظرات بصمت وحذر شديد، لم يكن داريوس يرى جيدًا، ولكنه تعرف على ملامح ابنه بكل تأكيد، ولم يكن شيئًا يجعل داريوس يبكي مهما كان، ولكنه بكى، وأصبح يئن أرضًا كالأطفال، عاجزًا عن فعل أي شيء، عاجزًا حتى عن مسح دموعه التي سقطت ساخنة على وجنتيه، تلك الدموع التي قالت كل ما يمكن أن يقال في تلك اللحظة.

وهدأ كل شيء مجددًا حين تحدث يد الملك الجديدة؛ ألكيدس، ناظرًا للحشد الغفير المتجمع أمامه في الساحة، وصمت الجميع ليستمع إلى كلمة يد الملك:

- منذ عشرة أعوام، افتعل الملك حربًا ضروسًا، حارب لأعوام عديدة الأمير إلكادور لسبب كان وجيهًا لنا جميعًا وهو الشرف، اليوم وفي هذا اليوم يخوض الملك حربًا أخرى من أجل الشرف.

ثم صمت قليلًا ثم استطرد: «جميعنا يعرف الكونت داريوس جيدًا، رجل شرف وأمانة وصدق، وسيد أعظم إقليم في المملكة بأسرها «إقليم الأسياد»، ولكن داريوس الآن موجه له اتهامات عدة، وهي التعدي على الملكة، والخيانة الملكية لمنصبه، وهناك شهود على الواقعة، والأمر متروك الآن لملك السيادة أطلس».

ثم عاد ألكيدس واقفًا خلف الملك من جديد، نظر داريوس إلى ألكيدس، وابتسم له ألكيدس ابتسامة ملتوية، ثم حوّل داريوس عينيه ونظر إلى الملك في عينيه؛ يتوسل إليه من أجل الرحمة، كاد قلب أطلس أن يخرج من بين أضلاعه ألمًا، كم تمنى لو احتضنه في تلك اللحظة، وكم تمنى لو عادت الأمور إلى نصابها كما كانت عليه سلفًا، ولكن لا سبيل لذلك الآن، ونظرت إليه الملكة بعين الرحمة وكاد أن يفيض من عينيها البكاء، إلا أنها كبحته بأن أشاحت نظراتها عنه تمامًا.

نظر الملك إلى زوجته هيميريا نظرة طويلة، تلك النظرات التي عبرت عن معاناته العميقة، والحزن الأبدي الذي سكن فؤاده، كانت عيناه يملؤهما الحيرة الشديدة، همست له بألم شديد وحزن أشد وطأة كان من الموت:

- أرجوك يا أطلس، اعف عنه، أتوسل إليك، أرسله إلى وطنه وليكن له منفى إلى بقية عمره، دعه يرحل؛ أتوسل إليك بكل الآلهة والأسياد.

وظل ينظر لها وكبح وهنه العاتي الذي أكل روحه قبل أن ينتصب واقفًا غاضًّا الطرف عن كل شيء، واقترب ثم نظر إلى داريوس بعينين تكاد أن تنهمر منهما الدموع، وكاد أن ينهار مرات عدة قبل أن يتمالك نفسه ويقول بصوت جهور سمعته كل الآذان في الساحة:

- بأسماء الأسياد الأوائل وعصور ما قبل الفناء العظيم، وبالسلطة الممنوحة لي من قِبل الآلهة، أنا صاحب السيادة، وملك العرق البشري، والأول من اسمي؛ الملك أطلس ابن الملك أماندیل وحفيد الملك العظيم إيغور الفاتح، أحكم عليك يا داريوس...

ثم تنهد ساحبًا نفسًا من الهواء بعمق إلى رئتيه، كان يبدو مرهقًا بشدة، باهتًا بلا لون على الأرجح، وصمت بغتة وعيناه تمتلئ بالشفقة والحب والدموع، كانت الغربان تحلّق فوق رأسه، ويكاد أن يخترق نعيقها أذنيه، هو يعرف أن لا غربان هنا في العاصمة، ولكن أسراب الغربان تلك لم تكن تنعق، بل كانت تعوي عواء مرعبًا لا يسمعه سواه، في الجوار كان هناك مِقْصلة مفزعة ترهب الغربان التي كانت تعوي في

كبد السماء؛ كانت ذات إطار طويل يحمل بين أحضانه نصلًا ثقيلًا وحادًّا جدًّا، كان النصل معلقًا ينتظر أمر السقوط الأخير، وشعر بالرهبة الشديدة حين رمقها، ثم عاد من غياهب عقله المظلمة حين نطق أخيرًا: «أحكم عليك يا داريوس بالموت المحتم الذي لا تشوبه احتمالات».

كان صوت الملك مهتزًّا يمتلئ بالتردد والخوف، وامتلأت الساحة بالضجيج الهادر والتذمر على الحكم الذي أصدره الملك، وفي لحظة كاد أن يسحب فيها أركام سيفه من غمده، ولكنه توقف عندما حدجه أبوه بنظرات حادة، وقال بكل ما أوتي من قوة؛ بوهن عظيم وهمس لم يسمعه أحد: «ارحل! ارحل بعيدًا عن هنا، ولا تعد أبدًا!».

وتحرك الجلاد نحو الكونت داريوس وقاده بهدوء شديد نحو المِقصلة، بخشونة وضع رقبته تحت نصلها المشحوذ، كان الجميع في صدمة وذهول تام، نظر داريوس إلى أركام نظرة أخيرة، قبل أن يرفع الجلاد الآخر سيفه في الهواء ويهوي به على حبال المقصلة الهشة، وفي لحظة هوى النصل الحاد على رأس الكونت داريوس، وبترت رأسه عن جسده تمامًا، وبعدها ضرب الصمت الساحة كما ألجم ألسنة الناس جميعًا، وتسربت دماؤه من المنصة عابرة نحو البحيرة، وهبط المطر الأحمر من السماء بغتة، واختلط الماء المنهمر بدمائه المنسالة، وضجّت السماء بصوت الرعد الهادر وتحرك الناس مغادرين الساحة بعد أن بدأت تلك العاصفة العاتية بالزمجرة عاليًا، جميعهم رحلوا باستثناء واحد فقط، ظل واقفًا بغير حراك غير مصدق ما تراه عيناه بعد، يرمق رأس أبيه المبتور بأسى شديد فوق المنصة، وينهمر عليه المطر الأحمر كالدماء، كان يبكي بلا صوت، ودموعه كانت صادقة في عينيه، وانكفأ على ركبتيه أرضًا منهزمًا بغير حراك، كان طعم الرماد والدماء في فمه مرًّا كالتراب، وصرخ على السماء بغضب متوعدًا بالانتقام.

وسحب سيفه من غمده قبل أن يطلق صليلًا عاليًا، ولمع النصل تحت الضوء الأحمر الخافت المنبعث من السماء، وبكل غضبه وبكل مأساته العميقة السوداء، وبكل ما أوتي من قوة؛ هرع مندفعًا بقوة نحو الملك، وبكل شراسة وغضب كاد أن يفتك به فتكًا، ويغمد السيف في صدره ساحقًا أضلاعه الهشة وقاسمًا قلبه إلى نصفين، ولكن حالت بينهما تلك الضربة القاسية التي تلقاها على رأسه بقوة غاشمة من حراس الملك، والتي أسقطته أرضًا بجوار الجثة المنزوعة من رأسها، كانت الدماء الغزيرة تنبثق من رأسه، وتلطخ بالدماء المنسالة من الجثة المنزوعة من رأسها، ونظر لرأس السيد والده المبتورة أمام عينيه، وطفق يتساءل:

هل هناك أنين للموتى؟

يقول السيد والده إنه لا أنين للموتى!

هل للشرف ثمن ما؟

يقول السيد والده إنه لا ثمن للشرف!

وأغمض عينيه وتلاشى كل شيء من حوله واستحال إلى ظلام جامح!

تسلل إلى أذنيه صوت يشبه الزئير، من أعلى السماء كان محلقًا، فوق ظلال سوداء حالكة، كانت التماثيل الحجرية ترتجف فزعًا في قاعة العرش، نظر من النافذة العملاقة؛ لم ير كائن الجريفن منذ حرب البشر الأخيرة، ظل يرمقه وهو يحلق في السماء بانبهار شديد، كان «الظل الأسود»؛ هو آخر السلالة من جنسه ونوعه، وهو الجريفن الوحيد الذي نجا من وطيس الحرب الملتهبة، وسمع صوت هبوطه الهائل في قاعة النوافذ العملاقة، وأطلق زئيرًا هادرًا مرة أخرى قبل أن يحلق في الهواء مجددًا، وبعد لحظات دخل قاعة العرش رجل ملثم بالظلام الأسود الحالك، تتلفحه الظلال من كل جانب، ولم يظهر منه شيء سوى يديه التي كانت شاحبة كالرماد، وكان يحمل بين يديه شيئًا ما، كان طفلًا صغيرًا ربما، وتأكد جلادور من هذا عندما شرع الطفل في بكاء لا يتوقف؛ كاسرًا طوق السكون الذي حل، عبر الرجل الملثم ممر التماثيل الحجارية بهدوء بالغ ثم قال بصوته الخافت كالفحيح بعد أن ناول جلادور الطفل الصغير:

- هذا وريث عرش إيڤيريا؛ ابن أطلس وصاحب السيادة القادم.

حمل جلادور الطفل الصغير بين يديه، وظل يرمقه طويلًا، ثم نظر إلى الرجل الملثم وابتسم وأردف:

- أحسنت يا ميجور، أحسنت.

ثم نظر من خلال النافذة العملاقة رامقًا الجريفن الذي يدعى «الظل الأسود» محلقًا بين السحاب الشاهق:

- الآن تبدأ الحرب الحقيقية ومعها يبدأ زوال السيادة البشرية إلى الأبد.

«النهاية!»

«تمت بحمد الله»